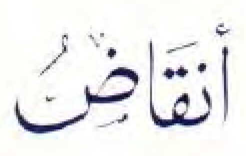
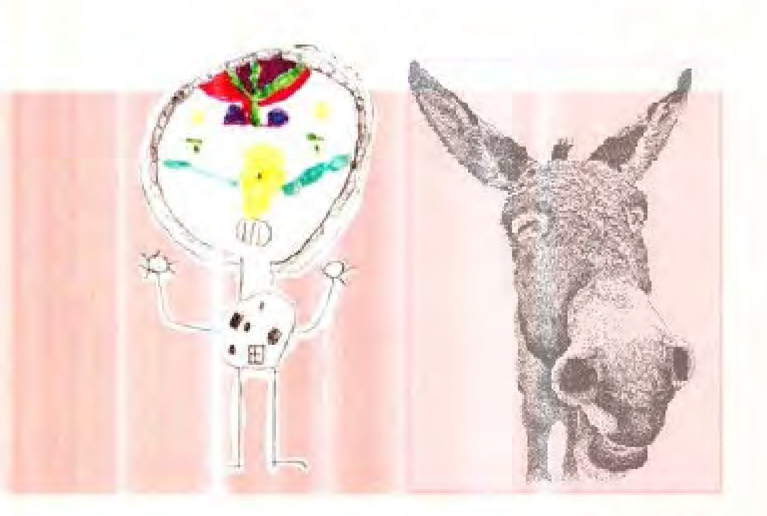
سليم بركات







رواية



دار النهار



انقاض الازل الثاني

سليم بركات

أنقاض الأزل الثاني

روايــة



الطبعة الأولى ، شباط ١٩٩٩

ص . ب . ٢٢٦-١١ ، بيروت ، لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩

ISBN 2-84289-118-x

المحتويات

(١)
بغال تترنَّح على مشارف «كايْ خودان»

لا يعرف الرجالُ الخمسة أيةَ طرق سلكوها، حقاً، ليصيروا إلى الجانب الغربي من هضبة «كايي خُوْدان»، أيْ «ثَوْر الله»، المشرف على الحقل الذهبيِّ شرقِ دجلة، الذي يزيده المغيبُ الخريفي الرطبُ التماعاً بجلالِ النَّقْشِ المنسحب من عباءات غيومه القصيرة على الأرض. إنها حقول قمح أو شعير، ترك الحصَّادون فيها أسواقَ النبات الكريم لرعي أغنامهم. ذلك ما لا يخفى على نواظر الخمسة الممتلئة عظامهم بعلوم الأهوية من منحدرات جبل هكّار حتى جبل سنجار. لكن طغيان اللألأةِ الذهبية في تلك الحقول المسكوبة من قِرْبة السماء ماوَجَتْ في قلوبهم الثقيلة أنيناً كبخار الرصاص المُذاب: أنْ لا تكون قطعانُ الضأن استنفدتِ السيقانَ اليابسةَ، الباقية من رأفة المناجل بها، حتى مطلع الخريف، فذلك يعني هجرةَ أهل المكان عنه، أو الحذرَ من ارتياده.

أنزلَ الخمسة أحمالهم القليلة من صُرَرٍ، وقِرَبٍ، عن ظهور بغالهم التتريَّة، ذوات الرؤوس المحدَّبة الجباه. هي نَسْلٌ من أُمّهاتٍ في هضاب آسيا النابتة على رئات السهوب كفُطر آذار. رجلان تتريَّان، مسلمان، يقرآن سوراً من المصحف برطانةٍ هي صدىً باقٍ من عزيف الريح في ممرات جبال التَّاي، قادا – من نواحي بحيرة بايْكال – قَبَلَةً من تلك السلالة، المتحدِّرةِ من سِفادٍ بين ذكورِ خيل المغول وحُمْرِ الكهوف البريَّة في صحراء قَرَهْ

قُوْمْ ذات الصخور المُمسَّدة بالزئبق. تتريَّان، لا غير. سَرَحَتْ عيونُهما المشقوقةَ بشفرة الشمال الأقصى الرحيمةِ وراء خَيالِ الجبل التائه بلا توقُّفٍ. عيونُهما جوزاتُ قطن في أوَّل إطلالة للبياض الجنين من بين أجفانها. بياضٌ يَرَى ولا يُرى. حدقاتٌ مختبئة مِنْ كائن ألغازها. كان يحلو لتجار الجياد والبغال تشبيه عيون ذينك التتريَّيْن بالنَّرْد: كلُّ حركةٍ رقمٌ في حساب الغيب.

هناك، في الكُوْرَةِ الكردية غرب بحيرة أوْرمية، بأرضِ كردستانَ من إقليم فارسَ، باع التتريان بغالهما الأحدَ عشر بمصكوكاتٍ من الذهب المختوم باسم الجلالة. وها هي أحفاد تلك البغال تُراحُ، بعد مسيرٍ تعضُّ فيه الساعاتُ الساعاتِ، في الجانب الغربي من هضبة «نور الله»، وينزل عنها الرجال الخمسةُ متنفِّسين - من رئاتهم المعتَصَرةِ - قلقَ الرحيل إلى مجهولٍ مُوْصَد لا يعبث بقُفله غير النهر المؤنس، في البُعد، وهو يحفر لوحَ المغيب بأسطر مياهه المتعرِّجة كخطوط الصَّفَن: تبادلوا لِفافات التبغ. أشعلوا واحدةً من جمرة الأخرى حرصًا على حجر القَدْح الأوحد المتبقي في الآلة الصغيرة. رسموا، بالدخان الحكيم، توريات لأملهم المذعورِ، وسرَّحوا أبصارَهم، صامتين، في الشفق المسكون بلوعة الجماد الحالم. تنحنح واحد منهم. مطَّ عنقَه متحسسًا برعشة الخيال: «أليست تلك بيوتاً؟».

ظلَّل الأربعة الآخرون عيونهم بالراحات: «إنها هي بيوتٌ» تمتموا بتوافق في اهتزاز حناجرهم.

«هلموا نقصدها»، قال أحدهم.

غمغم ثلاثة آخرون: «لا».

الحذر يقتضي الإحجامَ عن مقاربة كلِّ غريب. هم

يحملون في عظامهم عزيف الحَذَر مُذ فرُّوا من « مهاباد » ذات العويل المرتطم كالفَرَاش بسراج الغَدْر. جسد القاضي محمد يتدلى من عمود وسط حديقة من الحبال نبتت في أطرافها رؤوسٌ متكسِّرة الأعناق. إعداماتٌ بختْمٍ ذي نصفين أحدهما إيراني، والآخر بلشفي. الخمسة نجوا برأفة القَدَر في إسدال حجابه على المنظورات. هكذا خمَّنوا الأمرَ. عبروا جنبات ساحةِ الاعدام على بغالهم التترية، مكشوفي الوجوه، مستسلمين بيقين اللاجدوى من الإفلات. الوقيعةُ كانت نَفْخاً في بوق المُحَتَّم: سلَّمت الكِرِمْلِنُ عنق القاضي الدمث إلى مطحنة العصف الفارسيِّ. والخمسة تساءلوا، حين صاروا إلى الخلاءات الكبرى، المنذورة لرقابة الطير وحده، إن كانوا خفيِّين. ذلك أمر لا يستعصي حدوثه في الموجودات التي كانت، من قبل عَدَماً كريماً. الظهورُ والإختفاء بذرتان للنشأة الواحدة. لربما حدث أن المشيئة أخفتْ صورَهم وهم يعبرون ساحةَ الإعدام. ظلَّلَهم الحقُّ بشجرة المُمكنِ العريقِ، فعادوا إلى صِفَتهم أطيافاً. هكذا أوَّلُوا نجاتَهم. لربما هي الآية المُسْتَتِرَة في خَلْقِ البغال. البغال إذاً. الحضورُ المتناسل من خارج ذاته: حيوانٌ لا يورث مولودًا. عقيم الرحم، عقيم المنيِّ. هو الحاصل المنقطع عن صيرورته، تستولده غوايةُ جِنسٍ آخر ببراثنِ الشهوة نَحْتاً في العَدَم الخالق؛ آيةُ انقطاعِ النسلِ، وعجزٍ عن تدبيرِ ماهيته صورةً بآلاتٍ من لحمه وخياله، فهو لا يظهر إلاّ في مُمكناتِ الآخر. الحمار والفرس؛ الجواد والأتان، يجتمعان على تأكيد المُمْكن حدوثاً في صوغٍ ثالث. الممكنُ صَفْقةٌ حيوانيةٌ، والبغلُ إعجازُها.

يا لَكَرمِ المصكوكات الكبرى - كَرَمِ الانعتاق من الشكل في المرآة: هذا ما تبادلوه فيما بينهم بألفاظ الامتنان البارع، المُسَطَّرِ في الأنفاس وفي الأحشاء، ومسَّدوا براحاتهم على جباه البغال ينقلون دبيبَ امتنانهم، في خطوط بواطنها، إلى الأطلسِ الأمين ما وراءَ عظامِ تلك الجباه. وها هم هنا، الخمسةُ الرجال والخمسة البغال، في نصف حلقة من مركز المغيبِ المدوَّنِ بحبر الشّفافات على تَرْقُوة الفراغ المستديرة، يستقبلون بوجوههم تلك البيوتَ المبثوثَة في رقعة الضفتين كدعاسيقَ خمريَّةٍ. بهم رغبةٌ في دحرجةِ خطواتهم إليها، وإرخاءِ القياد لقلوبهم في جوارها، لكنهم فزِعون. دويُّ انهيار جمهورية «مهاباد»، التي ظلَّل تخومَها السحابُ بضع مئات من الأيامِ، أنْضَجَ الكَمَأ في مجاهلِ التيه من بحيرة «وَانْ» إلى الخابور، ومن تبريز إلى دجلة. دويُّ الدَّم رجَّ الأثداءَ الصخريةَ لمنابت الكُرْد، وقوَّض هيكلَ المشيئة. حين تراجع شالين عن حماية جمهورية أذربيجان الأولى أدرك القاضي محمد، رئيس جمهورية الكُرْد الأولى، أن أرضه مشمولة، أيضاً، بانحسار الحماية. زرَّرَ جُبَّته على هيكله النحيل وانتظر خيل الجيش الإيراني، الذي رفعهُ، بحبلٍ نحيل ملتفٍّ على عنقه، إلى الجسر المُعَلَّق بين ضفَّتي الجوهر، حيث تتصيَّد الخليقة هُناك، بشصوصٍ من ذكرى الوجود، أسماكَ الروح الناطقة بلسانْ العَدَم الأمينِ - شريكِ الأكيدِ الأمين. وها هم الخمسة الرجال، والخمسة البغال، الذين عبروا ساحةَ إعدام الرئيس مجلَّلين بكرامةِ الظاهرِ المُحْجِبِ، يرتأون البقاء في مكانهم من الهضبة، نصفَ حلقةٍ، يدرِّبون دمهم على دورةٍ أكثر هدوءاً ريثما يحمل النهارُ إليهم خططَ الضوء المرسومة كُراتٍ

تتدحرج من أملِ الإنسان إلى أمل المكان.

أوقدوا ناراً ناعمةً هي ما استطاعت جذورُ نبات يابس أن تنسجه بأنوالها البسيطة. تكوَّموا في عباءاتهم السميكة كل عباءة خيمةٌ على قَدْرِ قلقها، ووساوسها، وحَذَرها. عباءاتٌ خمس، هرميَّةٌ، تنسدل من الرؤوس لتتكوَّم من حول الأجساد الجالسة على الأرض، وماءٌ محلًّى بسُكَّر خشن تغمس فيه الأيدي خبزاً كالخشب. اشتروا من رعاة سنجق «الغور الذهبيّ» خبز ذرةٍ وشعيرٍ، وجبناً مجففاً، بفلوسٍ فضيةٍ، ممهورة بختم الصفويين. وحملوا من بعض الدساكر رمَّاناً في نضوجه الخريفيِّ المُخْتمِر، وزبيباً أسود عليه لَمَعْةٌ من زيت السمسم. هم من بيوتٍ تُجاور، في النَّسَب، بيتَ القاضي محمد. بذلوا لجمهورية الرجلِ الجليل رواتبَ جيشها الصغير، وزوَّدوا مكاتب مأموريها بكراسيَّ من خشب الأورال حملها إليهم ضابط الصفّ أَتِيْم مرادوف القرغيزي. لكنهم يأوون، في مسائهم الضَّحل ذاك، إلى بيوت ضيقة هي عباءاتهم، شاردي الأحشاء كماعزٍ داهمه الرعد. غير أن السَّكينةَ المتراصَّة طبقاتٍ فوق هواء المكان رفعت برقعًا عن صوت ترقرقَ فضَّةً في كأس الفراغ المعتم. «هذا غناء»، قال أحدُ الخمسة مستأنسَ العينين بالوجود الخفيِّ. كرر الأربعةُ الآخرون: «هذا غناء».

لم يكن الخمسةُ وحدهم من فوجئ بذلك الغناء يتدلَّى مُسلَّماً من جنبات السَّكينة. كريم بيرخان، القصير العصبيُّ الجسد، وقف في باب مضافته مصغياً، في الجهة الشرقية من النهر، حيث البيوت اللَّبنية الصغيرة متجاورة كحبوبٍ في فَلْقَةِ رُمَّان. وزنَ المغيبَ المعتم بميزان عينيه، والتفت إلى الجالسين فوق اللُّبود الطويلة، ذات التعاريق المسكوبة من

أشكال النجوم: «أتسمعون ما أسمع؟»، سألهم، فنهض بعضهم مقترباً منه، متطلعاً من الباب ليتأكد بعينيه - لا بسمعِهِ وحده - أن الصوتَ برهانٌ بصريٌّ تحت قباب السهول اللامرئية. شخصٌ من الناهضين إلى جوار كريم بيرخان هيّأ، بمعونة النباتِ الذي يصُوْغ سطوراً من علوم خياله، صورةً لليقين: «هذه حنجرة سُقيَتْ سبع مراتٍ، صباحاً، بلبنٍ رائب فيه زيتٌ من بزر الكتَّان».

تمدَّد كبدُ كريم بيرخان، الرجل الممسك بزمام الضفة الشرقية من نهر دجلة. الريبةُ من مغزى ذلك الغناء استنفرَ شرايين كبده: «أظنُّهم يخيفون إوَزَّنا»، قال ساخراً بلسانه، لا بقلبه. ثم عاد إلى الداخل المضاء بفانوس تولّى تدبيره صانعان مُمْتَدَحان من جهاتِ قزوين.

كان الغناء صاعداً من الضفة الغربية، المأهولة منذ سنة، لا أكثر، بآلِ رستم بَابِكْ. عشيرةُ رعاةٍ قَدِمَت ذات يوم بجلبةٍ من طبول الغبار. عرباتٌ ذاتُ صليلٍ يقدَحُ الحجَر، وأغنامٌ كمجرَّةٍ انقذفتْ من سفوح السماء إلى أطلس الأرض. لم تعجب آلَ كريم بيرخان، الساكنين مجلى الشرق من عتبة المياه، هذه المُجاورَةُ المقتحِمةُ هواءً يشرِّعُ لمذاهبه الإوزُّ والبطُّ المدرَّبان، منذ إحدى عشرة سنة، على العبور رفوفاً من أحلام مالكيْهما، من سماء إلى أخرى، بلا تعبٍ. تأمَّل قاطنو الضفة الشرقية أولئك الوافدين بعيوب تقلِّبُ صفائحَ الغيب الرقيقةَ لتعثر على مكتوبٍ. تأمل الوافدون، وهم يشتغلون على إنزال أحمالهم من العربات، قاطني الضفة الشرقية، مخمِّنين من الهواء الراكِد أنهم لا يحظون بترحيب. وقد تفادوا نَسْجَ إشارات مُعْلَنَةٍ أو مُضْمَرَةٍ يقدِّمون بها حضورهم

المفاجئ للساكنين هناك، بحكمةٍ ترتأي أن يتدرَّب أولئك الساكنون على حضور الوافدين أولًا.

عشرة أيام بتمامها انسلختْ من جلدها الزمني، بعد نضوجها البطيء على وجه الصمت. حملها رستم بابك على كتفيه مقشَّرةً، متوجهاً من الضفة الغربية بلسانه وجسده صوب الضفة الشرقية - هو ثابتٌ في الجهة الأخرى من المياه، لكن قلبه شقَّ اليمَّ بتسع زعانف، ثم علا في الهواء ملوِّحاً: «نحن آل بابِكْ»، فردَّ كريم، وجيْهُ آل بيرخان ذو الشاربين المفتولين في وجهه الحليق بموسى من فولاذ أرضْ رومْ: «لديكم كلاب كثيرة، أيها السيد»، قال مطوِّقاً فَمه براحتيه ليصل صوتُه مغسولاً إلى الضفة الأخرى.

«عسى أنها لا تزعجكم»، هتف رستم بابك، الملتفع بعباءة بُنِّية.

«لا تزعجنا نحن، بل تزعج الإوز. سيفسُد بيْضُه قبل الفَقْس. النباح يُفسِد البيضَ، أيها السيد»، قال كريم بيرخان.

«اسْقوا إوزَّكم صمغَ الجوز الرُّومي»، ردَّ رستم بابك.

قلَّبَ كريم بيرخان تلك الرسالة المنثورةَ في هواء الضفتين بأنامل قلبه. لم يفهمها. قرأ من حوله أعينَ المحيطين به في تلك الظهيرة فوجدها معدومةَ الإشارات. سألَ ابنيه الشابين، الحاسريِ الحطَّتين عن رأسيهما: «أيسخر منا هذا الرجل؟»، فهزَّا جدائلهما القصيرة اللامسة أصلَيْ عنقيهما: «لاندري»، قالا بإيماءةٍ.

نادى كريم بيرخان عمَّه وَالْ، فاقترب الرجلُ الضخم تسبقه عيناه الشهوانيتان - عينا كهلٍ كثيرتا اختلاسِ النظر إلى جهة النساء على الضفة الغربية: «ما هو صمغ الجوز

الروميّ ؟» ، سأله ابن أخيه .

« قد يكون . . . » ، وتوقف لسانُه الذي لم يسعفه عقله في تدبير شرح معقول . كرر الكلمتين المبتورتين كأنما يدرِّبهما على إيجاد إضافةٍ مّا ، فأشاح كريم عنه بوجهه يعفيه من محاولته الخائبة . حدَّق ملياً في الشخص الواقف على الضفة الأخرى . حثَّهُ يقينُه أن يسأل عن مغزى اقتراحه الغامض « اسْقِ الإوزَّ صمغَ الجوز الرومي » ، لكن الحياء من جَهْلِ نَفْسِه بالصمغ الرومي لَجَمهُ عن المحاورة كلِّها . استدار منصرفاً وهو يعضُّ ، في برزخٍ من أعماقه ، على إحساسه الخفيِّ بأنَّ رستمْ ، سيدَ آل بابك ، امتحنَه بحيلةٍ استبطنَها في جُملته تلك .

شهران مرَّا لم يكلِّم فيهما أحدٌ أحداً من قاطني الضفتين . ارتفعت بيوتٌ طينٌ في الغرب ، وحظائر على امتداد سيف الماء . طُوِيت الخيامُ المؤقتة ، التي نصبها آل بابك ، ونُشِرت المساطب الطويلة ، العالية عن الأرض ذراعين لتجفيف السمك . الصغير منه يذهب ، في الأكياس القنب ، سماداً إلى مَزَارع اليزيديين تحت ظلال جبل عبد العزيز . والكبيرُ يملَّح ، فترقى به البغالُ سفوحَ سنجار ، إلى أقوام الكروم والكرز الأسود . وبين الكبير والصغير مرتبة من الحنكليسات ، والسلطعونات ، والزُّمِّير الخشن الزعانف والحَسَك ، يُطحَن جميعها عَلَفاً للأغنام فتفيض ضروعُها بالزبدة قبل الحليب .

آل كريم بيرخان ، المتحدرون من جدَّيْن ، تتوزَّع عائلاتِهم ستةٌ وخمسون بيتاً تواجه مياه دجلة ، من ضفته الشرقية ، في صفين متوازيين ، أشجارُ تينٍ تبسط ظلالَ ورقها الخشن على ثغور الهواء ، وعلى البِرَك التي يتقاسم فيها الإوزُّ والبطُّ نشيدَ الطين وخمائِرِه الساحرةِ إذ تستولد الحيواتِ

الأكثر ضلالاً في هداية المعنى: الدعاميصَ، والبعوضَ، وبرقاتِ الفَرَاش العاقل، والسرمانَ الشفيف الجسم كزجاجٍ تُرى أحشاؤه في كُرةِ صدره. إوزٌ وبط لا غير. كان غريباً أن يُقصى الدجاجُ، ذو الكمالِ الحالم، عن عشيرة الطيور في أرض بيرخام. لم تكن مجاورتهم للماء هي تمامُ العُذْر في اقتناء طيورٍ تستعير للحقيقة الحيوانية خيالَ الماء. كل حيوان يستعير للحقيقة فيه خيالَ عُنصرٍ مّا، مسكونٍ أو مهجور. الماءُ والنارُ مسكونان، والهواء والتراب مهجوران. وفي الدجاج يغلبُ خيالُ التراب، لذلك هو طير تتجابه فيه الصفات بلا غَلَبةٍ لقصورها عن تعيين يقينه المهجور. وتلك حالٌ من خصائص السرِّ، وكَرَمِ المُحْتَجِب.

ربما ليس في الأمر كِلّه تعلُّلٌ بعُذرٍ. كل ما هنالك أن الإوزَّ الأبيض، التقيَّ في بَطَرِهِ، والبطَّ المُرَقَّشَ العالِمَ بتصاريف السَّكينةِ وأهواءِ الفجر، هما ذوا حنجرتين فيهما نَبْضٌ صوتيٌّ كصوت الأنوال. النساء العاكفات على آلاتهنَّ الخشبية يأنسن بالبط والإوز يدخلان عليهن إلى غُرَف النَّسْج الضيقة الطويلة. هذه مهنة آل كريم بيرخان جميعاً. يخرجُ السجاد من بين أمشاط نسائهم غريقاً في شَهوات اللون. سجَّاد، وزرابياتٌ، وبُسُط، ولُبُودٌ، وبُلُس عاصفةٌ بحمَّى النَّقش. رسومُ الرحمة، ورسوم الوعيد. شجرٌ بثمار من لهب، وفراشاتٌ على أهداب السنابل ذات الحبوب الممهورة بأسماء الأجناس المرفَّهة. خيوط الصوف سحبٌ تمطر في أنوال النساء، اللواتي تدرَّبن على إمضاء نسيجهن بحروف عربية، في الزاوية اليمنى، العلوية، من كل بساط: «سِيْدْرُوكْ». إنه اسم الكُورَة الممتدة على أضلاع طويلة من أرض دجلة،

حيث تعاقب مدرِّبو الحقائق الصغيرة على استدراج النجوم إلى اقفاص النسيج، وصَقْل السديم بحجر اللون. سلالة من النساء أَمام الأنوال. يولدن أمامها، ويكبرن أمامها، ويُعِدْنَ أرواحَهن المُعَارَة إلى قناديل مؤجِّريها الخفيين، من غير أن ترتخي قبضاتهن عن خشباتِ رصِّ الخيوط. وفي هذه السيرورة بين طبقات أعمارهنَّ يتحدَّثْن كلّما أنجزْنَ تفصيلاً من الرسوم، إلى بطِّهن، وإوزِّهنَّ، المتسلل إلى الحُجرات المنفصلة عن غُرف المساكن، حيث ترفع عزلةُ كلِّ أنثى منهنَّ درعَ التدبيرِ الكبيرِ إلى حروب الأشكال فوق النسيج، فلا يندحرَ من الأشكال واحدٌ، أو يُقْهَر.

عُزلاتُ نساء، إذاً، يدخلُها البُّط والإوزُّ مُصَالحاً بينها وبين خيالِ الأنوال. هما طائران يعرفان أن آلةَ النَّول تستدرجُ، بخيالها، النسيجَ إلى فتنة العبث، فتتوعَّد العزلةُ النسيجَ فيلِيْنُ للَّون كي يعتصر عليه فراغ فكرته. اللون فراغٌ تدخله النساءُ، والبط، والإوز، ودجلة، والضفافُ الرابضةُ نموراً على شفق المتاهات الأنيسة. البط والإوز يصالحان بين النسيج والآلة. إناث «سيدروك» يعرفن ذلك، فيجعلن من حول مقاعدهن على الأرض فتافيتَ خبز، وحبَّاتِ حمُّص وعدس مبلولة تلتقطُها الزائرات المتأرجحات في مشيهنَّ، بسبب انحراف ظلالهنَّ الثقيلة، إلى هذه الجهة أو تلك من أجسامِهنَّ أجسامِ قوارب الجنِّ. وقد كان سرب منهنَّ محتشداً من حول الرجال الجالسين حلقةً يلعبون المِنقَلَة، على الضفة، عصراً، في آخر يوم من الشهر الثاني لإقامة آل رستم بابك على عتبة النهر الغربية. زجرهنَّ كريم مرتين حين مَدَّ بعضهنَّ الأعناقَ من فوق فخذيه المطويتين يسترقن النظر إلى الحصى الأحمر،

الملتمع ، الصقيل ، ينتقل من الأيدي إلى الحُفَر الصغيرة. أربع عشرة حفرة ، كلَّ سبع تقابل مثيلاتها ، على متوازيين ، في حجم ظلف العجل. تغطيها سجادة لا وبر لها حتى تستطيع الأيدي التقاطَ الحصى خَطْفاً بلا انتزاع. تُدار الحصواتُ على الحُفَر سبعاً سبعاً ، ثم يشتغل العقلُ على لوح المزاوجات. الحصى المدوَّر ، الصغير مثل حبّات الكهرمان في السُّبَّحة ، استُجمعَ من مراقد الرمال بين الحجر في خليج قَرَهْ بوغوزْ ، الناهد كثدي يدفع اليابسةَ عن بحر قزوين. الحصى المندفع من تيارات القاع إلى الشاطىء ، هنالك ، عريقٌ في اتّصافه بطباع الكَيْد البحريّ. المجذوبون إلى علوم لعبة المِنْقَلَة يستسخفون حصى الأنهار المتهتِّك ، المتهوِّر ، الرقيق الحُنْكَة. حصى الخلجان ، المقذوف من عماء المتاهة المائية ، هو عَقْلُ المِنْقلة يؤجِّجُ الحِيَل ، وينزع إلى الثأر بصبر اللَّقلق. الحصى الأحمر الداكن ، كبدُ الجنين الأزليِّ ذي الحقيقة القائمة بذاتِها – ذاتِ الظلام ، هو شهادةُ الاقتدار على تفنيد كلِّ عِلْمٍ آخر. الرجال يصغرون إذا خسروا ، ويكبرون مقاماً إذا ربحوا. المزاحماتُ جليلةٌ على باب الرقم المزدوج. كلما سقطت حصاةٌ في حفرةٍ فيها عدد مفردٌ تعطَّل قوامُها ، ونُهِبَت بما صار فيها من الازدواج. الدم يُحصي الأرقامَ ، ويجمعها ، ويبدِّدها ، ويُؤالف فيها ويُخالف ، في برهةٍ مُخْتَطَفَةٍ بين حركة اليد والعين. الحصاةُ الصغيرةُ غَوْرٌ رقميٌّ ، نهايةٌ مُعَقَّلةٌ ، شبكة تتخبَّطُ فيها الكينونةُ ريثما تُعيدها الحظوظُ طليقةً في المجهول العريق. والعارفون بعلوم المِنْقَلَةِ يحفظون الحصى ، كلَّما انتهت سِجالاتُ المُنَازَلة ، في أغمادٍ من قرون الأكباش ، التي ماتت عقب سِفادها. الكبش ،

الذي يسقط ميتاً وقد استنفدَ المنيَّ من صَفَنيْه ، يُقطع قرناه ثم يُعلقان إلى وتدٍ في الحائط الشرقي من دواخل البيوت ، ويُدخَّنان وقتاً بعد آخر بدخان البعر الرطب - بعرِ أنثى الضأن الحامل . حين يجفُّ القرنان ينسلخ غمداهُما عن عظم الباطن ، فيُملآن من مشرق الشمس إلى مغيبها برماد عناكب العَرْفج المُرقَّشة . خيالُ الحصى يزداد جموحاً بالصدى الرهيف للَّذَّة المُخْتَزَنة في غمدِ قرن الكبش . متعة الحيوان لا تنقضي بانقضاء برهة السِّفاد . أمرٌ غير عادلٍ أن يمهِّد الحيُّ يقينَ خلاياه لاستسلامٍ هاذٍ في نزوعه الشهويِّ إلى المناكَحَة ، ثم تكون البرهة على عجلةٍ ضاريةٍ من بَدَدها . برهةٌ غير عادلة . إتِّصالٌ قويٌّ ، فانفصالٌ منكَسِر . أمر غير عادل . انتظار الحصول على البرهة يغدو يأساً لأنها برهةُ اختطافٍ تطلب من الجسد فديةً هي انتظارُه ، من جديد ، كي يكرِّر ، بمرارةٍ ، اقتِرابَهُ الحلوَ من الخسارة . جسدُ الآدميِّ تمرينٌ على غَدْرِ المُتعة بالزمن اختزالاً . برهةٌ مُختَزَلةٌ حتى المحْو . منيٌّ خيالٌ ينقلب ماءً . الحيوان ، وحده ، يحفظ صدى البرهة في تجاويف من عظامه . الرعشةُ التي تنحدر من قلبه إلى خصيتيه لا تتشهَّم بانتهاء الدفق الذهبيِّ ، بل ترتدُّ إلى عظامه . القرون هي الخزائن الأمينة . رعشةُ كيان الكبش ، في انحدار ماءِ جوهره إلى عَدَم المَهْبل ، تصعد بخاراً نقياً إلى قرنيه ، وكل حصاةٍ تُحفظُ في قرنٍ منهما تُضاءُ بالكمال المنجذِب إلى أُمِّه الرعشةِ ، وأبيه الرعشة ، وأخته الرعشة . الكمالُ دفْقٌ من النخاع إلى المنيِّ ؛ برهةٌ مُحطَّمة في محاولة الجسد امتلاكَ الخيرِ الكُلِّي ، القائم بذاته ، اللامتَّصل اللامنفصل ، وأوَّلُ العثور على تلك البرهة هو آخرُ فَقْدِها . وفيما يكرِّر الآدميُّ

اقتراباً من الكمال التائه بهُدى جسده ، فَقْداً بعد آخر ، يحفظُ الحيوانُ الكمالَ رهيناً في تجاويف عظامه .

تنحدر الحصاةُ إلى هناك ، إذاً ؛ إلى فراغ الغِمد العَظْميّ لتتعفَّر ببقيةِ أثرٍ من رماد العناكبِ – هذه الآلاتِ الفَلَكيةِ الساهرةِ على قياس الفراغ ، من مداخل العَدَم إلى كُوى قباب الأطلس الأعظم. كل عنكبوتٍ أثرٌ من أقدام المكنونات الظاهرة على صلصال المُحْتَجِب. بخيوطٍ رقيقة يُغطي ثغراتِ الكمال المنسيةِ في النسيج الإلهيِّ ، ويبوِّب ، كالعرَّاف ، إشارات القِدَم. رمادُه صورتُهُ. رمادُه منتهى نسيجه. رمادُه رَحِمُه. والحصاةُ ، التي تلمسُها بقيةُ رمادٍ عالَقٍ بتجويف الغِمد ، ينكشف لها قصدُ الكيْد في أنامل اللاعبين فتجاريها انبساطاً وانغلاقاً تموِّه بهما على الخصم. هكذا تغدو الحصاةُ استدراجاً للُعبة إلى النَّسج المتشابك للسرِّ ، المرتعش متعةً على مداخل الفُروْج الأربعة عشر في حُفَر المِنْقَلة .

هشَّ كريم بيرخان بيده أمام أعناق الإوزاتِ ، المستطلعاتِ من وراء فخذيه المطويتين مغاليقَ الحصى الأحمر ، فبدرتْ من عينه اليسرى التفاتة إلى الضفة الغربية . رستم بابك هناك ، على مسطبة تعلو حدائق الماء ، في حلقة من قومه يديرون حصاهم على مِنقلةٍ من خشب . أصل المنقلة أن تكون لوحين من خشب سميك فيهما أربع عشرة حفرة منجورة بنصل رهيف. لكن قوم بيرخان يرتأون الحَفْر في تراب الضفة الطريِّ ، ويغطونها بسجادة صغيرة فيحصلون على منقلة لا يحوجُها نَقْلٌ من مكان إلى آخر. ولكثرة ما اتخذوا الترابَ حُفراً عمَّت الضفَّة الشرقية ، طولاً ، آثارٌ

كأعشاش صغيرة وهبها الحصى، في مذاهب دسائسه، خيالَ النَّظر إلى المعلومِ الجريح للوجود.

رستم بابك التفت بدوره إلى كريم بيرخان. نقل الماءُ بينهما صورَ كلامٍ غير مكتملة. «هيه... سيِّد بابك. أتسمعني؟»، قال كريم بصوت عال، ثم أدار الحصى على الحُفر يُسقِطُها واحدة واحدة في كمين الجوهر.

شدَّت الضفتان رسنَ الماء فلجمتا خوارَ ثيرانه الزبدية. «أسمعُك»، ردَّ رستم.

تراخت قبضتا الضفتين، فاستوقد الماءُ الشَّررَ الأبيضَ بأظلاف نَعاماته الراكضة. «هيه. كم زوجاً من الحصى يتحصَّل في الحُفَر إذا أدرْتَ عليها من يدك سبعَ حصوات؟»، قال كريمُ مضيِّقاً بين أجفانه يترصَّد الجوابَ. خيَّم الفراغُ بأثقاله على ميناء البرهة الصامتة. حدَّق رستم في الماء، من عصر ذاك اليوم حتى مغيبه. قلَّبَ الأرقامَ، وبَسَطَها، وخَلَطها، وأعاد ترتيبها، فتح لها خزائن الغواية في مرصد عقله، فلم تطاوعْهُ أنْ تُغوى. عاد جَمْعُ اللاعبين من آل كريم، وإوزّاتهم، وبطّاتهم، إلى مطاوي الشحوب في المساكن، لكن رستم لم يغادر المسطبة العالية، حيث تنتشر من حوله حديقةُ الأسماك المجفَّفة وثرثراتُ أرواحها. صرف بيديه جُلساءه، وظلَّ يُنقِّل الحصى في المنقلة بهداية العتمة الخفيفة. جاؤوه بفانوسٍ، فردَّ حاملَهُ. عاينَ الحقائقَ المطهوَّة بتوابل الفستق على صحاف الظلام، والتمس بأنفاسه نجدةً من الماء. أشعل ثماني وثلاثين لفافة تبغ تحت درع خياله، وأيقظ التوريات: «هذا فخٌّ يا بيرخان»، قال قلبُهُ للسانه.

لم يتحدَّث كريم بيرخان، تلك الليلة، إلى زائري

مضافته المحمولين على خَفْق عباءاتهم الرقيقة. ردَّ على البعض، ممَّنْ حدَّثوه، بإيماءاتٍ، وأنصاف كلمات. كان يحاول، بخيال أعماقه الدائرة كالنورج، أن يحيط ببيدر خيالِ رستم بابك. خيالٌ يتحرَّى خيالاً. لقد ردَّ له ضربةَ المعابثة، بعد تنقيب مُقْلِق في مغزى «صمغ شجر الجوز الرومي» من غير اهتداءٍ، وسيشفي غليله أن لا يعثر رستم على إجابة، يوماً أو يومين. لكن رستم لم يردَّ بكلمة على المسألة المُلْغِزة سبعة أشهر بتمامها، تجنَّب فيها جماعتا الضفتين الإقدامَ، ولو بالنظر، إلى نَقْض القطيعة الممهورة بخَتم ماء دجلة. وهي قطيعة لم تكن ذات شأن على أية حال، لأن تواصل الضفتين ظلَّ مقتصراً على وقوف أناس هنا، وأناس هناك، يتأملُ بعضُهم ظلالَ بعض متكسِّرةً كالجوز تحت أسنان الفضَّة الموحلة، المتدحرجة في المَسِيْل الصَّخَّاب.

«إنهم يخيفون إوزَّنا»، قال كريم بيرخان، في العشية التي فتَّتها الغناءُ ماساً أسود على الضفتين. سبعة أشهر، منذ إلقائه بلغز الأرقام إلى قلب رستم بابك وحتى مسائهم ذاك، لم يُسمع من الضفة الغربية غير ثغاء الشياه، وأنين خشب العربات رائحةً غاديةً بأحمالها المُملَّحة وبالتِّبن والنُّخالة. وإذْ عاد كريم إلى داخل المضافة بعد تحديق في سطور الظلام، متمتماً عبارته، ظلَّ سمعُه معلَّقاً كخرزة الحظ في الفراغ المُبْصر، خارج الباب. رفرف كبده قليلاً، والتمع نصلُ خياله المتوجِّس حيلةً. جلس في ركنه - ركن القويِّ المشرف من تحت السراج العالي على الوجوه الثمانية عشرة، النابتة في ظلال كوفيَّاتها الموصلِّية. رشفَ من الشاي بَلْعةً لا تقدير فيها فلسعت باطنَ فمه. وضع الكوبَ

على الأرض لصق حافة البساطِ اللَّبودِ، ونهض ثانية. ارتدى نعليه القاسيين وتوجه إلى الباب.

إثنان تتبَّعا كريم إلى الضفة، في الظلام المُعْتَصَر: إبنه جادو، وناظر أباريق الشاي حميد داهي. وقفا من خلفه وهو يقشّر العتمةَ بعينيه كبصل أسود، قشرةً قشرة، حتى استجلى الصورةَ البعيدةَ: رجال حول نار على مسطبة، والغناءُ يترقرقُ شعاعاتٍ ذهبيةً على أطراف الأشكال. الهواء بارد قليلاً، غير موائم لجلوسٍ كذاك تحت السماء الصلصالية الصلدة، المعلّقة بسلاسل من رماد إلى السديمِ العَرْشِ. «من الذي يُغني؟»، سأل كريم سؤاله الخفيض، فردَّ حميد داهي: «ليس رستمْ. ذلك أكيد».

التفت إليه كريم مستسخفاً ردَّه. ثم حوَّل عينيه إلى ابنه: «هذه حيلة»، قال.

لم يتكلم ابنه جادو. بدا عاكفاً على انتشال المعنى من الغَرَق كأبيه. تمتم كريم: «أن يختار قومٌ ليلةً كهذه للغناء في الوَضَح العاري، فإنما يخاطبون قوماً آخر بالتوريات». وهزَّ رأسه ممتعضاً: «ألا تريان أنهم يتجاهلون، عن عمد، بردَ العراء؟»، واستدار عائداً.

«أين جميل فاركو؟»، قال كريم فور دخوله المضافةَ من الباب الضخم. التفت الجالسون كلٌّ إلى شماله ويمينه. شخصٌ ما غائب. وهو، في الأرجح، لا يكون غائباً، لأن العيون خالته حاضراً كعادته، لكنها فوجئت بغيابه. توجه كريم إلى ركنه الممتلىء بظله. هُرِع إليه قَدَح الشاي مشرقاً بسخونته في قفصه الزجاج. «منذ متى لا يكون جميل أولَ الحاضرين؟»، دمدم الرجل العصبيُّ القلب والكلمات.

ومرّغ أصابعه بالهواء المُتَنَرْذِر كالطحين: «فليأتِ أحدٌ مًا به»، قال كأنما يصرف شبحاً من حضوره.

خرج شخص من الباب. خطا خطوات قليلة مبتعداً، ثم عاد: «جميل فاركو قادم. سمعتُ سعاله»، قال، وبقي واقفاً قرب الباب المفتوح.

يدٌ مفرودة الأصابع اجتازت البابَ. تحرَّكت في الهواء تتقرَّى الزردَ الشفيف على النسيج اللامرئي. طرفُ عصا نقرَ العتبةَ. قَدَمٌ خَطتْ إلى الداخل في حذر: «ألا يُغلق حميد داهي البابَ؟» قال الرجل الأعجف، المتكوِّر على هيكله، في عبوره البرزخَ إلى جناب المَضَافة. تلمَّس بعصاه حدودَ البساط اللبود، ثم خلع نعليه وجثا يحبو على ركبتيه ويديه إلى الزاوية القريبة من الباب، حيث الأباريق النحاس الكبيرة، والسَّماور العالي في جهة، والموقد الطيني في جهة. تربَّع واضعاً عصاه متعامدةً مع فخذيه المطويتين. رفع وجهه إلى السقف منصتًا إلى الكمال الصامت: «أناديتني يا سيد كريم؟» قال جميل من جوف هيكله المتلاصق التجاويف.

«ليس بَعْد. لكنني سأنادي ثعلبَ سَمْعِك، يا جميل»، قال كريم.

«إحذرها، يا سيد كريم. ثَعْلبةُ سمعي أنثى»، ردَّ جميل، وحرَّك وجهَه المتَّجه عالياً إلى ناحية المجلس المتطاول: «لا أسمع دجاجاً»، فقهقَهَ بعض الجالسين. «خُذْها» قال حميد داهي، ووضع كوب الشاي في راحة جميل، الذي طوَّقه بيديه إمعاناً في قياس النبض العذب لشراب الجنَّة، ورفعه إلى الثغرة العمياء في دغل وجه الأشعث الرمادي. ارتشفَ رشفةً. لعق شاربيه: «سمعتُ غناءً يا سيد كريم. حنجرة مغسولة

بلعاب السُّرمان الأبيض » ، قال ، فقاطعه أحد الجالسين : « بل هي حنجرة سُقيت سبع مرات بلبنٍ رائب فيه زيتٌ من بزر الكَتَّان » .

« علومك علوم القصب الأخضر يا مُعذِّبَ السَّمْع » ، ردَّ جميل فاركو بفم تعلوه الهَأْهَأة . ولوَّح بيده اليسرى ، الناطقةِ بلسان السرِّ ، في الفراغ ، مضيفاً بسخرية : « في قَحْفك خُصى ديْكٍ مطحونة ، مجفَّفة تحت شمس آذار ، يا مُعَذِّبَ السمع . لا تتشدَّق بما لا تعرف من جناب الأصوات » ، قال جميل ، فَهَمْهَمَ الرجلُ الجالس بين نجارين يحجبانه بضخامتهما : « منذ متى يفرِّق أعمى مثلك بين بظر أمه وخصية الديك ؟ » .

« لا تتذابحا ، أيها الكريمان » ، قال كريم بيرخان مبتسماً ، يحاول إيقاف شجار يجري بخناجر الشَّتْم ، فاعترضه جميل فاركو :

- حسناً يا سيد كريم . لكن ، ليقلْ لي هذا اللبَّان الذائبُ في عباءته ماذا يعرف عن زيت بزر الكَتَّان .

« أتمتحنني ؟ » ، دمدم سَرْعُوْ ذو الحاجبين الممحوَّين . ودفع صدره أماماً خارج خط الجالسين ليتمكَّن من رؤية جميل فاركو : « أيها الغريق في بول نعجةٍ ، ليس في سلالتك من ارتدى نسيجاً من الكتان . هو نبات حلم الفجر يترك على وسادة الحالم طَلْعاً أزرق يشمُّه فلا يستوحش . أعمى مثلك لا يرى طَلْعاً أزرق . أعمى مثلك لا يقدر أن يعبر بأنامله في ظل نبتة الكتان فيراها زرقاء . زيت بزر الكتان يصلح لمصباح القارئ . الحروف في ضوء شُعلته تخلع حجابَ الحبر ، وأنت لا ترى الحروف ؛ لا ترى الشعلةَ ؛ لا ترى

الحبرَ. عليك حجابُ الغَرَق أيها الجُذام المتوارثُ من نسلٍ استولدَهُ النكاحُ بين اليربوع والسعلاة. يا ضراطَ الجنِّ إذا وطأتْ أكتافَها سنابكُ البُرَاق الطَّاهر. يا...»، فقاطعه كريم بيرخان:

- أيها الغالي سَرْعُو، لقد شرحتَ مُرادَكَ بلغة العارف، فلا تحرِّف لسانك عن شَرَف ما شرحتَ. دعْ جميلاً يحكي.

«لا. لا، يا سيد كريم. دعْ سرعو يحكي. بعد قليل سينزفُ قلبَهُ ذائباً من ثُقبَيْ أذنيه»، قال جميل في سحابة من الهأهأة الساخرة، فانبرى سرعو متكلِّماً:

- ما لُعاب السُّرمان الأبيض، يا غريقاً في مَذْي أبيه؟

«حين تتناكح السرمانات البيضاء، على ورق القصب النهريِّ - يا مُعَذَّب السَّمع - يسيل لعابُها. كل سرمانة تترك قطرةً كالحليب فوق الورق. يأتي طائر القَبَج فيلتقط القطرات فلا يتوقف بعد ذلك عن الغناء»، قال جميل.

«أظنُّ أنك كنت تلعق، بدورك، يَا مَهْبَلَ النسناس، لعابَ السرمان. لكن لم يعد لك لسانٌ يا جميلَ العينين»، دمدمَ سَرْعو، فعاجلَهُ جميل بحروف عليها بخارُ الكبريت:

- لي لسان لو حَكَكْتُ به بظْرَ جدَّتك الميتة، في قبرها، لحبِلَتْ.

طارت عباءة سرعو عن هيكله حين ارتفع عن الأرض ستة أشبار، يريد الطيرانَ من فوق أكتاف الجالسين كي ينقض على جميل، فتمسَّك به جيرانه وأعادوه إلى الصفِّ مهدِّئيْنَ.

«أعطِهما شاياً جديداً يا حميد داهي. امزجْهُ بقليل من الصَّدَف المطحون فيبترِدَ شَحْمُ مثانتَيْهما»، قال كريم بيرخان ساعياً إلى هدنة بين رجلين يذبح أحدُهما الهواءَ في

رئة الآخرَ، كل مساء. علا صوتُ الرَّشْفِ من الأكواب، وتناحرَ دخانُ التبغ فوق الرؤوس بخناجر الأنفاس: «يا جميل» هتفَ كريم بحروف مرصوصة، فرفع الأعمى، المرفوع الكتفين بكلاَّبات الشيخوخة، وجهَهُ إلى السقف مُنصتاً.

«منذ متى لم تُغَنِّ يا جميل»، سأله كريم.

فتح الأعمى فمه الخالي إلاّ من نابين. قلّب الورقَ الأسود لكتاب الظلام بأنامل عينيه المفقودتين. تنحْنَحَ. مرَّر لسانَهُ على شفته السفلى، ثم أطلق من حنجرته الرملية حرفَ نداءٍ طويل، بصوتٍ خفيض، كأنما يتدرَّب على استرداد ما ضاع من ذاكرته بالهواء المنطلق من شِهاب رئتيه.

«لم أسألك أن تغني يا جميل...» قال كريم، فقاطعه الأعمى:

- لستُ أغنّي يا سيد كريم. أريد أن يذكُرني صوتي باليوم الذي انقطعتُ فيه عن الغناء.

رفع كريم راحة يده اليمنى إلى أذنه، مائلَ العنق مُنصتاً، وسرَّح يده الأخرى في الهواء يطلب السكوت: «أتسمعون؟»، قال.

تمتم حميد داهي من موقعه المحفور عميقاً في غمامة البخار الحالم: «نعم. هو الصوت ذاته يعلو ويخفت. الهواء يحمل غربالاً هذه الليلة».

«أسمعتَ بعض كلمات الأغنية، يا جميل؟»، سأله كريم بيرخان.

«أنت والعظام. كلمتان لا غير هما ما سمعتُ. أنتَ والعظام»، ردَّ الأعمى.

«صوتٌ مغلوب على كلماته»، قال أحد الجالسين مُسْتَخِفًّا، فاعترضه كريم:

- صوتٌ غالبٌ بكلماتٍ غالبة.

«وما الغَلَبةُ في «أنت والعظام» يا سيد كريم؟» سأله الشخص ذاته.

حسرَ كريم حطَته السميكة عن قَلَنْسوة صغيرة خضراء تربض على لِمَّة قحْفه: «اختلطتْ عليَّ نَفْسي حين سمعتُ قبساً من رئة المغنِّي ذاك. حين تختلط عليك نَفْسُك يكون الصوتُ غالباً بكلماتٍ غالبةٍ حتى لو لم تصلْك كاملةً»، قال.

ارتفع حرفُ النداء المعذَّب، المتّكيء على حطامه، من حنجرة جميل فاركو. تحسَّس لسانُه الهواءَ يعتصرُهُ ويرقِّقه. حرفُ نداءٍ وحيدٌ مديد بلا شركاء انتقل من الوتر الأول للحنجرة إلى الوتر الثالث. نبضَ عِرْقا صدْغيْ جميل؛ امتلأ دماً يقوده الصوتُ بهبوبه من الرئة على الوريد الأبهر. توازنَ الفراغ المنقسم شطرين في باطن فمه، ثم استقرَّ الحرفُ المديد كقفزة التَّيْتل على أثيرٍ من لوعة النداء «آآآ...». لم يكن جميل يتقرَّى بريشة الظلام ما يجعل الحرفَ كلمة. كان يدرِّبُ الطَّبيعةَ الصامتةَ للصوت على بَسْط حقيقتها في مهبِّ نَفَسِه، مجرَّدةً إلاَّ من ثِقْل الإرث الذي هو النَّفْخُ الأول، العريق، في الطين الصلصال؛ النَّفْخ - تلك الإشارة الأزلية لبدءِ الماهيات صوراً في الكون الكلِّيّ.

«لم أسألك أن تغنّي يا جميل»، قال كريم معيداً الحرف المعذَّب إلى سلاسل الإغماء. سكت جميل مبقياً فمه مفتوحاً للشعاع الحرِّ في رئتيه، فيما ظلَّ وجهه إلى

الأعلى يستطلع بوَقْبَيْه الفارغين عبورَ سربٍ من طيور القَبج شَقَقَ خياله العابس: «لستُ أدري يا سيد كريم. سنتان، ثلاث، ربَّما. لم يعد يسعفني الصوتُ منذ سقوط آخر الطواحينَ في فمي. أنت ترى»، واعتصرَ موضعَ أسنانه، من جانبي فكّيه، بأصابعه، فغار الجلدُ تحتها كالمطاط.

«ستغني غداً مساءً على الضفة. سنوقد ناراً وستغني. مرِّغ صوتَك هذه الليلة في سمن، وعلِّقْ رئتيك في مهبِّ الريح الغربية. هات معك تلك الأغنية»، قال كريم، ووضع جَمْعَ أصابعه مُطبِقَةً على صدغه، مستذْكِراً. «آه. هي تلك التي تنتهي بآثار قلبك»، فهأهَأَ جميل: «السماء أثر من آثار قلبك، قلبي يخطو إلى قلبك ما دمتُ أراها».

«نعم. هي تلك» هزَّ كريم يده اليسرى موافقاً.

خرج الصباح مهرولاً الى الضفة الشرقية للنهر خلف أسراب الإوزّ والبط. قُرِئَتْ آية الضياء على مسمع المياه فانكشفَ الأزلُ ذائباً في الخرير الهادئ، وأفاقت النظائرُ المُعْتَصَرةُ في كؤوس الأشكال. أعادت مشيئةُ المُمكن ترتيبَ الجهات على حدِّ السيف الأبديِّ فعرقت الغيومُ العَضَلُ المتجاورُ، والغيومُ السَّمْنُ على رغيف السماء. قطرةٌ من الذَّوب العالي نزلت خفيفةً على ظاهر يد الرجل الغريب، الممسك برسن بغله التَّتريِّ السُّلالة، قادماً من الممرِّ الشرقي المُفضي إلى ساحة البيوت. تململ القلقُ في عينيه المُجْهَدتين، الحذرتين في عمق وجهه المطوَّق حتى الشفة العليا بطرف كوفيته ذات التعاريق القزوينية. عيون شخصت إليه من حواف الضفة الغربية، حيث أُنزلتْ أطوافُ الجذوع إلى النهر وهي مربوطة بأوتاد إلى الأرض، عليها

رجال حاسرو السراويل حتى الرّكب، يرمون شِباكاً إلى الجرح الفضيّ المُعْتكِر. امرأتان استطلعتاه قبل دخولهما إلى غرف النُّسْج. توقف ستة رجال كانوا يحزمون متاعاً في عربة عن مشاغلهم. قصدهم ببغله لا يعرف كيف يبدأ، لكن عليه أن يبدأ في تدبير العون. تردّد أن يسلّم بالفارسية، ثم اختار الكردية للتحية وهو ينزل عن دابّته. فأجابوه عن تحيته بالكردية أيضاً. عرف أنه بات على تخوم مَصْر آخر من مملكة الشرق الشعثاء، أبعد قليلاً من حدود استطلاع الدوريات الإيرانية في سناجق آل بهلويّ. عاد قلبه المترخرخ عن مكانه من شدّة التوجُّس إلى مكانه تحت عظم القَصّ: «أريد ابتياع بعض الزاد والحوائج. أهناك من يعينني على حاجتي؟ لديَّ دراهم ممهورة بختم الصفويين»، قال بصوت مُجْهد، لكنه واضح متراصُّ الحروف.

«دراهم صفوية؟»، تساءل أحد الواقفين.

هزَّ الرجل الغريب، الذي تراخى طرف كوفيته المتلثّم به عن لحية نابتة، رمادية، مهملة، وشاربين مصفرَّين من دخان التبغ، رأسَهُ: «هي ضربٌ من ذهب خفيف ونحاس»، قال.

هزَّ الستة رؤوسهم مؤكدين - على نحوٍ مّا - أنهم فهموا شرحَهُ لماهيةِ مالِهِ. بادره أحدهم مستوضحاً مطلبه على التحديد، فردَّ الغريب:

- بعض الزاد، مهما يكن، وقُلّة تصلح للطبخ فيها.

«خُذْ طريقك إلى أم علي الحافية. لديها، أبداً، ما تبيعه»، قال أحدهم، وابتسم مضيفاً: «لديها خزانة من كنوز المَلَكين المسجونين هاروت وماروت، وتبقى حافية»،

وأشار بيده إلى بيت مسوَّر بحُزم عالية من القصب الجاف، ثم سأله: «لم نَعْهَد غرباء يريدون شراء زادٍ من قبل. من أين أنت يا ضيفَ الله؟».

ارتبك قلبُ الغريب قليلاً. لا يريد التصريح ولا يريد التلميح. تطلع صوبَ الهضبة وردَّ بجواب فيه تحميلُ معاني: «نحن الآن على تخومكم»، وقاد بغله مبتعداً، فيما لحقَ به صوتُ السائل ثانيةً: «أتتاجرون بشيء مَّا؟»، فاستخفَّ به صاحبٌ معه، من الستة: «يحمل التجار زادَهم» قال.

دار الغريب حول سور القصب. عثر على ثغرةٍ فيه مرصوفةٍ بالقش وبنبات العَرْفج. مدَّ عنقه إلى داخل الساحة الملأى بقِرَب معلَّقة إلى أعمدة، فأجفلَهُ صوتٌ من جواره: «أتبحث عن أحدٍ؟»، سألته فتاة بيضاء الوجه، فيه استدارة قوية، وشفتان خشنتان.

«عفوكم. قالوا لي أن أقصد أمَّ علي. أريد ابتياع زاد» قال الغريب.

تأمَّلتْه الفتاةُ في فضول مُسْتَعِر، بعينين خَفِرتين، ونادت بصوت مجروح: «يا علي»، فخرج شاب من إحدى الغرف الأربع، المصبوغة الأبواب بدهان أصفر. ثم تبعه شابان آخران، وفتاتان، وامرأة على رأسها عمامة رقيقة الاستدارة. زانتِ العيونُ هيكلَ الغريب بميزان الفِراسة البرِّيّ. نعقَ غرابان عبرا ثَلْماً في السماء المشدوخة: «ماذا تريد، يا ضيف الله؟»، سألته المرأة الحافية بفمٍ متراخي الشفتين.

«أريد ابتياع زاد، وقُلَّة أو وعاءٍ معدنٍ»، قال الغريب. تدحرج وَدَعُ القراءات الخفية على صحن عقلها. بدأت

تحصي بعض الأسماء، تمتمةً، على أصابع يدها: «برغل. بَيْض. قمحٌ مقشّر. سُكّر. لا. ليس لدينا سُكر. خبز مجفّف. عسل في شمعه. نعم. هذا ما لدينا» قالت، ثم كرّرت أسماءَ معروضاتها اللامرئية، وأضافت: «عندنا إبريقٌ توتياء، ضخم، يقوم مقام طنجرة إذا أردتَ».

«ليكُنْ» قال الغريب. أخرج حافظةً من جلد، مطوية بعناية، وأدخل راحته في جوفها مستخرجاً رقائقَ من معدن أحمر عليها نقوش المغاليق الزمنية: «هذه دراهم نتداولها. أظنها تفي بشراء بعض المتاع».

تناولت المرأة، ذاتُ الأخاديد الحجرية، قطعةً من المصكوكات. قلّبتها بين أناملها، فاختطفتها فتاة من راحتها. ألقت عليها نظرةَ الماعز من عينِ فضولها، فاختطفتها الفتاة الثانية منها، فتشبثت بها الفتاة الأولى. راحتا تتأملان القطعة الحمراء، الدائرية، فطوّق شاب عنقيهما من خلف: «أرِيَانها» قال، فأرَياها له. الشابان الآخران انضمّا إلى الرؤوس المتقاربة، والعيون النهمة، تململت روحُ المعدن في القطعة المصكوكة حياةً من تناحر الفضول. ابتعدت الأجساد المتقاربة بعضها عن بعض، وأُعيدَت المصكوكةُ المعدنية إلى الغريب، وسط تردُّد العائلة الملجومة عن اتخاذ قرارٍ ما.

نقراتُ عصا على الأرض قطعتِ السكونَ المتحلّقَ هشًّا من حول الجمع الصغير. تقدَّم جميل فاركو الأعمى، ذو الخيال العابس، بوجهه المرفوع إلى الأقدار المرئية في شفق المُمْكِن: «أرني المعدنَ، يا ضيفَ الله»، قال، فتمتمت المرأةُ: «هَا باتَ زوجي يرى. أره نابَ النمر يا

ضيفَ الله »، فوسَّع الأعمى بمنكبيه ممرًّا بين أولاده نافخاً: « منذ متى كنتُ أعمى كي لا أرى يا عينَ الضبِّ، بنتَ فُساء الضبع؟ »، ومدَّ راحته مبسوطةً: « أرني نابَ النمر »، قال، فوضع الغريبُ الدرهم في يد الأعمى، وحدَّثه: « هذا معدن، وليس ناباً ».

« المعادنُ المصكوكةَ أنيابُ نمور »، ردَّ الأعمى، وتحسَّس الأثلامَ والتعاريق في الخَتْم الصَّفوي. بادلَ الفلز خيالًا بخيال، ملقياً إلى العماء العريق في فراغ المعدنِ الجمادِ مفاتيحَ عماءٍ وَقُبَيْه المعتمين. أعاد الظاهرُ في القطعة المصكوكة غبارَ الشَّكْلِ إلى أنامل الأعمى. فتنفَّس من جلده عبقَ الباطن. مسَّهُ الخفيُّ فمسَّ الخفيَّ. اعتُصِرت علومُ الجهالةِ الجليلةِ في قبضة النقش على وجهَيْ القطعة الحمراء؛ اعتُصِر الأعمى فانكشفَ النَّفَسُ الواردُ من جهة الكمال على رئتيه، فابتهج للْهِبَة النورانية: ها هو الشَّكْلُ المُغمَى عليه يفيق محدِّقاً في الصور اللامتناهية في خزانة عينيه الأزَليَّتين: « هاااا » قالها مديدة من كثيب حنجرته - حنجرةِ الرمل، وتلمَّس بيده اليسرى ذراعَ الغريب: « من زمن بعيد لم أرَ دراهم كهذه »، فحدَّق الغريبُ في عينيه الفارغتين.

« إنهما عسليتان »، قال الأعمى، وقهقَه. « عيناي عسليتان إن كنتَ تريد معرفَة لونهما بتحديقك يا ضيف الله »، فانتابَ الغريبَ حرجٌ، وارتعشت أطرافُ أهدابه.

ألوى جميل عنقه صوب امرأته: « أعطيه ما يريد، يا حافيةَ العقل »، قال مقهقهاً، فاتجهت المرأةُ، من فورها، إلى الباب الأوسط في الجدار الطويل، ذي الأبواب الثلاثة.

« هذه طيور قَبَج » ، قال الأعمى ، فتطلع الشبان الثلاثة ، والفتاتان ، إلى الفراغ الرمادي عالياً ، فيما ظلّ بصرُ الغريب على وَقْبي الأعمى ، الذي خفض وجهه قليلاً : « طائر يستأنس بغناء الآدميين . طائر الشكوى » ، قال مضيفاً ، فساءله الغريب : «ممَّ يتشكّى ؟ » ، فردَّ جميل :

– من كثرة ما يعرف .

سعل الغريب . ردَّ طرف كوفيته كاللثام على فمه كأنما يُخفي الكلمات . تمرَّغ الهواءُ على أطراف عباءته فتماوج نسيجُها الأسود . عادت المرأة الحافية في إحدى يديها كيس ، وفي الأخرى إبريق ضخم ، علاه سخامٌ كثير : « البرغل هنا . دفنتُ فيه تسع بيضات كي لا تنكسر . في صُرَّةٍ ، داخل الكيس ، تجد خبزاً . ها هو . قِرْبَةُ الجلد الصغيرة ، هذه ، تحوي عسلاً » ، وأرتْهُ جوفَ الإبريق .

« أعِنْهُ يا علي » ، قال الأعمى ، فحمل ابنه ، ذو التسعة عشر عاماً ، الحوائج ، وتتبَّع الغريبَ المغادر ، بعد كلماتِ شُكرٍ ناضجةٍ في تنُّور أملها ، إلى حيث أوقف بغله ، أمام باب سور القصب . صعد الغريب إلى ظهر دابَّته ، ثم تناول الكيس من ابن الأعمى فوضعه في حجره ، ورفع الإبريق إلى موضع بين منكبَيْ البغل كي يتسنى إسنادُهُ بيده الممسكة بالرَّسن . هزَّ رأسَهُ للشاب إيماءةَ امتنان ، وعاد فسرَّح بصرَهُ في المسالك المستورة بحجاب الهواء . وخزَ البغلَ بعقبه فتقدَّمت روحُ الحيوان أمامهما كدليلٍ .

عاد علي إلى الجمع الصغير ، العاكف على تداول القطعة المعدنية . « معه عيال » ، قالت الأم كاسو الحافية ، ونخزت بإصبعها عضد زوجها الأعمى : « أسألْتَهُ من أين

هو ؟ » ، فرد متبرِّماً : « ليس مُنْصِفاً أن نسأل شخصاً مثله من أين هو ، يا حافية العقل » .

« منذ متى تتعفَّف عن المساءلات ، يا مطحون النعمة ؟ » ، ساءلته ، فردَّ بصوت مطويٍّ كمنديل قديم :

- لا يُسأَلُ المُتستِّر ، إو المُطارد .

« أعطني هذه » ، قالت المرأة مختطفةً القطعة المعدنية من زوجة ابنها علي ، ذات الأربعة عشر عاماً ، وهرولت إلى غرفة النول ، حيث ينتظرها السحابُ المقيَّد على اللوح الخشبي ، كي تطلق سراحَهُ مُمْطراً بعافية اللون . هَيْهاتْ وأختها وَلِيْكَهْ ، إبنتا الأعمى ، تفرَّقتا في أنحاء الساحة الواسعة تقتنصان بيضَ الإوزّ من المخابىء المفروشة قَشًّا في الثغرات تحت سور القصب . زكي ، ومَليْل ، أخوا علي اللذان يكبرانه ، خرجا من البوابة المفتوحة أبداً إلى مجمع الرجال في الخلاء ، تحت السقيفة المدعومة بعوارض من خيزران قوي ، على مقربة من البئر الكبيرة ، الوحيدة ، المرصوفة الأنحاء بالحجر على استدارةٍ قطرها عَشْر أذرع . بقي جميل وابنه علي في سَمْت الفراغ حيث كانا مع الغريب : « أهذا قَبَجٌ أيضاً ؟ » سأل الأعمى ابنه . نظر الشاب بعينيه الزرقاوين إلى مرآة السماء ، فانسلتت كوفيتُه المُهملة عن رأسه ذي الشعر الخرنوبي المصفرّ ، المقصوص دائريًّا من فوق أذنيه كالطوق : « لا . هذه طيور السرَّاقين » ، قال ، فهأهأ الأعمى : « بل هي قَبَج يا ديْكَ الصَّحو . طيور السرَّاقين لا تعبر هذه الأنحاء إلاّ عَصْراً . في حواصلها حصى من ضفاف نهر جيحون يتبرَّك بحملها لصوص الدواب . أنت مختلُّ البصر » ، ودار من حول نَفْسه نصف دورة كأنما يتتبَّع بعين الفراغ ظلَّه

الممحوَّ بممحاة الغيم: «أسمعتَ ما سمعتُ؟» ساءل ابنه، فردَّ الشاب وعيناه على يربوع خرج من سور القصب تائهاً، ثم اقتحم الفتحةَ السفلية من قاعدة التنُّور: «لديَّ قنيصة. سألتقط هذا اليربوع».

«يا لَكَ. سألتُك إن كنت سمعت، مثلي، صوتاً، قبل برهة»، قال الأعمى ذو الخيال العابس.

«وما الذي سمعته ليُلْفتَ عقلَكَ إليه؟ أختاي، والإوزات، واليربوع، وطيورك من فوق، كلها أصواتٌ...» قال، فقاطعه الأعمى: «أعني البذرة، يا ديْكَ الصحو».

«بذرة ماذا؟»، ساءله ابنه.

«بذرة صوتي. إنها تتفتق. اسْقِني ذراتٍ من حجر أَرْسُون في شاي بارد. هي في القارورة المديدة العنق، التي تدَّعي أمك أنها زرقاء»، قال الأعمى، واستدرك: «القارورة المديدة العنق يا مختلَّ اللون»، كي لا يختلط المطلوب على ابنه الذاهل العينين الزرقاوين عن مقاربة الألوان. في السنة الخامسة من عمر الشاب عرف أهله نقيصةَ البصر فيه، لا يفرِّق لوناً عن آخر: كلُّها – ألوانُ الحيلة الضوئية – ثغراتٌ في بياض الأبعاد وسوادها. تصيَّد له أخواه الكبيران زَالْ وحِنْدُو أسراباً من القنافذ الناضجة الأكباد في المواسم القمريَّة. غُذِّيَ الطفل بتلك الأكباد سنتين، يوماً بعد آخر. نُصبت جلودُ القنافذ المجوَّفة على صفَّين من أعواد الخيزران، على مدار سور القصب، وأُلقي الفائض منها إلى الخلاء، غربيَّ البيت، حتى غدا حديقةً من الشوك البُنِّي، لكن الألوان الهاربة من عيني علي الزرقاوين لم ترجع إلى

حديقة بصره المهجورة. قيل لأخويه ذَيْنِ، زال وجِنْدو، حين التحقا في سنواتهما المتأخرة بالقوافل الصغيرة حاملَيْن نسيج أمِّهما إلى أمصار الشرق والشمال، أن حجرَ أرسون، المستخدم إثمداً لدى نساء شيراز، يفيض على البصر بإشراقات تكشف ألوانَ أقلامِ ملائكةِ المذهولين من أهل الرؤى. وقد حملا من دقيق الحجر الشديد الزرقة مثاقيلَ إلى أخيهما، وسط أحمَالهما من وَبَر الجِمال المرفهة في قندهار. اكتحَلَ بالذَّرُوْرِ عليٌّ. نقع بعضَه في كمادات مبلَّلة غطى بها عينيه تحت ضوء القمر هلالاً، وبدراً، ومحاقاً. قطَّرَ عينيه بالدقيق المُذاب في الماء، واعتلى سطحَ البيت محدِّقاً، من غير أن ترفَّ أجفانه، في بروقِ مطلعِ آذار، حين تصعد من أجواف كمآت الله سيوفُه المتشعبةُ ثلاثين ألف نصل يُسبِّح الوجودُ لها بيقين الغيوم ذات الضروع، وتخلَّى - بعد ذا - عن مسِّ الحجر المطحون. قال إنه مكتفٍ برؤية الأشكال وقوامِها، وإن تعدُّدَ اللون، في ذاته، مسألةٌ قد تثير الإشكال للبَصَر وتدوِّخ النَّفْس، فوافقه أبوه الأعمى ذو الخيال العابس: «اللَّمسُ مفتاح كل شيء. إسأل قضيبَك يَقُلْ لك اليقينَ»، وغمس إصبعه المبلولة بلعابه في دقيق الحجر ولَعَقها بلسانه فاستحسن الطعمَ. وعمد، من ثم، إلى تذويب بعض ذلك الدقيق في شايِهِ فحصل منه في أخلاط عظامه غير المجوَّفة إشراقٌ غامض: أثمرتْ شجرةٌ لسانه فاكهةً من روض الصوتِ الحقِّ - الصوتِ الممتلئة قواريرُ حروفه بعسل المراتب، ونبتت في حنجرته صنوجُ المُعْضِلة العذبة، المرقومةِ سطوراً في ماهيَّةِ اللَّحن. كان صوت الأعمى مُسْتعْذَباً، مشهوداً له في مضافة كريم بيرخان، فبات على

ضربٍ من الإذهال بصداحه. سِناً مطواعاً، مُروَّضَ التصاريف، حَذِقَ المفاصِل. لقد صار الأعمى، ذو الخيال العابس، كَليْمَ التوريات الأكثر خَطْفاً لأفئدة المنصتين، يقلِّبُ أحوالَهم بحنجرته تقليبَ الشُّواء على جمر حالم، فينخطفونَ أكباداً، وينجذبون عقولاً وأخيلةً.

غير أن يقظة الباه في عصب حُوْقِهِ الدَّاكن، ومُتُلِّهِ، ووتَرَتِهِ، أي: في جُمْلَةِ ذَكَرِه المُبْصِرِ الذي تدبَّر المنيُّ بقناةِ إحليله صوراً للوجود هم أبناؤه، - يَقَظَةَ الباه تلك جرتْ كصفير الفجاءة، فأدرك العجوزَ الأعمى من بليلةِ كيانه ما جعلت زوجة كاسو تكاد تخصيه بخيطٍ أصفر من صوف نسيجها، مسَّدَتْهُ بشمعٍ حتى غدا كعصب الكلب، فعقدته على خصيتيه بإطباقةٍ واحدة وهو نائم نومة القيلولة في غرفة نَوْلها. ولولا مدافعته القوية، مذعوراً، لَصَلَمتِ الكُرتيْن من أصلهما بمقصها الحديد الأسود. بيد أنها أغلقت عليه الباب في انذهاله عن عصاه، فلم يهتد إلى صوته المختنق من رُغاءِ حنجرته أحدٌ من أبنائه إلاَّ ليلاً، حين استفقدوه في آثار الأرض الخفية، من ساحة البئر إلى مضافة كريم فما عثروا على بذرةٍ من عماءِ جسده، فأقرَّت لهم أمُّهم الحافية، في برهةٍ من مرور جناحٍ رقيقٍ على ثديي عُمْرِها الضامرين، باعتقالها الأبَ الأعمى، فحلُّوا أوثاقَ خصيتيه تحت ضوء سراج مذعور بعدما انتفختا كحوصلة دجاج لعوب.

كان الأعمى، مُذ أكْثَرَ من شراب الحجر المطحون، قد انحرفَ به كونُهُ الغريقُ في شيخوخته العجفاء صوب فَلَكٍ انذعرتْ منه كاسو الحافية. لم يعد يرفع راحته اليسرى عن إحليله، مُغْتَلماً كناقة، خائضاً بثرثرات لسانِهِ - لسانِ ثمرةِ

العُلَّيق في صورٍ ليست من نسج خيالٍ فراغ كخياله، تتنزَّل منها ألوانُ خُصىً عارمة، وتَمْراتِ ذكورٍ منتعظةٍ أبداً، مُوَتَّرةٍ، منتفخةِ العروق، ثرَّةِ الأقنية، تنقذف منها سهامُ المنيِّ بلا مَيْلٍ حتى لا يبقى موضعٌ في السماءِ الفَرْجِ لمزيدٍ. وباتَ الأعمى يصرِّح لزوجه كاسو بموضع بظره، ومهبله، المحجوبين بجلد ذكره وكيس صَفَنِه: «لي هنا، مثلك يا فُساء السنونو»، يقول لها فيربدُّ جوفُها زرايةً به. ولما ضاق منه خيالُها المتكوِّر بندقةً على غصن جهالتها، تهدَّدته: «قَسَماً ببوقِ إسرافيل، وبحافر أتان النبي، وخرزة النار الباردة في جيب إبراهيم، ونقود أهل الكهف، ونبع زمزم، وثديي مُرْضِعة المارِدَيْن في قصر بلقيس، وبعظام شقيقي هانو المتدلية، الآن، من سحابة الكافور في الجنة، سأسوِّي موضعَ الرجولة بين فخذيك أكثر تَسَطُّحاً من عانة طفلةٍ في السادسة، فلربَّما عثرنا، بعد ذلك، على بظرك الخفيِّ يا ابن الموطوءة من دُبرها. سترى». ولمَّا نفَّذت كاسو تهديدها، على مرآى من ثلاث إوزات وبطتين، وأسعفه أولاده بالنجدة، عاد عمرُ جسده إلى صوابه في مرآة الذَّكر فيه، فكفَّ عن استنهاض أعضاءٍ انزلق بها السرُّ الأنثويُّ إلى ما خلف حجاب خصيتيه، كأنما خُتِنَ بَظْرُ خياله. كما انحسرت الرغبةُ من رَحِم صوته فعفَّ عن استيلاد الأغاني، حتى ذلك اليوم الذي حضَّه فيه كريم بيرخان على رَصْف موانئ حنجرته المندثرة: لقد رجعت الصواري، بأشرعتها الياقوت، من جهالة الحقيقة إلى أبديةِ الحِيْلَة، وليس أمام جميل فاركو الأعمى، ذي الخيال العابس، إلاَّ أن يُغنِّي.

«هات ببعض الحجر المطحون مُذاباً في شاي بارد»، قال الأعمى لابنه عليٍّ، الذي زوَّجه من ابنة خالته ذات

الثلاث عشرة سنة، في الأيام التي استبدت به حُمَّى شَبَقٍ خلقت من ضلعه السادس فَرْجاً خفيًّا استقرَّ بين فخذيه، فَرْجاً مفقوداً منذ انبثاق الدورة الحيَّة في عَجَلة العماء العريق. وقد هرع عليٌ إلى القارورة الموصوفة، المنتصبة في كوَّةٍ تسدُّها مكنسةُ نباتِ العرفج المُطَهَّرة بدخان بَعْر الغزال الفارسي. ذرَّ قليلاً من المسحوق في قَدح أبيه الواسع الفوَّهة، الدقيق القاعدة، وسكب فوقه بقايا من شاي الفجر البارد، الذي لا يُرمى ثُفْله بل يعاد غليه بإضافة الماء عليه، مرة تلو الأخرى، حتى يُستنفَد آخر رمقٍ في طعمه التُّركي الطاهر. حملَ القَدَح إلى الساحة حيث جلس الأعمى القرفصاء، رافعاً وجهه إلى غبار الحقائق. «هاكَ» قال الشاب، ففتح ذو الخيال العابس راحته. استقرَّ القدحُ على الأثلامِ العميقة في باطن يده؛ أثلامِ المحراث الذي تجرُّه ثيران الزمن. أطبق أنامله الخشبية على اللون العَكِر، النحاسيِّ الصدئ، المحَطَّم في غلالة الزجاج، ورفعه إلى فمه. تمضمض بالسائل ثم ابتلعه، في ثلاث رشفاتٍ نهمة. تنحنح. أطلق حرفَ نداءٍ خافتٍ من قفص الصوت. هَأهَأَ مستديراً برأسه استدارةً خفيفةً: «كم بلغ طولُ الشتلة، يا ديك الصحو؟».

«أية شتلة؟»، سأله ابنه.

«أَنْبَتَتْ بذرةُ صوتي، وصارت شتلةَ الآن، يا ديك..»، قال، فنظر علي إلى السماء المتغضِّنة على صحن الله. تمتم: «أرى قطرات نازلة من المُنخل. فلنجمع الصوفَ المنشور على المِزْزال»، وهُرع إلى كوم واسع من غصون الحور ينشرون عليه الصوفَ ووبرَ الجِمال المغسولين، اللذين

يجلبهما أخواه زالْ وجِنْدو من شيراز وهَرَات شرقاً، وبتليس وماردين شمالاً وشمالَ غرب. صوف ووبر يأتيان إلى مغاسل اللون في أجران الحجر الضخمة: عصاراتٌ من قشر الرمّان، وأخلاط من الزاج والعَفْص المطحون، ومساحيق من صَدَف السلطعون الأحمر، وغبارٌ من طلع الأقحوان الجبليّ، وعجينٌ من زهر الحندقوق، ورماد من مخالب الخُطاف، ودم مجفَّف من كبد الحنكليس، وزعفران، وعُصْفر، وصدأ نحاسٍ أخضرُ، ولبنٌ غُليَ فيه الرصاصُ، وحِبْزُ الصَّبِّيذْج، ورغوة الشعير المنقوع في ماء مملح، وغُدَّةُ رحم الجاموسة النهرية ذات الغشاء الأخضر، ومرارةُ الديك الرومي؛ كلُّها تستحيل، طَبْخاً بالنشادر وبزر الحُمْحُم والتُرُنْجان، إلى عواصف من لون يُنْقَع فيها الصوفُ والوبر، قبل غزْلهما خيوطاً ترصفُ بها ملائكة الأنوال دَرَج العوالم الرقيقةِ تحت قدميِّ الشَّكل.

لم يأبه كريم بيرخان لتحذير حميد داهي، ناظرِ أباريق الشاي وحُجُبها الرحيمة. منذ العصر المرصَّع بيواقيت الغيم المتراصة أهاب الرجل بخاصة أهله، وجلساء مضافته الدائمين، أن ينقلوا بعضَ البُسُطِ اللّبود إلى ضفةِ النهرِ، حيث أوقدت نارُ الاشراف على كمائن الماء. كومٌ متسامق من غصون شجر الغَرْقد اشتعَلَ ظمآنَ إلى الضروع المتدلية من الفراغِ الأمِّ. تناحر اللهبُ، وتجادل، وتباسَطَ، وتطاحَنَ، وتمزق والتحمَ. تطايرت الشفراتُ الذهبية، وكلَّم الشررُ الشررَ بلسان الوعيد. كلُّ نار تلد من غصون الغرقد نارٌ مفتونة بالعصيان، لا تنطفىء. الغرقد شجرة العصيان، خصَّها طبعُ الوجود - العابث بالضرورات - بنداء الشرود عن

الإذعان. لها صفة الشرِّ، الذي في قَدَر إبليس، من غير شرٍّ. هي الشجرة الأوحد في سلالة النبات إذا التجأ إليها مُطارَدٌ من الله ألجأته. هي شجرةٌ حِجَابٌ. هي تمرُّد الكينونة الصامتة - هي ميزان نَفْسها لا يقرَبُها ملاكٌ. شجرةٌ يتضوَّع منها هباءُ المعنى. شجرةٌ إشرافٌ من شَرَكِ المُمْكنات على عَدَمِ الله المرصود؛ أُجيزَ خَلْقُها أن يبتكر للعناصر ما تَنْقُضُ به ميثاقَ الغيب. وقد خصَّها كريم بيرخان، في المغيب ذاك، بشهودِ امتحانٍ غامضٍ قرَّر خوضه على ضفة النهر، في مواجهة آل رستم بابك، من غير أن يعرف، يقيناً، لماذا ينبغي عليه تدبير مداخل ذلك الامتحان ومخارجه بمشيئة علومِهِ - علومِ خيالِ المُرتاب.

أضيئت الوجوه كأقنعة ذهبية في نصف دائرة واسعة لا يؤذيها الوهجُ الحاكم. حميد داهي، الذي أحضر أباريقه الثلاثة الساخنة، حذَّر كريماً من جديد: «ستمطر يا أبا أسِيْف»، فتوجَّه كريم بعينيه إلى الضفة الأخرى، منتظراً أن تتَّقد النارُ التي رآها البارحةَ على المسطبةِ الطينِ: «كيف حال أحشائك يا جميل؟»، سأل من غير التفاتٍ إلى الأعمى.

أطلق الأعمى، ذو الخيال العابس، حرفَ نداءٍ خافت يستطلع به مسالكَ حنجرته: «لن ينام، الليلةَ، الطيرُ القَبَجُ. لن ينام القصب. سيرضعُ السمكُ، في دجلة، زعانفَ السمك افتتاناً. سينهض ماءُ دجلة واقفاً. تسعة مثاقيل من حجر أرْسون تستقر في جوفي هنا»، قال الأعمى، وعاد يستخرج من حنجرته حرفَ نداءٍ معذَّبٍ، خفيضٍ، يدرِّب به معارجَ الصوت في رئتيه، فاقترب منه حميد داهي حاملاً قدحَ شاي يتمايل بخاره الطروب، فناداه كريم: «لا تبلِّلْ حنجرتَه يا

حميد. الصوت ينزلق من الحنجرة الرطبة طرياً. الجفاف يشدُّ أزر الكلمات».

«سيبتلُّ صوتُه يا سيد كريم، حتى لو نثرتَ شَبًّا في باطن حنجرته»، قال حميد داهي ورفع وجهه إلى السماء. «السيف الرطب سيقطع أوتار صوته التسعة عشر. أراه يلتمع».

ثمانية عشر رجلاً رفعوا وجوههم إلى الأعالي، أيضاً. كلٌّ وجه تلقَّف حرفاً من سِجلِّ الماء، فتململوا في جلوسهم. رازَ كريم بيرخان ثقلَ العماء في وَقْبَيْ جميل فاركو المحشوَّين شظايا من مرآة الفراغ، ثم جال بعينيه شمالاً ويميناً على وجوه الرجال المترقِّبة. أطلق الإشارة من لسانه المُخْتَرس: «أيقظْ ما تشاء» قالها، فاستقرَّت العبارةُ شراعاً على صارية الهواء في رئتي الأعمى، وطار الحَجَلُ رفوفاً في سديم حنجرته:

«السماءُ أثرٌ من آثار قلبكَ، يا وديعَ الظِّل،
يا وديعَ العبور.
وأنا هنا، أرعى بقطيع الغزلان في سهول النَّجْمِ الثاني -
نجمِ هيـ يـ يـ».

هطلَ القَطْر فانغلق الصوتُ على حروف مديدة الأعناق: «هـ يـ ي واا». نسي الأعمى الكلمات، أو ذابت في انحدار المطر الرقيق من حدبة أنفه على شاربيه. نهض هَوَازْحاجي الضخم، فنهض سبعة آخرون عن بساطه، الذي طووه وهرعوا به لا يلوون على حروفِ الأعمى واستياءِ كريم بيرخان. «ليس في صوته غناءٌ»، قال حميد داهي. ارتطم إبريقان، أحدهما بالآخر، من مقبضيهما في يديه العجولتين.

انسلَّ إلى الظلام تتبعه رائحةُ الشاي مغادرةً. قام الآخرون تباعاً. طووا البُسُط وطاروا بأجنحة من ماء. ظلَّ كريم والأعمى في كمينيهما الغامضيْن.

فهقهت الشراراتُ في غصون الغَرْقَد. مغازلُ النار باتت أسرع دوراناً في مراكزها الذهبية. خيوط من ماءٍ تلتفُّ، في عناقٍ لولبيٍّ، على خيوط من لهب: «غنِّ يا جميل»، قال كريم، فبقي الأعمى صامتاً. بحث بأنامله في الأرض الطين عن حصاة، وإذْ عثر على واحدة رمى بها الأعمى فأصابت عصاه المُمدَّة فوق فخذيه المطويَّتين: «النُّورُ يعتصرك، يا جميل» قال، فرفع ذو الخيال العابس وجهَهُ أكثر صوب غربال السماء: «النورُ متاهةٌ، يا سيد كريم»، ومسح فمه بظاهر كُمِّه، متمتماً: «لم يعد صوتي مُلْغِزاً كي تمتحنَ به هذه الضفافَ. سآتيك غداً بإبني عليٍّ. صوتُه ضلالٌ. جوهر الصوت أن يكون ضلالاً. إن لم تُفْتَتن بالصوت لن يعثر قلبُك على لوعةِ الإيمان فيه. سآتيك بعليٍّ»، قال، ونهض يتحسس بعصاه ذاكرةَ الممرَّات الخفية.

«منذ متى يغني عليٌّ، يا جميل؟»، سأله كريم، فردَّ ذو الخيال العابس:

- منذ نبتت عانتُه.

«لسانُك لسانُ عَصَاك»، قال كريم بتوبيخ رقيق، فاسترسل الأعمى مُهَاْجِناً: «يلزم إبني أن يدرِّب خصيتيه أكثر. أعطني يومين، سأُجَرِّعُهُ عصارةَ طحالب حجر اليَشْب، وسترى كما أرى بعينيَّ هاتين»، ممسِّداً براحةِ يده اليسرى على ملتقى فخذيه، ثم ابتعدَ مطلقاً صوتَهُ بجسارة المتحرِّر من امتحانِ السَّامع. نضَّدَ حروفاً مهشمةً على حدِّ شفرة

الهواءِ، وبلَّلَ المطرَ الدافئ بحنين الحكاية إلى أشباح ساكنيها: «النمورُ وحدها تراكَ أيها الجَسُوْر. خاطفاً تطوّق ما تريد، وللحَمام في أنحاء قلبك أبراجٌ من الطينِ الأنقى - طينِ ضفاف وَانْ. قنديلُك معلَّق في مدخل الكهف، وراء شلاَّلِ تِيْمانْ، ونسْرُكَ على الأكمة العالية».

بأرجُل كأرجل النَّعامة عبر صوتُ الأعمى المسالكَ الرقيقةَ بين البيوت، ثم صعد الربوةَ الحجريةَ شمالاً، ومالَ إلى الشرق قليلاً ليتّخذ له عروجاً في الدرب الضيِّق، ذي الندوب من أثر الأقدام، إلى سفح هضبة «كايي خودان»، ليستقرَّ خافتاً في المركز المعتم من الدائرة الصلدةِ هناك - دائرةِ القلوب العشرة المنتصبة الأعناق كطيور الطَّيْهوجِ الحذرة.

خمسة رجال، وخمسة بغال تتريَّة، تلقفوا بآذانهم صوتَ الأعمى غيرَ مُبْتَلٍّ. كانوا كُرَةً واحدةً من السواد الملموم في التصاق الرجال ببغالهم يحتمي واحدهم بالآخر ويحميه، بلا درعٍ، من المطر الصفيق، الهرطوقيِّ. العباءات مرفوعة فوق الرؤوس خياماً منهارةً، ملتصقةً بالهياكل، والأجسادُ مطويَّةُ الصدور على الأفخاذ. «صباحاً سننزل إلى تلك القرية. علينا أن نؤمِّن مأوى ريثما نعرف ماذا يجري في إقليم مهاباد»، قال أحدهم، فناب صمتُ الآخرين مناب الموافقة، فيما راحت البغال، التي سُقيت ماءً قليلاً في راحات مالكيها، تلعق الجداولَ الرقيقة على أكتافها. وما أن حلَّ الفجرُ بأدلاَّئه النورانيين معسكراتِهِ ذاتِ الأبراج الشفيفة حتى انتصب الخمسة مرتعشين في ثيابهم المبتلة الباردة، وقادوا بغالهم من أرسانها، في هدوء، منحدرين سفحَ الهضبة وهم يمضغون

مع حبّات التين الجافّة عصبَ اليقظةِ القاسي.

كريم بيرخان، الذي لا ينام عادةً بعد صلاة الفجر، قاد خطواته إلى ساحة البئر المرصوفة بحجر رمليٍّ، ذي مسام ملآن بصغار الحلزون. كان بارداً، منعشاً، ما تركَهُ مطرُ الليل على وسادة الضياء الخجول، والسماءُ هادئةٌ في شِباكها الرصاصيّة، فنفث الرجلُ الضئيل الجسم دخاناً من لِفافته تحيةً في اتجاهها. طيورُ القَبَج، التي تستوطن الأكماتِ المشرِفة على كل موقع مشهود لجماعاتٍ قاطنيه بترداد الأغاني، برزتْ رفوفاً صغيرة من جهة القصب العالي شمالاً، على الضفة الغربية، وذابت - من ثمّ - في الأفق الجنوبي المتدلي من قرون جبل سنجار. بلغَ كريم حوضَ البئر. نساءٌ كنَّ يملأن قِرَبهنَّ الملتمعةَ بشهوات جلود الماعز. إبنتاه راميسانْ، وسِيِنْ، كانتا هناك أيضاً بِقِدْريهما. الأولى في الخامسة عشرة، والثانية في الثالثة عشرة. مخطوبتان، بوعدٍ شفهيٍّ لا يُنقَض، إلى إبني أختيه. عنده ثالثةٌ في الثانية عشرة هيَ ناوِيْ - ثلاث بنات وإبنان: جادو، ذو الإثنين والعشرين عاماً، وأسِيْف ذو العشرين. كلاهما متزوجان من إبنتي أخيه دِيوي بيرخان، ويقطنان معه في الدارة المترامية الساحة. ماتت زوجُه زَانيْ قبل ثماني سنين، أي حين كان في الخامسة والأربعين فأبى أن يتزوَّج بعدها. عروض صريحة ومبطَّنة، غمرت عتبات دارته، تحمل إلى سرير ذكورته وسائد عليها فروجٌ لم تُمَسّ، وأرداف لم تبتلّ بعَرَق الخُصى المتلاطمة. زهدٌ مّا نقشَ على مَنيِّه صورَ السديم الذي لا حنين في مُطْلَقِهِ إلى الإنخلاق شكلاً بآلة الشهوة، فانصرف - هو العارف بطبقات التصاوير والزُّخرف النَّسجيِّ - إلى رَفْدِ خيال اللون

في جداول نَفْسه بمعاني القَصْد في النقوش ومذاهبها، فانكبَّ على كِناشيْنِ ضخمين، يحويان من رسوم فارسٍ وتطاريز بُلُسِها فيضاً جرى طبع ألوانها بالضغط الحجري، إلاّ الفضيَّ والذهبيَّ منها، فقد أُضيفا بمهارات الأنامل إلى الصور. طُبِعا بأصفهان عن يدي مُرَقِّشٍ ومؤرِّخ بهائي أحْكَم الشروحَ في الهوامش والحواشي بالفارسية، التي خَبر كريم بيرخان بعض حواملها القريبة من لغته الكردية، في أسفاره إلى مَشْهد وطهران يستقصي لأبيه طه بيرخان أحوالَ الأنوال القوية، وطرائقَ الأصباغ، وجسارات النقوش والتصاوير، فيرجع من هناك بنماذج يستنسخونها بأرض سِيْدْرُوك، أو يقتفون تفاصيلها، وبلفائف ضخمة من خيوط مغزولة من وَبَرِ جِمال سفوح التَّاي، التي سينقل حروفاً من لغة أهلها الصينيين، فيما بعد، في شكل وَشْمٍ يزين به ظاهر أقدام بناته الثلاث، وذقونهنَّ المدبَّبة الناعمة. ولمَّا هَفَت طبيعة الفراغ في باطنٍ من خياله إلى الإمتلاء بكشوف الرموز، اصطحب في إحدى عوداته إلى سيدروك شاعراً شيخاً من كاشان، فتلقى عن يديْ علومِهِ طبقةً من فِقه اللغة الفارسية، في صروفٍ من أشعار السيد نِظامي الكبير، صاحب «الكنوز الخمسة»، المحبوكة من أقاصيص الرثات الممزَّقة، والقلوب المطحونة نَهْباً تحت رحى الغرام اليائس، من قيس وليلى إلى خِسْرُوْ، وشِيْرِيْنْ، الحالمين بعناقٍ كرديٍّ.

استطلع كريم بيرخان، بالنَّفَس العَدَّاءِ في أثير عقله، رسوماً بعينها أكثر من غيرها، في الكِنَاشَيْنِ المُذَهَّبين في حواف أوراقهما التي من عجين نُخالة الأرُزّ، وليف الجوز الهندي قبل نضوجه. فقد استحكم فيه العبورُ من كيانه

الكثيف إلى هباء اللون في أصباغ محمَّد الخيَّام، الخراساني النشأة، المتَّقد الخيال بشخوص الشاهات الصفويين على أرائك محمولة على رؤوس النمور، المعتنق مذاهب في خلاص الشَّكل بحسب صوغه الصينيِّ نمنمةً: الإستطالات والرشاقة؛ التكوير الممتلئ رقَّة؛ البُعد محظوظاً بيقينٍ شفيفٍ؛ الاستغراق والاستعادة؛ النوم بعينين مفتوحتين؛ الانتقال من متاهة النَّقاء إلى متاهة الضوء. ذلك ما سيحاول كريم بيرخان عَرْضه على نسَّاجات سيدروك المُعَلَّقات المصائر إلى أخشاب الأنوال، التي هي أقدارٌ من النقوش في لوح المكنونات الأعظمِ، لكنهنَّ سيخفقن في النَّقْل، مكتفيات بالنَّفَس الحيوانيِّ في رئات الرسوم الصفويَّة: النمور المدوَّرة الوجوه المستطيلة الأعين؛ الغزلان المُحلِّقة ترعى الحقولَ الأكثر ثراءً في مدارج الغيم؛ الطواويس - تلك الإغماءاتُ المذهلةُ، التي يتصنَّعها السِّحْرُ كي يستدرج النبوَّةَ إلى براثنِ الحقيقيِّ النبيل. الفهود السوداء، المتسلِّقة سلالم الشِّعْر الفارسي إلى كهوف الإلهيات. فيما تَظل عينا كريم على الكنوز المستورة لحقائق الشكل، التي تستطيع الأنوالُ أن تبتكرها من حفنةٍ من عماءِ المُمْكن.

ما الذي ألهمَ آل بيرخان - الجدَّ رسول بيرخان، والأبَ طه، والإبن كريم بيرخان، أن يسلكوا سبيلَ اللون والنقش، منقطعيْنَ عن جماعتهم الكبيرة من الميرسينيين في إقليم عين زالَةْ، شرق أرض الجزيرة المتَّصلة بضفة الخابور في دخوله العراق - أرضِ الجزيرة الكردية العالقة بين الأنهار، لا البحار؟ كانت الجماعات هناك منصرفة إلى الرَّعي، وزراعة القمح، والتبغ التركيِّ، حتى حلَّ الجوارَ منهم قوم وديعون،

صموتون، يتخاطبون همساً قَدْرَ الكفاية، ولا يخرجون من بيوتهم المشيَّدة من الطين والقصب إلاّ لجلب الماء، وجَمْع الإوز والبط، السارحيْنِ، في الحظائر مساءً، فيما تعلو من منازلهم رطانةُ آلاتٍ رتيبةُ النَّهْجِ، مكتومةُ القرقعة. وقد عرف أهلُ عيْنْ زالَةْ بمذهب جيرانهم في الصناعة لمَّا قَصَدَهم هؤلاء بِبُسُطٍ، وزرابياتٍ يرومون بها مقايضةً بالقمح، فأجابوهم المقايضَةَ راضيْنَ بالنسيج المتكلِّم من حنجرة اللون بأخبار الأمراء القنَّاصيْن، وبعلوم النَّسَبِ المتجلِّيةِ نمنماتٍ عاصفةً، وبالمخاطباتِ في مسائل الظاهر باعتباره كمالاً له قوامُ الطَّير. كما سَرَى في أهل عين زالة، بإشاعةٍ لها ملمس ذيل الثعلب، أنَّ بيْضَ الإوزِّ والبطِّ يشدُّ صلْبَ الشيخ إذا جفَّ نِسْغُه وقعد عن النِّكاح، فقايضوا ذلك البَيْض بصوف الأغنام والعسل. ثم عَلَتْ مرتبة الطيريْن في التصنيف على الدجاج والحجل، بتأييدٍ من حقائق العلوم التي تَنْتَسِبُ إلى القلب من كيان الآدميِّ، وهي قيافةُ الأشباح، ومسارَرَةُ الكواكب الثابتَة، واجتناب الأجرام الأرضية المسكونة، وتحصيل المخاطبات الصامتة باقتدارٍ، واستلهام النقوش للوقوف على حِيَل المعاني. وقد كانت أقدام البط والإوزِّ، المختومة مفارق أصابعها بأغشية قويَّة، علاماتٍ من علامات اليقين المائيِّ في جملة اليقين الكلِّيِّ الواجب، كما يقول صائغو منطق الأدوار، حين يتأمَّلُ خيالُ الجسدِ عناصرَ المكان الأزليِّ – ذلك الأبِ المُنجبِ للمكان المُقَيَّد بعقل التأنيب الأبديِّ. واليقينُ المُتَّصف بانبثاقه من حقيقة الماءِ – كلمةِ القُدْرةِ، التي تمتحن بها الضرورةُ الإلهية ثوابتَ هَرَمِ النشأتيْنِ: العَدَمِ الشَّكْلِ، والوجودِ الماهيةِ؛ ذلك اليقينُ هو

ما يَرِدُ إلى الفطرةِ من انجذابٍ مبعثُهُ المخلوقاتُ المتعلِّقةُ الخواصِ بالتوريات المائية، مثل الأسماك، والضفادع، والحيتان، والنوارس، والبط والإوزّ، والصَّدَف، والمرجان، والقواقع، وما دخل في العالَمَيْن النهريّ والبحريّ، كونها مخلوقاتٍ لها من خيال البدءِ - العَرْشِ المحمولِ على ماءٍ محيط بماءٍ توريات يتأوَّلُها الجسدُ الإنسانيُّ بفصاحة حلمه، المُنْسَرِحِ على الحقائقِ - بناتِ الفتنةِ الدَّهرية.

البط، والإوزُّ، إذاً، من هناك؛ من مكمن النشأة القدسيَّة في خيال الماء، مُذْ قُيِّض لهما أن يُؤْتَمنا على محاوراته. ولمَّا كان الماء هو الشكل الأكثر مَكْراً، بكرامة سلطانِهِ حاملاً للتورية الإلهية، فما خُلَصاؤه المستورون، والمُعْلَنون، من المخلوقات المتَّصلة به بنسبةٍ من أَزَلها، إلاَّ مراقيَ لإشارات الخلود الطاهر. لذلك لم يتوانَ أهلُ عين زالة عن إدخال شركاء من هذين الطيرين في ممالك الدجاج، الذي نَعِمَ طويلاً ببطش حريَّته على سدَّةِ الكمال الحيوانيِّ المُرَيَّش، حتى حلَّ عليه مُغَيِّرا الأحوال - أي: البط والإوزّ، المنقوشان نَقْشاً باذخَ الحصافة في مَرْمَر الله، فبلْبَلا خيالَ الدجاج وسكينةَ أَمَله المُهيِّم.

لم يكن مذهبُ جيران أهل زَالَة الجُددِ في مُعَارَكَة الأنوال بأشدَّ تشويقاً من مذهب يقينهم في الخلاص الرحيم وفروعه. فهم - بسماحة الشرح المُخْتَزَل، الذي عرَّف به شيخهُم عَرِيْف الحاج، ذو اللحية المخضبة بالحنَّاء، قومَهُ إلى أهل عين زالة - داوديُّون، يعترفون لداود، ذي الغدائر الممسوحة بزيت الزيتون، بكمال الصِّفة من دون مزاحمة نبيٍّ آخر. أكرادٌ كقوم عين زالة، منبتُهم أرضُ خانقين،

تتدلّى المزامرُ من سقوف بيوتهم معلّقةً بخيوط الحرير المقصَّب، ويسمُّون الشهور بأسماء الأدراج التي صعدها داود إلى « سُوْر النَّدم »، وهو السور الذي اعتلاه ليتلو، من علياته، بكائيتَه الصامتةَ في ندمه على قتل أوريا القائد كي يخلو بامرأته الحسناء بتشابع: دَرَجُ الزفير؛ درج الثِّقَل؛ درج الخَلْع؛ درج الإحتباس؛ درج الحسرة؛ درج الإستصغار؛ درج الرماد؛ درج النكوص؛ درج المَحْق؛ درج الغضب؛ درج الخَلْخَلة؛ درج العويل. وهم يؤدون شعائر صامتة، بشفاه مختلجة تنطق ولا تنطق، في عبورهم المسافةَ من أبواب بيوتهم إلى الآبار الثلاث، مُطرقيْن. كريم بيرخان سيعرف من أمه هاملاً إنصاف، التي تزوجها أبوه طه بلا عَقَبةٍ، أن قومَها الداوديين مخيَّرون باتِّباع ما يَرِدُ على عقولهم في أداء الشعار، كلٌّ بحسب مداركه ومَلكات إلهامه، في مشيه، وليس في قعوده، لأن المشي، وحده، هو حقيقة الأجسام المُكلَّفة بالتوجُّه، حركةً، إلى الغاية. ويرون في تفتت الجماد، وانتقاله بدفع الهواء والريح من مكان إلى آخر، حاصلاً من تعلُّق الحركة بنداء الكمال، مثله كمثل المشي للأجساد الآدمية والحيوانية.

على نحوٍ مَّا، بتدرُّجٍ كاتِّصال خيوط النُّول، سلكت عائلاتُ آل بيرخان مسلكَ صناعة الداوديين، منفصلين في سبيلهم هذا عن قومهم الميرسينيين. إخوةُ الجدِّ رسولٍ الستةُ، وأخواته الثماني، وأبناؤه الخمسة، وبناته الخمس، وثلاثة من أبناء عمه، وأبناء هؤلاء وأولئك إناثاً وذكوراً لا يحصيهم إلاَّ متخصص في خزائن الدول، كلُّهم انتقلوا قافلةً واحدة جنوباً، إلى أرض سيدروك، لتكون لهم طُرُق أقصر

في نقل سجادهم إلى الموصل وأربيل، والانتقال من هناك إلى كَرْمنشاه. لم يصطحبوا معهم ماشيةً، بل البط والإوز فحسب، مستغنين حتى عن الكلاب، التي لا تخلو القرى، والدساكر، والكُوَر منها، لأن الإوزّ - تحديداً - باقتداره الغريزي على ترتيب المفاضلات بين البرازخ، يحفظ لنفسه حظوة الاستطلاع من علياء حقيقته القَدَرية على النَّسب، ويحتدم إذا اختلَّ التوازن من جرَّاء جسمٍ طارئ، أو عابرٍ، أو عَرَضٍ من الأعراض التي لا تتآلف مع رتابة الميزان. طيرٌ شرس، يستعير من الكلب خيالَ النباح، لذلك حَظِي من آل بيرخان بمرتبة الشراكة في السيادة على الضفة الشرقية، مثله مثل الأنوالِ التي حظيت، أيضاً، بالشراكة في الغُرَف. أمّا المهنة الجديدة فقد توطّد حُكمُها برعاية المنطق الحَسَن في تخريج الإيمان بصناعة اللون وشَرْعِ النَّسج، مذ رأى فيه الجدُّ رسول - ووافقه جملةُ آلِهِ - انسحاباً إلى «الكثافة الشريفة»، حيث التخلُّق بطباع الرجاء، تلك الصفة التي استوقد بها اللهُ جسدَ خليفته في العَدَم اللطيف. فصار كلُّ إنشاءٍ للجسوم وللأشكال، من ذوات الأرواح أو من ذوات الزخارف، صوغاً من العُرْف «الشريف» في توليد الكثافة - جماداً وعناصر حيَّةً - باستعادة العَدَمِ نَسْجاً ووشائج طاهرةَ المعنى، نظيفةً ونقيَّةً، على يديِّ الإنسان. وما كانت البُسُط، والبلُسُ، والسجاد، إلاَّ مظاهر من اشتراك آل بيرخان في تقريب خصائص الوجود من جسارتها الأولى - جسارةِ البرزخ، الذي يقف اللونُ على ضفة منه، وتقف الخيوطُ على الضفة الأخرى، فيما تنفخ الأنوالُ فيهما روحَ المصادفات المروَّضةِ كي ينبثقَ الخلودُ الشكْلُ.

لقد نزح آل بيرخان، بتقدير لطيف الحِيْلةِ، من قَدَرِ الرُّعاة الأقوياء إلى قَدَر النسَّاجين الأقوياء، نظيفي الثياب والأحذية هذه المرَّة، يسطِّرون - في أسفارهم السنوية قوافلَ لها هيبةُ النَّقْد المصكوك - علوماً من طبائع الأنواءِ والأقاليم، ويستذكرون أخلاقَ المسافات والحواضر، ويستوثقون صروفَ الأسواق المعلومة والمجهولة: هذا ما جمعه رجالُهم إلى فنون الأصباغ يلوِّنون بها الأصوافَ والأوبارَ، عبر اختصاصٍ سديدِ التدبير في زراعة نباتاتٍ بعينها يستعينون بزهرها في تركيب اللون واستنفاره، في حدائق صغيرة خلف بيوتهم، فيما عهدوا إلى قرويين مزارعين من قاطني السفح الغربي لهضبة «كايي خودان» بإنبات القمح في السهل الكبير زاداً يعمُّهم بنفعه كشركاء: من آل بيرخان البذارُ، ومن قرويي «كايي خودان» الفلاحةُ، والزرعُ، والحصادُ، ومن الغيوم والريح الرعايةُ الأزلية. أما ما كان يتبقى من سيقان القمح بعد حصاده فيذهب إلى أجواف الضأن، الذي ينزح بقطعانه إلى تلك الجهات أُسَرٌ من ضفاف بحيرة أورمية، في أقصى الشرق من كردستان الإيرانية، كل صيف، إلاَّ الصيف ذلك، الذي انحلَّ عقده من غير ظهورهم، فمكث سويقُ النبات الذهبيّ في السهل مرصودَ التجاويف بذهب الشمس الموقَدِ، ينير الخريفَ الرطبَ كي لا تتعثَّر به الفصولُ العجولة هناك.

سرح كريم بيرخان بخطواته من ساحة البئر في اتجاه الضفة الشرقية للنهر، ثم توقف قرب رماد غصون الفرقد، التي أظلَّت بدخانها شراراتِ صوت الأعمى في ليلتهم المهشَّمة الدروع. أطلق طيرَ عينيه إلى الضفة الأخرى، التي

سبقه إلى فجرها الرجالُ الفجريون من آل بابك ، وهم يرمون الشِّباك عن ظهور الأطواف الخشبية إلى مغاليق المعاني في سطور المياهِ ، قابضين بأعينهم على الأشكال في انحلالها الرقيق وراء حجاب الزبد. لوَّح أحدهم لكريم واقفاً على مسطبة الطين خلف أشباح الرجال : « الغناء في المطر مجلبة لنعاس الغيوم » ، صرخ من هناك ، فتعرَّف كريم في الصوت إلى شخص رستم بابك. تململ قلبُه الحذرُ من توريات جاره ، وصعد إلى خيال الكلمات في لسانه سنجابُ العبث. عضَّ على الكلمات فأدمى حروفها الغَضة. أخرج علبة تبغه وعقد لِفافةً ثخينة أشعلها بشرارة ثرثارة من القدَّاح ذي الفتيل ، ثم أنصتَ إلى أنفاس الماء ، وهو يشحذ همَّةَ المَكْر في أعماقه فلا يعثر على صورةٍ يَجْبَهُ بها توريات رستم بابك الماهرةِ المعذِّبة. أبقى عينيه على غريمه نافخاً من فمه مديةَ الدخان ، التي مزقت المشهدَ برهةً ثم عاد ملتحماً. ودَّ لو رمى بنفسه من ضفة إلى أخرى ناخراً صدر رستم بإصبعه المتهدِّدة : « أنا أشدُّ مكراً منك ، لكنني كلما رأيتك خانني خيالي » ، غير أن سُعار الإوزِّ أعاده إلى كمينه الظاهر.

أربع عشرة إوزَّة شقَّقت بخطَّافات حناجرها الوحشية رخامةَ الفجر ، متصدِّية لبغال خمسة ، عليها راكبون خمسة ، برزت من وراء البيوت الشمالية ، متهادية بإزاء ضفة النهر. كانت تمدُّ أعناقها مدًّا غاضباً في اتجاه سيقان البغال حتى تكاد تلامسها ، ثم ترتدُّ حذرةً من أن تطأها الحوافر. تلتمُّ سِرباً وتتفرَّق كأنما تطارد الواحدةُ شبَحها ، مستنجدةً بالأخريات المجتمعات على حجارة ساحة البئر. استدار كريم في اتجاه الراكبين وتقدَّم منهم على مهل. خرج زوجان من الرجال من

غبش شجرات التين، التي لم تسقط تروسُ أوراقها بعد. خرجت بضع نساء من زوايا عرائش العنب العالية، المستندة إلى عَمَدٍ طُليت بالأصباغ الزرقاء، وزيِّنتْ برسومٍ هي عيونُ الرَّصد في الخير. نزل الخمسة عن ظهور بغالهم ثقيلي الحركة؛ ثقيلي العباءات الرطبة،؛ ثقيلي الأجفان؛ ثقيلي الرئات، مقتربين بدورهم من كريم بيرخان، الذي جذبهم وجودُه دافئاً هناك في فجرهم البارد. توقفوا على ذراعين منه، تمهَّل الإوزُّ الجسور في المناوشة الصاخبة. تبادلت هي وكريم نظرات جعلتها تنصرف إلى شؤون المصكوكات الحيوانية بعدما أدركت أن عميدَ القوم سيتولى تدبير الباقي من استجلاءِ الطلَّسم البشريِّ. نبضَ صدغا كريم. أسىً رقيق صعد بارداً إلى أنامله المرفوعة بلفافة التبغ إلى شفتيه: كان الخمسة يرتجفون قليلاً فيرتجف الفجر. بادرهم بالتحية قبل أن ينطقوا، وإذ ردوا على تحيته داهمَ مخابىءَ كلماتهم وهي بعدُ في كمين الخيال: «أكنتم سائرين طوال الليل؟»، سألهم، فردَّ ذو اللحية المخضبة بحناء ممتزجة الحُمرة بالزرقة: «ضللنا الطريق، فمكثنا على الهضبة هناك».

«مكثتم هناك؟»، سأل كريم باستغراب. «ألم تلحظوا كوى منازلنا المضاءة؟ ما بكم لم تنزلوا؟»، واستدرك فأحجم عن الاسترسال. لمسَ الودعَ المدحرجَ من سطح حَذَرهم إلى يد عقله. «إلى أين مسيركم أيها الكرام؟».

تردَّدوا قليلاً خوف أن يسبق أحدهم الآخر بزلَّة مَّا. نطق ذو اللحية المسكونة بأخبار الحنَّاء: «الأرجح، أيها السيد، أننا كنا سنستجلي لجماعة منَّا إن كانت في هذه الرحاب حقولُ قطن حتى يلحقوا بنا».

« أيُّ قطن الآن؟ ما تُرِكَ غيرَ محصودٍ أتلفَهُ المطرُ قطعاً »، قال كريم. وشملهم ببصرٍ لا امتحانَ في وميض سؤاله:

– لا حقول قطن في هذه الرِّحاب. أين تقصدون، تحديداً، أيها الكرام؟

–« أرضَ الجزيرة، شمال الفرات ما دون نصيبين »، ردَّ أكثر الخمسة شباباً، من تحت شاربيه المفتولين، فابتسم كريم:

ستصلون، في اتجاهكم هذا، إلى بادية حوران. لا أكراد هناك.

فتحوا أجفانهم أكثر حين أطلق كريم توريةً لا تخفى سحابتُها. ظلوا صامتين من حرج أخرجهم منه الرجل العصبيُّ الشفتين: « إذا لم تجففوا ثيابكم كسركم البردُ من جهات العظام. تعالوا »، قال، ومشى بهم، عبر ساحة البئر، إلى دارته المطوَّقة بسربٍ من شجر التين، وثلاث عرائش نصف عارية. نادى ابنَه جادو، فخرج إليه شاب من أحد الأبواب السبعة، المتراصفة في أبعاد متساوية، صفراء، متينة الأخشاب، على كل باب ختمٌ من النحاس المحفور. أدرك الشاب مقصد أبيه فنادى، بدوره، حميد داهي، الذي أطلَّ من المضافة التي أشرفَ، من توِّه، على ترتيب خيال النار في موقدها الكبير تحت أباريقه العالمة بمذاهب البخار، ومذاقات الزبد في هذيانه. وما أن انضم الاثنان إلى الأب والغرباء حتى قَدِم أربعة آخرون من جلسائه المعتادين بفضولهم النَّهم كدخان التبغ الصباحيِّ. أشار كريم إلى حميد أن يقود البغال إلى الزريبة الشرقية، ذات البوَّابة

الواطئة، فيما تولى إرشادهم إلى المضافة، فلم يدخلها إلاّ بعد دخولهم، مؤمناً لجلسائه أن ينتظروا في الخارج، بإشارة فيها قصدُ المخْتَلي واجباً، ريثما يُعلن الإجتماعَ مشاعاً بضيوفه الطارئين.

في أول الصعود اللامرئي للشمس المبعثرة بمذراة الغيم إلى سفح السماء، كان كريم بيرخان قد تدبَّر عباءات وسراويل لضيوفه الخمسة، ريثما تجفُّ ثيابهم، وأعدَّ لهم إفطاراً من التين المحشوِّ بالجوز، وسقاهم يقظةَ الحياة في الشاي الأحمر ذي البخار الزنجبيليِّ، ثم خلاَّهم في المضافة يستعيدون - منفردين بأنفسهم - ثباتَ المكان الممسك بعَتَلةِ الحضور، فتمددوا على البُسُط اللّبود يتبادلون والجَمْرَ في الموقد خصائصَ الأصلِ الذي أشهَدَ عناصرَهما على أنفاس الله في مِلَلِ الخلائق، نوريَّيْن وظلّيِّيْن.

تهادى جميل الأعمى إلى المضافة ينقر بعصاه فكرةَ الصباحِ الملولة، وما أن قارب بابها حتى استوقفه نداءُ حميد داهي الجالس، مع إبني كريم الشابين جادو، وأسيْف، على مسطبة من طين في جدار غرفة المؤنة، المتدلية من عارضة بابها أُضمومةٌ من مخالب الحدآت. استدار بوجهه المرفوع إلى سُبُحَاتِ المضائق المرئية في الكينونة، وهَاْهَاً من فمه المفتوح كثغرةٍ في حجر الحقيقة: «منذ متى نقلْتَ المضافةَ إلى سراويل شجر التين، يا نبيَّ الأباريق؟».

جلساء كريم يؤمُّون مضافته في منزلتين من منازل النهار - بكوراً وعشيًّا. لونان من شِباك الشاي يلتقطان أعماقَ الرجال: الأحمر، الشاهد على نشأة العُصارة في أوردة الآدمي، يتقدَّم ضوءَ الصباح كدليل، في اللحظات التي

يستجمع الجلساءُ، على عجلةٍ، خواطرَ الخطى في دخولها إلى النهار المُمْتَحِنِ، قبل انصرافهم إلى شؤون المواثيق المُحْكَمة أو المنحلّة. والأسْودُ، المقتدر على جمعهم بعد المغيب، واثقين من أن الخسارات المُحْتَملةُ تستطيع أن تنتظر حتى الغد، ومثلها الفوز المُحْتَمل أيضاً، فيما عليهم أن يتكئوا على السديم المترقرق في بخار شرابهم بلا خوف من فضائح القلق على ما لا يَدَ لَهُمْ في تدبيره.

شاي أحمر في الصباح: عيدانٌ رقيقة لها لونُ السمَّاق، هي أثرُ خيالِ الحقول الحمراء في أرض أورفَهْ؛ يخلطها ناظرُ الأباريق حميد داهي بِحَبِّ العُنَّاب المجفَّف المطحون، ودقيق الزنجبيل، ثم يسكب السائلَ المُخْتَمرَ في أقداح ملآى حتى منتصفها بزبيبٍ منتزعِ العَجَم، أشقرٍ، من عنب العرائش القصيرة ذات الأمل الجَبَليّ. وشايٌ أسود في المساء: عيدان خشنة، متقوِّسة، مرصوصةُ اللون بعِظات الظلام البليغة، سُلَّتْ من الأوراق بعد فَرْكها براحات نساءِ السفوح الشرقية من أرارات.

في كوَّة من مضافة كريم إبريق نحيلُ الخصر، متطاول، ذو مسكب معقوف مثل منقار النَّحام، عليه تسعة عشر نقشاً في نحاسه المنعَّم بفلزٍّ عاشقٍ، هي دورةُ الأجنحة في الخلائق العجماء، من الغُداف إلى الطيهوج، ومن السِّرمان إلى الجراد. كان ذلك هو إبريق القهوة المرَّة الوحيد، الذي لا ينزل من محرابه في الجدار إلاَّ إذا أحضر غرباء. شراب موصوف للتكريم باستعراضٍ في حركة السَّكْبِ وحركة الإكتفاء والشكر، على محملِ الظاهر في أقوام غلبت عليهم صنعةُ الحركة ذاتها، فناسبوا بها خيلاءَ

العِلْم المفقود – عِلْم النظر بالأقداح الشفيفة إلى المرئيّ التائه، وتلك من خاصية شراب الشاي ووعائه البِلّوري. فيما القهوة – غير الموصوفة بكرامةِ الحِيلَة في كُوْرة سيدروك المترامية – ثِقَلٌ يتخبَّط في عماء الخزف الصَّلد إذْ تُسْكَبُ بحسابٍ ملجومٍ دُفْقَةً صغيرةً في الفنجان. الأعمى، ذو الخيال العابس، وحده، يطلب من حميد داهي، من وقت إلى آخر، تصنيعَ رشفةٍ لقلبه: «هذا شرابٌ أعمى مثلي يا حميد. أسقني منه أبعد الله عنك رؤيةَ ما أرى»، يقول، كلّما خالطت مرارتَهُ الشهوةُ إلى شريك مُرٍّ، ثم يصبُّ اللعنةَ – كلما شربها – على عظام السلالة الأولى، التي قدرت، بكفاية السِّحْر في علوم إبليس، أن تضلّل الذَّوقَ المرصود بنفْخِ الفردوس الغامض عن الشُّكر للنعمة الحلوة إلاّ بلسانٍ مريرٍ: «من اهتدى إلى حَبِّ البُنِّ هو الجوع. كانوا جوعى؛ صرعى من الجوع، أولئك الذين اقتاتوا به فاستمرأوه. ولمَّا شبعوا وصفوه شراباً، من البَطَر، ليستذكروا المحنةَ باستهزاء. القهوة استهزاء بالله، وإذا لم يَكن الأمر كذلك فأنا – وحقِّ الصُّوَر، وحقِّ اللون – أَحَدُّكُمْ بَصَراً»، يقول ذو الخيال العابس. ويبوِّبُ اليقينَ سطراً سطراً على لوح خياله: «ما يشدُّني إلى القهوة ليس مذاقها بل الحيلة التي أطاح بها شخصٌ أعمى، من القِدَمِ الأعمى، بترتيب السماء لطبقات الطعوم رفيعِها ووضيعِها. نعم. شخص مثلي، يرى من وَقْبَيْهِ الفارغين صورَ الغنائم المنسيّة، التي سَهَا عنها المبصرون حين اقتسموا غنائمَ الخير وفْقَ أرقام الشرّ. أسْقِني يا حميد من شراب الخيرِ الشرير»، فيهيّئ له ناظرُ الأباريق فنجاناً أو أكثر، ثم يعود الإبريق النحيلُ، ذو الهرطقة النحاسية، إلى

محرابه الصغير في الجدار الحالم بحدائق من طين.

جميل الأعمى سقى ابنه عليًّا أربع مرات من الشراب المرّ، الذي يحتفظ ببعض بُنِّه المطحون في كيس من جلد فخذ الظَّليمِ - ذَكَر النَّعام، ملأه له حميد داهي بحفنةٍ من قبضته الكبيرة. في الليلة السابقة، التي عاد فيها إلى بيته مبتلاً من ثيابه حتى صوته، استدعى ابنه بصرخة من حنجرته ذات الشلاَّل الرمليّ، وسط استغراب امرأته، وابنتيه، وابنيه الموجودين وزوجتيهما، وبضعة أولاد، من رجوعه مبكراً من المضافة، في وقت لم يُستكمل التحامُها بالجُلساء. في دارة الأعمى غرفةٌ له ولزوجته وابنتيه، وثانية لابنه زالْ الأكبر وزوجته وأولادهما، وثالثة لابنه جِندو وعائلته، ورابعة لابنه زكي وزوجته، وخامسة لابنه مَلِيْل وزوجته، وسادسة لعليٍّ وزوجته، وهي الغرفة الملاصقة لغرفته كون ابنه الأصغر في الذكور يحوجه التوجيه المتواصل من الأب والأم، عن قرب، بعدما تسلَّم مقاليدَ رجولته الغرَّة فوق فراش ابنة خالته ذات الأربعة عشر عاماً: «يا علي. أأنت تنكح، أمْ ماذا؟»، صرخ، فدفع ابنُه الباب داخلاً: «سمعتك» قال موبِّخاً، فهَأهَأَ الأعمى: «ظننتُ سيكانو أطبقت بفرْجها عليك»، فانطلقت حناجرُ ابنتيه وامرأته بالاستنكار: «سدُّوا فمَه بالقير المغلي»، هتفن وهنَّ يلكزن بعنفٍ كتفيه وظهره.

لم يأبه الأعمى، ذو الخيال العابس، لازدراء العائلة. تعوَّد ذلك. يفتح أعماقَ لسانه للصور الأكثر خراباً ومجوناً. العمى - في كيانه - صورٌ تنتزع نَفْسَها من جواذب الحياء طافيةً في قُدسيَّةٍ وَقحةٍ على غيوم الكلمات: «أتكلَّمُ كثيراً كي أرى. أشتمُ كثيراً كي أرى. آكل كثيرًا كي أرى. أداعب قضيبي

كثيراً كي أرى »، ذلك ما يواجه به من يسأله أن يختزل الثرثرةَ، ويعفَّ قليلاً عن استثارة قلبه السَّفيه. وماذا يريد الأعمى أن يرى بوَقْبيْهِ المسدودين بسديمٍ شاهق؟ « تعال يا علي. ستغني الليلةَ في مضافة كريم آغا، ابن الآغا طه بيرخان. ليكُنْ صوتُك مرئياً لا مسموعاً. سأعلِّمك ذلك. اجلس هنا »، قال، فجلس ابنه على البلُس إلى جواره باستغرابٍ فيه سرورٌ مَّا. طوَّقت العيونُ مجاهلَ الصور في أدغال الأعمى، وتململتْ نمورُ الأنفاس: « مزاج كريم صعب أيها الدميم، ولن يقبل مغنياً غرًّا في مضافته المهيبة »، قالت الأم كاسو الحافية.

« سيلينُ كريم، يا ابنة الكمأةِ الفاسدة. أنتِ، نفسك، ترين في صوته دِيَكَةً تبيض حين يغني »، قال الأعمى.

« ولِمَ لا؟ صوت علي بألف صوت »، قالت إحدى زوجات بنيه.

« أنا أقرِّر إذا كنتُ سأغني »، قال علي.

« قضيبك سيقرِّر، لا أنت »، دَمْدَمَ الأعمى.

خرجت الشتائم صفوفاً من الأفواه. هَأهَأ ذو الخيال العابس، وغمغم: « النكاح يرقِّق الصوت »، وحرَّك ذراعه كأنه يُبعد ذباباً: « غادروا هذه الغرفة يا جنادب الشعير. لي كلام مع عليٍّ لن تطيقَه دجاجات عقولكم »، فداهمته الأصوات المستنكرةُ رُدَماً: « بل غادر أنتَ الغرفةَ »، فلمْلَمَ ذو الخيال العابس عباءته، ممسكاً بردن ابنه: « تعال إلى غرفتك، وهات معك ماءً مغلياً نصنع به قهوةً لكلينا ».

ارتشف الأعمى بَلْعَةً من السواد المرِّ، وقدَّم الفنجانَ، من ثم لابنه. فنجان أزرق، مسطَّر من أعلى إلى أسفل بتيجان صغيرة بيضاء. « من يمنحني بُنًّا يمنحني فنجاناً أيضاً »، قال

الأعمى لحميد داهي، ناظر الأباريق ذات العلوم، على مسمع من كريم بيرخان، فمنحه الرجل العصبيُّ فنجاناً من خزف الموصل. وها هو وابنه يتبادلان تطويق الليل بملائكةٍ تتضاعف نجدتُها كلَّما هَدَما سُوْراً من الغَسَق. «إشربْ بنَفَسٍ مكتوم، واطْلِقْ زفيرك بتؤدة»، قال الأعمى، حتى كاد يأتي على حفنة البُن بتمامها، أربع مراتٍ غَلْياً في الماء الصادح من حنجرة الحريق. وبين كل إغماءة للفنجان، حين ينفدُ منه سائله المرُّ، ينتقل علي إلى غرفة أبيه ليأتي بطاسة الماء الموضوعة على فوَّهة الموقد، فيما يسترسل الأبُ في حَرْثِ الأحوال التي تتقاطع فيها علومُ اللذَّة مع مهارات الحناجر: «اسمعْ. لا أعرف ماذا يعني أن يكون للمرء عينان. لم تكن لي عينان. لا أعرف ماذا يعني أن ترى، سوى أنك لا تحتاج مثلي إلى ابنة الكلب عصايَ هذه. أمَّا ما أعرفه فهو أن لي عيناً هنا»، واضعاً يده على كَمَرة إحليله، يعني مَخْرَج البول. «بهذه العين، وحدها – عين القضيب – يرسم الذَّكَرُ في أحشاء أنثاه صورةً مرئية»، ويتنشَّق عبورَ المجرَّات التائهة برئتيه النَّهمتين: «هذه هي عينُ وجودنا. استخدمْ عينَكَ هذه يا علي. لا تُغْمضها عن مهبَل امرأتك. سيصفو صوتُك بعد كلِّ قَذْفٍ. سيصير صوتُك مرئيًا»، وينهض واقفاً: «قُمْ انكحها الآن. أسْمِعْني عواءك حتى الفجر».

قطعاً، لم يكن ما يسمعه الأعمى، من وراء الجدار تلك الليلة، عواءَ ابنه علي، بل عنيْن زوجة ابنه الطفلة سيكانو. يطويها الشابُ وينطوي عليها منفلتَ الروح من عقال اللحم، طاعناً بجسده كلِّه في المهبِّ العاصف لخيال خصيتيه. بلا ترتيب لخصائص جوارحه المتسلسلةِ الشهوةِ ينقضُّ على

المباح الأملس الوديع. لا لمس باليد، لا نَهْبَ بالشفتين. عقلُ العصب المتعظِ يبرِّئُ الجسدَ من تهمة الهتْك بلا تدرُّج. عقلٌ لامتسامح، ولامتساهل، فيما المنيُّ على عجلة من الإدلاء بشهادة المعجزة.

يلتمع بطنُ سيكانو الممسَّد بعرَقٍ عليٍّ تحت ضوء السراج، كلما نزح بكيانه المترضرض عنها. فَرْجٌ حليقُ الزَّغب بشفرة الرعود المضمومة في قبضة كاسو الحافية. هي التي تتدبَّر الأخلاط، ومقاديرَها، في صناعة النُّوْرَة الموصوفة من حقائقِ جمالِ المستورِ تحت إبطي الأنثى، وفوق رابية ملتقى الفخذين. مساحيق من حَجَر الكلس والزرنيخ هي العلوم في ابتكار الجسارة العارية للفَرْج - الأمانةِ بين يديِّ القضاءِ الشهويِّ العادل. مساحيقُ متمازجة بلا مقاديرَ مضبوطةٍ بعقل الميزان، بل بعقل النظر من عيني كاسو. ترقوةُ ببَّغاءٍ مسطحةٌ تقوم مقام الملعقة في خَفْق المقادير في وعاءٍ صغير من الآجر، المشويِّ على نار غصون الغَرْقَد. آلات كاسو صلبةٌ، متوارثة، طليقةُ الخصائص كنَوْم الفجر، ذات ذاكرة مُخْلِصة للنداء العريق، الذي استولد في الجسد ميثاقَه الإلهيَّ على صورة أعضاءِ التدبير - أعضاءِ الحِفْظِ الأكثر استغلاقاً على الرَّصد الآدميّ لحواسه. آلاتُ كاسو موقوفة على نداءِ جنسها المشمولِ بجوهرِ الصَّدْع الواجبِ الإمتلاء. تجويفٌ لحمٌ يستدعي السدَّ بلحامٍ من طبيعته، وكاسو تجعل ذلك الاستدعاء استدراجاً مُلَوَّعاً، حنيناً هاذياً، انعتاقاً من الوحدة الآسرة للجسد الواحد في الوحدة المُحَرِّرة لجسدين اثنين: على الفَرْج - إذاً - أن يكون ذهولَ الذَّكَر من سحر حقيقته حين كان حيِّزاً وعاءً

لكيانٍ متَّحدٍ، متوازنٍ بثنائية وجوده المُنْتَزعةِ من ضجر القِدَم، ومَلَلِ الحتِّ من إذعانِ الحقائق اللاَّمُحْتَمَل. ثم ألْهَمَ الوجودُ الوجودَ عقلَ الشبهة فانفصلَ عن الكيان المتَّحد - اقْتِطاعاً - جوهرٌ كبير يجهد الذَّكَرُ أن يستعيده نَهْباً، أو اغتصاباً، أو حيلةً، أو غدراً، أو غيلة، أو خيانةً، في حروب على جبهات يقينه المحتشدة بأسرى العبث العريق.

مساحيقُ كاسو الحارقة جرَّدت رابيةَ اللحم، المنذورةَ لِشقَاق النِّمْمة، أسفلَ سُرَّة سيكانو، من زغب الوقت كي يعود اللحمُ خالداً أملسَ الخلود، نقيًّا، مجلوًّا بهبوب اللوعة الرحيمة عليه من عماء المنيِّ المَرِح العِصيان. لكن سيكانو كانت تغفو في بزوغ اللُّهاث بكواكبه العشرة عليها فتتراخى فينتهِرُها عليٌّ: «التقطي فخذيكِ»، فتعمد الفتاةُ إلى عَنَيْنٍ متأفِّفٍ يسمعه الأعمى ذو الخيال العابس، الذي شَرَد عن الصوت، بعد ذلك، بخيال القيَّاف الهائم وراء غزالة الكيمياء، مستعرضاً في ميزانِ روحِهِ - ميزانِ الصيدليِّ مقاديرَ الخصائص والتراكيب، التي تستولد الريحَ العاصفةَ في عصب الإحليل فلا يتراخى قط: ثلاثة مثاقيل من عُصْفر غير مطحون؛ مثقالان من دقيق حجر اليَشْب؛ مثقالان من نُخالة السمسم؛ نصف مثقال من عجينة زهر الجوز؛ مثقال واحد من بيض السمكةِ الشَّبُّوطِ؛ مثقال ونصف المثقال من بزر الكرفس؛ مثقال من صمغ ورق التين، مثقال من ذَرْق الحدأة؛ مثقال من عُصارة كُزْبرة البئر؛ نصف مثقال من زيت بزرة القطن؛ مثقالان ونصف المثقال من منيِّ الظليم - ذكر النَّعام ذي الإحليل الأزرق في انتصابه؛ شحمٌ من صِفاق التيس المخصيِّ مرقَّقٌ شرائحَ يُغلَّفُ بها ذَكَرُ الرَّجُل بعد طليه

بالخليط المجبول من المثاقيل المذكورة، ثم يُنثر بعضُ الدقيق المُسْتبقى من حجر اليشب فوق الشحم، ويغلَّف الشحمُ بقماشٍ مبلول بماء البابونَّج.

حَجَرُ الغَلَبة هو اسم حجر اليَشْب. تحفظ الملوكُ كُراتٍ صغيرةً منه في حمَّاماتها، وفي سروج الجياد إذا خرجت للإشراف على المُقارَعات الكبيرة والمنازَلات. المصائر المقتربة من جاذبيته، ومن مدار شعاع الكثافة فيه، تتوافق بخصائص الفَوْز. لا يخسرُ حاملُ هذا الحجر، لذا سُمِّيَ حجَر الغلبة. والأعمى يعرف أن عجينةَ الأخلاط، المتضمِّنةَ مثاقيل من دقيق اليَشْب، تغذي خيالَ القضيب بالأصداء الفلكية، محمولةً من عِرْق إلى عِرْق فيه، ومن عَصَب إلى عصب، حيث تحتشد أطيافُ العناصر الأكثر غضباً، وتتجادل الصيروراتُ بلسان الزلال النقيِّ في سُرادق الخصية المهيب. وإذ نام ذو الخيال العابس في الهزيع الثالث من الليل، على وَقْع مصادماتِ اللحم الفتيِّ وطقطقات علومه الناضجة ككستناء على صفيح مُحمَّى، ظلَّ عقلُه الثاني - عقلُ الضرورة الساهرُ على رعاية النَّدم الإلهيّ - مشغولاً بمناداة الحُجَّاب المتخاصمين على باب الكيمياء، وهم يتقاذفون بزهر الكُرَّاث، ونُخالة الشعير، وبزر اليقطين، وقشور الباقلاَّء، وبَيْض الغرانق، ورماد الغَرْقد ذي الذاكرة المشدودة إلى أصلها في الجحيم المنكوبة بُغزاةِ الفردوس.

في الصباح المتأخر نهض الأعمى من مرقده لصق الجدار. هو والسّكون ارتديا معاً قفطانيهما الرماديين، مُتسللَيْنِ بعصيَّيْهما إلى الساحة ذات الضوضاء، ومنها إلى الطُّرق المفتوحة في المشيمة الأشدِّ سواداً داخل بيضة

الفراغ، حتى وصلا بابَ مضافة كريم آغا حيث افترقا: تبدَّد السكون عائداً إلى حلمه الأزليّ، وبقي الأعمى يكاد يتحسَّس الباب لولا أن ناداه حميد داهي، فالتفت إليه ذو الخيال العابس، مسترشداً بكمأة الصوت، وهَأْهَأَ: «منذ متى نقلتَ المضافةَ إلى سراويل شجر التين، يا نبيَّ الأباريق؟».

بنات كريم الثلاثة، المتلاصقات في مرح قرب حظيرة الإوز المستطيلة، المسقوفة بالجذوع والطين، أصدَرْنَ إشارات الحقائق المبتورة بأيديهنَّ، وبغمغماتٍ متداخلةِ الدخان، لفتَتْ أخويْهما إلى نصال السهام الخفية المقذوفة إلى باب المضافة، فأبصرا أحد الضيوف الخمسة على العتبة، من جهة الداخل، في وقفته نداءٌ صامت أفصحَ عنه أنه أومأ برأسه بمزيج من التحية والاستدعاء، فتقدَّما منه يتبعهما حميد داهي. سلَّما إذْ صارا على ذراعين منه. كان حاسر الرأس ذي الشعر الرمادي المنسدل حتى أذنيه. برقُ حياءٍ التمع على شفتيه المشرفتين على لحيته المحنّاة منذ أمدٍ أوشك معه اللونُ الأحمر أن يتبدّد، مفسحاً للزرقة – تلك الشريكة في مزيج الحنّاء المرغوبة لدى المتجاسريْن على مجاورة الأسرار. ارتعش جسده تحت العباءة الملتفة على ثياب قليلة بقيت عليه ريثما تجفُّ البقيةُ من قفطان وقميص وسترة. انتبه أسيْف: «هل المدفأةُ مُوْقَدةٌ يا ضيفَ الله؟» قال، فهزَّ الرجل الكهل ممحاةَ سنواته الخمسين: «النارُ على ما يرام أيها الشاب. بللُ الليل تركَ لي رَجْفَةً من عناده. ستردُّ عظامي الصاعَ للبردِ صاعيْن»، وابتسم، ثم استدركَ: «لا أريد ان أُثْقِلَ عليكما، إنما أطْمَعني الكَرَمُ هنا أن أسألكما عن رزمة من لفائف جلد سوداء كانت عى ظهر أحد البغال. أكون

فائض الإمتنان لو جِيْءَ بها إليّ »، قال، وعيناه تنوسان بين وجهي الشابين.

برز كريم بيرخان من الطريق المفضية إلى ساحة البئر، يصحبه هداز حاجيْ، وسَرْعو الغاضب. ثلاث طرق تتفرَّع من مدخل ساحة داره المفتوحة جنوباً على بيوت سِيْدروك. طريق إلى البئر، وثانية إلى مشاتل النَّبات المظلَّلة بسقوف القصب وورقه، حيث الأجناسُ الخضراء الموعودة بأزاهير تُغدق الأصباغ على المنسوجات؛ وطريق ثالثة إلى حقول القمح. ثلاثُ صلدة، مجلوَّةٌ بأناة العبور عليها أمداً بعد أمد، ذات حصًى منغرز في التراب بلا اختفاء. جادو ذهب إلى ملاقاة أبيه، فيما اتَّجه أخوه أسيف إلى غرفة المؤنة، التي أودعوها متاعَ الغرباء الخمسة ليأتي باللفائف الجلدية. بادر كريم ابنه بنظرة العارف قبل أن ينطق الشاب: « أظنهم ارتاحوا قليلاً. سنزورهم الآن »، قال، فهزَّ جادو رأسه: « كَلَّمَنا ذو اللحية الزرقاء قبل قليل ».

طرق كريم بابَ مضافته غير الموصدِ، ثم دخل مسلِّماً. قرعت عصا الأعمى الترابَ البليل على عجلة من فضولها أن لا يفوتَ أعماقَها اليابسةَ رنينُ الكلمات الأولى ومساءلاتُها. كاد منكبُ ذي الخيال العابس يطحن منكبَ حميد داهي، الذي تعوَّذ من شرِّ الظلام في وقبَيْ جميل، غير المبالي. نظر سَرْعو إلى الأعمى نظرةَ ثور. قام الخمسة الغرباء ملتفين بالعباءات المستعارة من صاحب الدار، وغطوا رؤوسهم بالكوفيات من دون ترتيب. نزلت الكلماتُ من الحناجر على سلالم زرقاء: « هذا هو الملا نَجْدَتْ. هذا جَكَرْ سَيْدا. هذا والي جَنَابْ. هذا زَيْنُوْ مَيْقَان. وأنا شريف رَنْدو »، قال

الرجل المُحَنَّى اللحية ، المرتجف قليلاً من العراك الصامت بين دمه وبَرْد الليلة الماضية المتشبث به ، ففتح كريم راحته معتذراً : « اجلسوا يا ضيوف الله . عسى أننا لم نزعجكم بحضورنا المبكر . رَأينا أن نعرف إنْ كان ينقصكم شيء مّا » ، قال . ثم ارتد خطوة إلى الخلف ليجلس على السَّجاد اللُّبُود في مواجهة الخمسة ، فجلس كلٌّ من هوازْ حاجي وسَرْعو إلى جانب منه ، فيما قرفص الأعمى مستنداً بظهره إلى الحائط قرب أباريق حميد داهي . تنحنح كأنما يُرْشِد صوتَه إلى ممرٍّ في دَغَل حنجرته : « رأيتُ في حلمي ، الليلةَ المنصرمة ، نهرَ صابلاغ » .

تسمَّرتْ عيونُ الخمسة الغرباء عليه . رَازَهُ الآخرون بمكيال استيائهم من إقحام حنجرته في الجلال اللائق بمخاطباتٍ على عتبة التعارف . هَأهَأ الضريرُ ذو الخيال العابس ، كأنما يخفِّف عن نظراتهم إليه قسوتَها . صرَّتْ أضراسُ سرعو مغالباً لسانَهُ الذي لم يطاوعه : « عُدْتَ ترى يا ... » ، فشدَّه كريم من كمِّ عباءته يُسْكته عن إطلاق نعوتِهِ المُحْتَقِرة .

هَأهَأ الأعمى ثانية ، مستخرجاً من جيب سترته كيسَ التبغ . زحف على ركبتيه ، ففهم حميد داهي محاولة جميل . شدَّه إلى الخلف فأقعدَهُ ، ثم حمل كيس التبغ الخاص بالمضافة إلى الغرباء ، قاطعاً الطريقَ على محاولة الأعمى المرورَ بتبغه هو إليهم ، وبما يتبع ذلك من إقحام نفسه في محاوراتٍ من فضول المُسْتنطِق . تلقف الغرباءُ الكيسَ بلهفة . كان واضحاً أنهم نشروا تبغَهم المبتلَّ على مناديل قرب المدفأة ، ويلجمهم الحياءُ عن طلب تبغٍ جافٍّ . توقَّد فتيلُ

القدّاح ، واستلّ الدخانُ مديةَ الشَّكْل الكبرى يقطع بها شِبّاكَ الفراغ. نَطَقَ واليْ جناب ذو الغمازتين في زاويتي فمه: « أأنت تعرف نهرَ صابلاغ ، أيها الشيخ ؟ ».

« سمعتُ به » ، ردَّ الأعمى. وأدخل يده في جيبٍ بباطن سترته فاستخرج درهماً معدنياً. رفعه إلى أنفه: « شممتُ من هذا الدرهم الصفوي رائحةَ الغِرْيَن المختمر بطَلْع زهر الميموزا. قيل لي إن على ضفتي نهر صابلاغ شجرات ميموزا لها أثداء » ، وهَأْهَأ بصوتٍ مكتوم.

حكَّ زينو ميڤان، أصغر الغرباء الخمسة ، لحيتَه النابتةَ في وجهه المتعوِّد على البقاء حليقاً. حدَّق في الدرهم المحمول بين سبَّابة الأعمى وإبهامه: « العسل ، الذي اشتريته من أمّ بَنيْك البارحةَ ، فيه نكهةُ ميموزا ، أيها الشيخ ».

نفخ سرعو غضبه الصامتَ كغبار عن حَجَر قلبه: « لدى الأعمى هذا نَحْلٌ مسكون ، يتغذى بالجِيَف » ، فضرب الأعمى على صدره براحته في استخفاف: « لديك ، يا سرعو ، فرصة واحدة كي تصير روحُك المريرةُ حلوةً ؛ أن تموت أمام قَفيرِ نحلٍ عندي فيأكلك النحلُ. أوْصِ بجثّتك لي حين تموت ».

ابتسم الغرباءُ مستظرفيْنَ. دخل أسيف حاملاً لفائفَ جلد سوداء اتجه بها إلى شريف رندو ، ذي اللحية المحنَّاة ، القابض بعينيه الغامضتين على سَهَر كثيف أقامَ خيامَه فيهما. مدَّ الرجل ذراعيه يتلقَّف من الشاب اللفائفَ شاكراً. نضَّدها أمام ركبتيه المطويتين متوازيةً: أربع لفائف أسطوانية ، مربوطة من أطرافها بخيوطِ قنَّبٍ فلا يتسرَّب إلى أجوافها بَلَلٌ أو غبار. ارتجفت يداه وهما تمسَّانها. ارتجفت كتفاه ، أيضاً ،

تحت العباءة. «أنتَ محرورٌ»، قال كريم بيرخان.

«عراكٌ خفيف في تجاويف عظامي. سينحسر البردُ»، ردَّ شريف رندو مبتسماً.

«هات شيئاً من دبس الرمّان الحامض، والحُلّبان المطحون يا أخي حميد. عند ضيفنا الكريم عوارضُ بَرْدَاء»، قال كريم.

ضرب الأعمى ضياة المضافة بحصاة صوته: «من أي ضلع في ضفتي نهر صابلاغ أنتم، أيها الضيوف؟»، ساءلهم.

جَلْجَلت السَّكينةُ الصلدة. حمل كريمٌ الثقَل البارد لسؤال الأعمى على كاهله: «أسيغنّي لنا عليٌّ الليلةَ يا جميل؟»، قال، فتلاطمت عظامُ الأعمى، ذي الخيال العابس، مَرَحاً: «والله ستتوسَّل ألبابُكم أن يعيدَ السطرَ الواحد حتى يُغمى على سراج المضافة. لم يبق عَصَبٌ في عليٍّ لم يدرِّبْهُ، طوال الليل، على ترويض الألوان».

قهقه سرعو الغاضب، ذو الحاجبين الممحوَّين: «منذ متى استعاد عليٌّ فُرُوْجَ الألوان؟ زُرقةُ عينيه حجابٌ بينه وبينها».

فتح الأعمى فمه ساخراً، ورفع حاجبيه: «إذا كانت الألوان منطفئة في خيال عليٍّ، فهي مشتعلة في خيالَ مَنِيِّهِ، يا فارغ الخصيتين».

غمغم كريم بيرخان مستاءً: «لكما أبٌ واحد: بذاءةُ اللسان. هلاّ استحيتما؟».

نهض سرعو الغاضب. دمدمَ: «سأعود حين يخلو هواء هذه المضافة من مُعَكِّر أعمى كهذا»، وصدم بطرف عباءته الخشن وجهَ الضرير خارجاً من الباب. لكن سرعو عاد،

بالطبع، إلى المجلس المتأجج بجمر لِفافات التبغ مساءً، ولم يجد بدًّا من الجلوس إلى جوار الشاب الأزرق العينين، ابن الأعمى، الحامل صُرَّةَ صوته الخفيَّةَ على منكبيه الهزيلين تحت سترته المتهدِّلة. عايَنَه مبتسماً في خبثٍ: «ستغنِّي الليلة»، قال، ورفع - من ثم - وجهَه إلى حميد: «اسْقِني من شايك ما يسدُّ سَمَمَ أحشائي، أَمَنَّ اللهُ على أجدادك بقصورٍ في الجنة». فهَأْهَأَ جميل الأعمى، المُقعي في حديقة الأباريق: «ما نفعُ قصورٍ بلا كواعبَ وغِلمان؟. اسْقِني، أنا، يا حميد، لا كَلَّتْ خُصى أجدادك عن قرع المَشافِر المُكْتَنِزة»، وجوَّف قبضته المرفوعة كأنما يزِن بها كوكباً من اللحم.

كان كريم منصرفاً بحديثه إلى الخمسة الغرباء، وسط لغو الجلساء الستة والثلاثين، المقذوفة أعماقهم إلى أخبار القوافل، فيما تسلَّلت عينا شريف رندو، المحاط بأربع وسائد تدفِّئ بدنَه المسكون بجنادب الحُمَّى، إلى جدران المضافة المستورة بسجاجيد فخمة النَّسْج، عريضة، تتدلَّى من حواف السقف حتى ظهور الوسائد المنضَّدة على لُبُود المجلس السميكة. تسعة وعشرون قمراً، وأحد عشر طاووساً، وتسع شجرات، وثلاثة وعشرون ببغاءً، وثمانية فهود ذات رؤوس آدمية، وثلاث غيوم بيضاء، وشمسان، وأربعة سيوف، وأربعة وعول، وأعين بأهداب زرقاء. لم يقدر شريف على لجم إحصائه المتتالي رقماً بعد آخر بإلحاح من دورة دمه المحرور. غَزَتْهُ الأرقامُ، فتعدَّى رسومَ السجاجيد إلى الجالسين، ثم إلى الأقداح، ثم إلى الأباريق، ثم إلى المسابح في الأيدي، ثم إلى عيون الجالسين

أنفسهم، حتى أنْ بلَغ وجهَ جميل الأعمى فلدمدم يلجم استرسالَهُ الثَّقيلَ: «أوقِفوني»، فالتفت إليه زينو ميڤان: «أثمَّت ما يقلقك، يا أبا وهيْب؟». فأغمض الرجل المُحنَّى اللحية عينيه الغامضتين، مغمغماً: «السَّكينةُ محراثُ التيه».

انتبه كريم إلى غمامة الحمَّى المنبسطة على فراغ الكلمات. تمتم مطمْئِناً وهو يحدِّق في شريف: «إنها النَّوبة تتفتَّت من الشراب الذي سُقِيتَهُ قبل قليل». رفع يده مشيراً إلى ابنه جادو، فنهض إليه الشاب. «هات الخنجر الصغير ذا الغمد الفيروزي» قال، فمضى الشاب خارجاً من المضافة برهةً، ثم عاد. وضع في راحة أبيه الخنجر، الذي في طول إصبع، فقرَّبه كريم من عيني ضيفه المحرور: «ضَعْهُ تحت وسادتك الليلة. في غمده خرزٌ من منابع الفرات»، واستدار إلى علي، ابن الأعمى، يمهِّد له مدخلاً إلى مهمَّته: «منذ متى تغنِّي، يا علي؟»، ساءله، فانبرى الأعمى من مجلسه مُهاجِناً: «إنه يغنِّي مذ كان صِمْغاً»، وضحك متمادياً: «صِفْ نَفْسَك يا بُنيَّ باللون الذي تشاء: كنتَ صمغاً أبيضَ، أم ماذا؟»، فطارت إليه لعنةٌ ذاتُ ريشٍ من فم هوار حاجي الضخم، ذي الكوفية المُسدلة على قلنسوة: «كم تستعير من خزانة إبليس في يومك يا جميل؟»، فعاجله الأعمى: «إبليس يستعير منِّي يا سيد هوار. وُلِدتُ قبله».

ابتسم كريم لضيوفه الغرباء الخمسة، كأنما يستميحهم عذراً على مناكفات الأعمى المتلاحقة، ثم قرب جذعه من شريف رندو المتهدِّل النظرة: «أيثقل عليك، في حالك هذه، أن يغنِّي هذا الشاب شيئاً؟»، قال، فهزَّ الرجل المحنَّى اللحية رأسه: «بل يطيب لي أن أسمع غناءً»، ردَّ

بصوتٍ فيه شروخ رقيقة، ووضع راحة يده على كتف زينو ميڤان تحديداً.

«جدِّدْ لنا الأقداح يا حميد. لك صفةُ الملوك في السهر على المغلوبين»، قال كريم، مؤججاً شهوةَ الترقب التي تلي الرَّشْفَ من شراب النبات العاقل. غير أن الهمهمات سدَّتْ على جملته العبور من جهة إلى أخرى، ثم خمدت الهمهمات الفجائية وساد الإصغاء. «يا للصوت!»، تمتم سرعو. نهض كريم واتجه إلى الباب. فتحه ووضع راحته خلف أذنه كي يتَّضح ما يتناهى إلى سمعه. صَرَّتْ عَتَلةُ الحديد في بئر قلبه. نهض زينو ميڤان بدروه، واتجه إلى حيث يقف كريم. أصغى، ثم افترَّتْ شفتاه عن شبح ابتسامة: «إنه صالح شَمُّو، مغني آل بابك. إنه هو»، قال، فندَّت تأوُّهاتُ استغراب مشوبٍ بالمفاجأة من شفاه رفاقه الأربعة الآخرين.

ترقرق الغناءُ الآتي من ضفة النهر الغربية. أصداف وقواقع ومحارات لامرئية قلَّبها الأثيرُ في دخوله المضافةَ مسكوباً من أباريق الله. حدَّق كريم في عيني زينو: «أتعرف المغني؟»، سأله، فردَّ المُلاَّ نَجْدَتْ من الركن المشمول بالتكريم: «زينو ميڤان ، يا سيد كريم، أمير الغناء في مهاباد، وهو العارف بأهل المهنة في أصقاع السماء الستة، من غيوم بحيرة بَلْكاش حتى غيوم نهر سِيڤان».

«أنتم من مهاباد»، هَأْهَأَ الأعمى، فيما كريم يردُّ الباب عائداً إلى مجلسه، مغسول العينين بالأسئلة: «لماذا الغناءُ خارج المساكن، في ليل بارد؟»، قال بصوت شمل ضيوفَه الغرباء، فردَّ جَكَرْ سَيدا، ذو الشاربين المعقوفين: «ربما

يتوخُّونكم أن تسمعوا».

«ولماذا يريد رستم بابك أن نسمع مُغنّيْه؟»، سألهم كريم.

لم يجِبْهُ أحد. نطق شريف رندو: «الزوالُ، قاطعُ الطريق على قافلة الله». حدَّق فيه كريم. رأى الكلماتِ قادمةً من بُستان الحُمَّى في عيني شريف الغامضتين. حاول تبديد الإنقلاب الذي عراه مُذْ سمعَ الغناء، فخاطبَ زينو: «أنتَ مغنٍّ إذاً. ماذا لو سألناك بعضَ ما عندك؟»، فخفض زينو بصره كي يُعفى من امتحانِ انكسارٍ مّا في عينيه: «لن أتمنَّنَ عليك يا سيد كريم، لكن وفِّرْني إلى وقتٍ آخر»، ورفع وجهه، بعنق مائل، صوب عليٍّ: «أيْقِظْ صوتَ هذا الشاب».

رنَّت الكلماتُ على صَحْفَة لسان كريم: «أصوتُك مستيقظ يا علي؟»، قال، فاعترضه الأعمى بهبوبٍ من رمل حنجرته: «أوَّل شيء أودَعه الله في صلصال آدم صوتُ النَّفْخ فيه من فم الجلالة، يا سيد كريم. الصوتُ ساهرٌ، أبداً، على الوديعة».

«أيةُ وديعةٍ فيك ليسهَر صوتُ الله عليك، يا بَطْرَ الهواء؟»، قال سرعو، فهأهَأَ الأعمى ذو الخيال العابس: «الروح، أيها المنكوب».

غمغم كريم متأفِّفاً موبِّخاً، ثم تجاهلهما: «هيا يا علي. رُدَّ إلينا صوابَ الدم».

وضع الشاب راحته على أذنه اليسرى كي يستدلَّ بالصدى المرتدِّ إلى حجاب يده على طبقة الصوت. ينبغي أن يكون بين المغني وصوته عازلٌ خفيف يُحيلُهُ إلى سامع

للنبرات حالَ إطلاقها. الصوتُ يجرف المغني إذا عكَّر الرنينُ الحرُّ على سمعه نقاوةَ الإصغاء الى نَفْسه. هكذا علَّمه الأعمى، وهكذا اندلقت الخمائر الأولى من حنجرته في حوض الهواء الحيِّ:

«أنا غاليةُ الثمن، يا شاغل نَفْسه بي»، قالتْ.

«إن كان ثمنك الحُبَّ فلديَّ منه كثلج القمم في هكَّار، وأهراءات القمح في سهول ملاثْيَهْ»، قال.

«بل أنا أغلى من ذلك»، قالت.

«يا لتعاستي. إن لم يكنِ حبي كافياً فما الأغلى من ذلك، يافتاة؟»، قال.

«أظلُّ أغلى، يا شاغلَ نَفْسه بي»، قالت.

«إن كان ثمنك القُبَل فلديَّ الأنقى كهواء السفح، والعاصف كريح الممرات، والرقيق كنسيم القصب»، قال.

«بل أغلى»، قالت.

«إن كان ثمنك اللمس فلديّ سبعون يداً، وألف شفة، وأربعون لساناً. سأنثر نَفْسي عليك بمذراة الغيوم في طوروس. بلا حدود سأكون، فلا تتحرَّكين إلاَّ في أنفاسي»، قال.

«بل أغلى» قالت.

«أنا أسَدُ العناق إن كان ثمنُك العناقَ. سألتهمكِ بلا عضٍّ. سأرتشفكِ وَلَغاً. سأتمرَّغ في بيدرك. سأنمو حيث تريدين لِلَحْمي أن ينمو قريباً من مسامِّ أعضائك وأغوارك اللينة»، قال.

دمدم هوار حاجي مقاطعاً حُبيبات العَرَق المتجاورة في خدَّي علي الغائرين: «ثم ماذا؟ لم يبق إلاَّ أن يفكَّ لها تِكَّة سرواله»، قال، فاعترضَهُ صوتُ الأعمى: «ولِمَ لا يا سيد

هوازْ ؟ لو فعل ذلك منذ البداية لوفَّر على نَفْسه ، هذا الشقيُّ ، عروضَه السخيةَ . الفَرْج فقيهٌ أكثر من عقل هذه الزيز ».

أعطِهما فرصةً يا سيد هواز ، ولْنَرَ ما ثمن هذه المُدلَّلة » ، قال كريم ، ثم أومأ إلى الشاب ذي الشَّعر المقصوص دائرياً من فوق أذنيه ، فتسلَّم الصوتُ الإشارةَ :

« أنا أغلى » ، قالت .

« عييْتُ يا شاغِلةَ جوارحي . أنا مصغٍ ، قولي ما ثمنك وسترَيْنَ » ، قال .

« أريد ثوباً من بُخارى ، وخلخالاً من أصفهان ، وحزاماً من أرضْ رومْ ، وصندوقاً لمتاعي من زَانِ الخابور » ، قالت .

« هيه . هيه . لا تزالين طفلةً ، لكنني طوعُ لهوِكِ يا مرادَ جوارحي » قال .

أنزل علي راحته عن أذنه اليسرى . نزل الصدى الباقي من صوته إلى عظام الجالسيْنَ . فتح سرعو فمه مندهشاً : « أيُّ جنٍّ سقاكَ خميرةَ الطحالب من جبل قاف ؟ » ، قال ، فهأماً الأعمى :

« هو نَفْسُه الذي حمل إلى بلقيس عجينةَ النُّوْرَة لتنتف بها شَعْرَ ثدييها ».

نظر ثلاثة من الغرباء الخمسة إلى صاحبهم زينو ميڤان يرصدون شرارةَ حُكْمِه . شريف رندو كان في برزخ العماء ، بين ضفتي الحمَّى ، يكيلُ بميزان المجازات التائهة عوارضَ الأحوال : « السماء شَغَبٌ يروِّضه الباطل ». ثبتت عينا كريم بيرخان عليه ، فيما سمعُه منصرفٌ إلى صمت زينو ، بالرغم من تعلُّق قلبه الخاطف بصوت علي . صوت مبحوح قليلاً كأنما هو مزدوج ، فيه لوعةٌ تضرب رأسَ اللَّهاة بريشةِ صُفَاريةٍ

مبتلّة. ها، سينازل به صوتَ مغني آل رستم بابك. سعل شريف، فجامله كريم: «كيف تزنُ عليًّا في المرتبة يا سيد رندو؟». حدَّق فيه المحرور بعينيه الغامضتين: «يكلِّم الحجرُ الحجرَ بلسانِ الماء في النهر»، قال، فربت زينو على كتفه مواسياً: «اصبرْ عى البرداء حتى الفجر يا شريف فستقطعها آنذاك على مهل»، وحدَّق في كريم: «كنزٌ هذا»، وأشار برأسه إلى علي، مُرْدِفاً: «عليه نثارٌ من رماد الكلمات»، وخاطبَ الشابَ من ركنه: «ممَّن شِعرُ أغنيتك يا أخي علي؟»، فردَّ الشاب مصوِّباً ذراعه إلى أبيه الأعمى: «منه»، فقاطعه أبوه: «بل هو من عمِّك دِيْوَزْ. لو كنتُ مخترعَ هذه الأغنية لجعلتُ الولهانَ الشقيَّ يريها قضيباً كذراع خالة سرعو، منذ تقابلا، ووفَّرتُ على السامعين ثرثرةَ الدَّلالِ هذه».

«ياالَإبن الأتان»، دمدمَ سرعو الغاضب.

بدَّل حميد داهي إبريقاً بآخر على الموقد معترضاً: «وماذا يتبقّى من الأغنية لو أنهيْتَها في بَدْئها مع انحلال تِكَّة سروال الولهان؟»، سأله، فرد الأعمى:

«يتبقَّى الأصل والأساس يا حميد: إطعامُ الفَرْج زادَ الذَّكَر لقمةً لقمةً، من عصب الكَمَرَةِ حتى عروق الأنثيين»، وهَأْهَأَ متوجّهاً بكلامه إلى زينو: «أسألك، يا ضيف الله، ماذا تعني أن عليه نثاراً من رماد الكلمات؟ أَلَكَ قريبٌ فقيه؟».

«عَنيت أن كلمات أغنيته تحجب الكنز، الذي في صوته»، قال زينو.

«كنز؟»، تمتم الأعمى ساخراً.

تجاهل زينو السخرية. أوقدَ فتيلَ لسانه برشفةٍ من

الشاي المختمر: «تلزمه كلماتٌ أكثر ضلالاً ممَّا في لغة الحكايات».

«تعني كلماتٍ عمياء مثلي»، قال الأعمى، فرد زينو:

- بل كلمات مبصرة مثل خيالك.

فتح الأعمى فمه مُسْتظرِفاً بلا هَأْهَأة: «أنت تمتحنني»، قال، فهزَّ زينو يده نافياً:

- لا. أريد لصوت ابنك أن يمتحن اقتدارَ القلوب على الإحتمال.

تململ كريم، ثم مدَّ لفافةَ تبغ إلى زينو: «قل لي، ألديك كلمات من أغانيك تنفع صوتَ عليٍّ؟».

«لا»، ردَّ زينو من فوره، وأوضح: «لديَّ كثير، لكنها لا تنفع أحوالَ مضافتك»، وأطرق مفكراً لبرهة: «لو أرسلتَ مَنْ يجمع شيئاً من أشعار الكُرْدِ في رَشْتْ، جنوب قزوين. هم أهل لوعة بلا إسراف، ولحروف النداء عندهم أوجُهٌ لا تنتهي. ألا تبيعون السجاد في تلك الأنحاء؟».

«بل نصل إلى جرجان. لكنني أريد شيئاً منه لأيامنا هذه»، ردَّ كريم، وتنهَّد: «لم يكفَّ مغني آل بابك عن عراكه»، قالَ مصغياً بسمعه وبصره.

«الغناء عِرَاكٌ حقًّا. صالح شمُّو، هذا، محترف خبيرٌ في ترويض الصوت على اللعب»، قال زينو.

ريحٌ باردة عبرتْ وريدَ عنق كريم، مع الدم. بينه وبين آل بابك سطورٌ من شِعْر غائب. ينبغي إعادة التوازن إلى ضفتي دجلة كي ينعم القصبُ بسَكينة الهواء، الذي تمزَّق - في خيال كريم - من توريات رستم. عرقت راحتاه: «سبعة عشر يوماً ذهاباً، وسبعة عشر إياباً. هذا كثير»، قال متوسِّلاً

بعينيه إلى زينو، الذي أبدى حركةً من يديه مقصدُها أن ليس من حيلة لاختزال المسافة، وتكلّم: «صبرٌ قليل سيُعينك على الفوز برفاهيةٍ تضاف إلى عزّة مضافتك، يا سيد كريم. الغناءُ المُحْكَم رباطةُ جأشٍ للسامع، وحلٌّ للعُقَد، وتصويب للطبائع المنقلبة، وعتابٌ من البَدن على استئثار الروح بالإرث الذي تدبِّرَتهُ آلةُ البدن بمهارتها. الروح غير عادلة، يا سيد كريم، والغناءُ يرفع الميزانَ المُهشَّمةَ إحدى كفَّتيه، صريحًا، أمام القضاء الجائر. سبعة عشر وسبعة عشر تساوي أربعة وثلاثين. قمرٌ واحد وهلال بين بُرجين في فَلَكٍ واحد. حلم يقظة، غمضة عين. لقد تعوَّد قلبُك، يا سيد كريم، على عبور القوافل بالوقت من شريانٍ فيه إلى شريان. الانتظارُ نَفْسُه سيفرح بين يديك حين تصير الأغنيةُ مُحْكَمةً»، قال، فقفز سنجابُ أعماق كريم إلى شفتيه: «وماذا نفعل بهذا طوال أيام انتظارنا؟».

«من تعني؟»، سأله زينو.

«مغنِّي آل بابك»، ردَّ كريم.

«ما به؟»، سأله زينو.

لُجِم خيالُ الرجل العصبي، ابن الأنوال القوية في سيدروك. كيف يشرح لزينو، والضيوف الآخرين المحدِّقين فيه، أن ما ظنَّه توريةً في مخاطبة رستم بابك له نَحَا به إلى تدبير آلة المجابهة: التوريةُ تَجْبَهُ التوريةَ، والغناءُ يَجْبَهُ الغناء؛ ولو قَدِر كريم على تحويل أنواله مراكبَ وأطوافاً وقواربَ يزلزل بها النهر لفَعلَ. غير أنه ليس واثقاً، في المحاججة بين ضميره وعقله، من استطاعته تدبيرَ برهانٍ مَّا، أو قَبَساً من برهانٍ، يبسط به العِلَلَ كحصى المِنْقَلة أمام

أبصار الجالسين: «ها هي. أنا أعرف كيف أقرأ رستمَ بابك بعينيِّ الماء»، كان سيقول. إنما لديه إحساسٌ فحسبُ بلا برهان. مُذْ حدَّقَ أول مرة، من ضفة النهر الشرقية، في الرجل الطويل المنحني قليلاً كشبح يعاين بيوتَ سيدروك من الضفة الغربية، هزَّ قَصَبَ كبده جناحٌ خاطفٌ في عبوره؛ جناحٌ بلا ريش. «هذه وقفةٌ فيها استدراج. هذا الرجل يستدرجني إلى شيء مَّا» أَسَرَّ لنَفْسه بلسان الشُّبْهَة، آنذاك. ثم ماذا؟ المُغنِّي!! ها. أشعلَ لِفافة تبغ ثخينةً: «أعني...» قال موضحاً: «أعني أن علينا الإصغاء إلى صدى صوته، والصدى اقتحامٌ يَغصِبُ الحيِّزَ على الرضوخ له. مضافتنا، التي لنا، تغدو جزءاً من رضوخ الحيِّز لصدى صوته. أترى؟. إنَّه يتملَّكُنا عنوةً، يا سيد زينو».

أصغى زينو بحقيقة السَّمع التي له إلى كريم، من غير أن يتفهَّم منطقَهُ بتمامه. وقد آثر الصمت، هو وأصحابه الضيوف، أملاً منهم بالبُعْد عمَّا يُقحمهم في شأنٍ ليسوا على دراية به، وليست لهم إحاطة ببعض علّته. تأمَّل كريم صمتَهم. استشْعَر دخانَ الحيرة من موقد العقل. حدَّق في شريف رندو المطوَّق بالوسائد. جاملَهُ مُعيناً على البرداء: «ألا ترى ما أراه، يا سيد شريف؟». تلمَّس شريف اللفائفَ الجلدية قرب فخذه، كأنما أفاق من حلم يقظة. تمتم: «لا قتلَ بلا أملٍ في النجاة». همهم أصحابُه. «هوِّنْ عليك»، قال الملاَ نَجْدَت، المشوب العينين بخضرةٍ خفيفة في وجهه الحليق، الذي لا يليق بملاً عادةً، فيما لوَّح كريم لحميد داهي بيده: «هات - رحم الله موتاك - ملعقة من دبْس الخَرُّوب فيها قَدْر حُمُّصة من الخردل»، وأومأ إلى ابنه

جادو، فاقترب منه الشاب آتياً من آخر السطر المنقَّط بالجالسين. جثا أمامه يتلقَّف الكلمات من أبيه: «هلاً بلَّغت السيد مانُوْ سَارُوْخان برغبتنا في رؤيته هنا، إن لم يكن هناك ما يشغله؟»، قال، فنهض جادو بالرسالة إلى الليل العذَّاء.

قطعاً، لم يفهم جلساء كريم، الذين ترعرعت الحكاياتُ بين أيديهم، وشاختْ، في ضياء المضافة المتذَرْذِر فضَّةً من سراجها القوي، ما الذي حدا به إلى استدعاء مانو ساروخان، المعلِّم الأوحد لحروف القرآن في أنحاء سيدروك، العالم بالشعر الكردي، والنحو العربي يلقِّنه للفتيان والصِّبْيَة، إناثاً وذكوراً، عبر ألفية ابن مالك مترجمةً عن لسانه إلى اللغة الكردية. قواعدُ يلقيها ترتيلاً يسْهَل على الحفظ في عقول لا تعرف ماذا تصوغ بها من فنون اللسان، لكنها تتباهى بحفظها هكذا، ذاتَ إيقاعٍ مَرِحٍ في فراغٍ مَرِح. ومانو لا يرتاد المضافة إلاَّ لِماماً، معتكفاً في لياليه على تعليم بناته الستِّ الشِّعْرَ الكردي القائم على نظم الألغاز، وامتحان المعارف بالإشارات. مجهولون ضليمون في تضليل المعاني، وخلخلة المدلولات، رتَّبوا للعقل امتحانَهُ بغريزة التقرُّب إلى المُعضِل. ستمائة مسألة جرى تبويبها في الكِناش المُسمى «كمائن وتضاعيف» شاملةً علومَ النَّظر في مَبْدإِ الخلق، ومنطق الجنِّ، والكيمياء، والنوادر المتداولة بين الخصيان؛ قسَّمها أبواباً جامعُها الشيخ رجب البَهْبَهاني، المُتوفىٰ في سنة مَّا من القرن السادس عشر الميلادي، بلا ترجمة، على شخصه سوى أنه مرجع المنقِّبِيْنَ عن الآبار وعلومها في نواحي بَتْلِيْس من أرض الأقاليم العليا الكردية. وقد استُنْسِخَ المُصَنَّف حتى غدا ركناً من أركان المعارف

الضرورية الوجود في المضافات، وبيوت الدَّهاقنة الآغوات، والشيوخ، وملالي الطُّرق الصوفية، ونُقباء العشائر، القادرين على فكِّ الحروف منهم والواقفين برهبةٍ أمام عماء الحبر ودهائه.

بنات مانو الستُّ، من صغراهنَّ شهناز إلى كُبراهنَّ سَهْدَا، كُنَّ ذوات ألسنةٍ تحيل المعقولَ إلى عبثٍ ومتاهةٍ إذ يقعدْنَ لإناث سيدروك، في غُرَف أنوالهنَّ وفي ساحة البئر، بأشعارهن المُسْتَدْرِجةِ إلى كيدٍ من علوم التضليل النقية، فتهابُ عقولهنَّ الساخرةَ عقولُ الأخريات المرصودةُ للأنوال، فحسب، لا يخرجن من أفلاكها إلى المدار السحيق في الكتب. هُنَّ - نساء سيدروك - يعرفن سِيَراً من أخبار المقيَّديْن باللوعة، عشاقاً ومتهوِّريْن ظُرفاء يقودون البطولةَ إلى مراعي الإوزِّ، لكنهنَّ لا ينعطفن بعلومهنَّ إلى ما ليس قصصاً، لذلك يتهيَّبْنَ بناتَ مانو، المتأرجحات الأعمار بين الثانية عشرة والسابعة عشرة - كُبراهنَّ المخطوبة إلى ابن إحدى أخوات كريم بيرخان نفسه. هُنَّ يتسلَّمن الأشعارَ من كِناش «كمائن وتضاعيف» كلهوٍ ساحرٍ ذي قواعد ملجومة بيد الحيلة. «عين الوحدة التي لا تغمض عنك قط. ماذا يفعل الغمام إذا بكى الجبل؟. يد الندم خرجت من الطين بيضاء. لا لسان له وهو في كل لسان. تسعة أبواب للثمرة، فمن أَيِّها يدخل القُضاة؟. ما حجم سفينة فيها ثلاثون ملاكاً؟. بقرة واحدة وثمانية حقول في خرزة زرقاء. كيف تقرأ كتاباً بلا حروف؟. أيةُ جهةٍ من السرِّ تفضحه؟. ما الذي لا تكلِّمه إلاَّ واقفاً؛ ما الذي لا يكلِّمك إلاَّ واقفاً؟. شيء حسنٌ لأنه شيء، فإن لمسته صار حيًّا قبيحاً. نهر لا مجرى

له، صاحبٌ وقويٌّ، كلَّما دفعت إليه مركبك هاجمته الحيتان. ورق ينمو على أغصانِ هواءٍ، وشجر يثمرُ الريحَ». مسائلُ في استدراج الأحوال إلى الشكِّ، يليها ثَبْتٌ، في آخر كل باب، بالأجوبة والحلول. ومانو يقود بناته بين الأسطر ركضاً وقفزاً، وطيراناً بأجنحة الفضول الأنيس، حتى مشارف السهول الجوَّابة جزائرَ المعاني بأشرعةٍ من ماءٍ. فيما يكملْنَ، هُنَّ، العبورَ إلى مجالس نساء سيدروك، تحت أشجار التين، بأسرابٍ من خَجَل الدعابات يرفِّهْنَ بها عن أيديهنَّ المستريحة قليلاً من نَهْبِ الأنوال وغزوات اللون الفاتك في نسيج البُلُس والزرابيات: إنهنَّ مستَعْذَباتُ الحضور، ومُهَاباتُ الألسنة. وفي تلك الليلة، التي حمل جادو إلى أبيهنَّ رسالةَ أبيه، تلقَّفن الشابَ منذ خطوته الثانية إلى شحوب الغرفة المضاءة بسراج مشرف على الكتاب الضخم بين يدي مانو، ناثراتٍ عليه وميضاً من آخر لغزٍ انتشلْنَ حِبْرَهُ الغريقَ في البياض الأزلي، فرفع الشاب يديه مستسلماً: «عقلي عقلُ حبَّة العنب. لا أعرف أكثر من البزرة».

حين دخل مانو المضافة نهض كريم. دعاه إلى الجلوس قربه يعرِّفه إلى ضيوفه الغرباء، فيما حطَّ بين يديه قَدَحٌ من الشاي ينحرُ البخارُ فيه البخارَ حَنَقاً: «كيف البنات وأمهنَّ؟»، سأله صاحب المضافة مجاملةً، فردَّ الرجل الذي لم يبلغ الأربعين بعد، والمتأنق في تشذيب شاربيه باستقامةٍ فوق شفته العليا: «كما تعرف. هُنَّ نزيلات العِلْم المَجْهول»، وابتسم. ثبتت عيناه على شريف رندو. تأمَّل وجهَه المرهقَ من وراء بخار القَدَح المرفوع إلى شفتيه،

فتأمله شريف بدوره، من وراء الغمامة الصاعدة شفقَ خياله: «سُكّان الضوء ينزلون بأرغفتهم إلى شركائهم في الحُمَّى»، قال الرجلُ المُحنَّى اللحية بإجْهادٍ خفيف في صوته المتّكيء على أنفاس اللُّغز، فعرف مانو أن الكلمات المقذوفة إلى سطور سمعه يدوِّنها حبرٌ مسكون. لم يُبْدِ استغراباً أو مساءلةً. مال بعنقه جانبياً صوب كريم: «عسى خيراً ما دعوتني من أجله» قال، فاستدار كريم إليه مواجهاً. قدَّمَ لِفافةَ تبغ لحارس النَّحْو العربيِّ الجالس على باب لغته الكردية: «سأكلِّفك يا مانو بحمْلٍ فيه مشقَّة. أتمنَّاك صريحاً لا يردُّك الحَرَج عن أخذه أو تَرْكه»، وصمت برهةً يستعرض فيها، بقلبه، قلبَ مانو. رجال كريم يتولَّون نَقْل ما ينسجه أهلُ بيت مانو إلى الأسواق، وراء الأنهار وهضاب الحجر، وفلوات الرياح السبع، ويعودون إليه بالأوبار، والأصواف، والأصباغ المجهولة التركيب مما يحفظ العطارون، وحدهم، نِسَبَ حقائقها، ومثاقيلَ خواصها. مانو معفى من رَفْع شراعه لِغَيْبِ الأسفار. الآخرون يتولون ذلك عنه، ويحفظون له سهمه في القوافل نظيفَ الريش والنصل، كي يتفرَّغ لترويض العلوم الكبرى ذات العناد في حلقات الصِّبْيَة. كريم يعرف أن مانو لن يردَّ له طلباً هو الأول، الذي يسأله فيه: «أفي كتبك شيء من أشعار الأغاني؟ أعني ما يصلح للغناء؟»، قال كريم.

«للأغاني؟. كل شعر يصلح للغناء، في اعتقادي»، ردَّ مانو.

«أرجو المعذرة، يا سيد كريم. لو يقبل السيد مانو اعتراضي على مذهبه..»، قال زينو ميشان في حياءٍ، فأبدى مانو انشراحه للمداخلة: «لا تعتذر يا ضيف الله. يسعدني

أن تصحِّح اعتقادي إذا كان فيه مَيْل أو عوج».

«الخفيف المُسْتَظْرَف، القصير المقطع، المتواصل الحال، القائم على حكاية أو أمثولة، هو ما ينفع الصوت المجتهد، يا سيد مانو. لقد بات تخصُّصاً هذا المذهب في صناعة شعر الأغاني بأنحاء أقاليمنا» قال زينو، فوافقه كريم من فوره:

- هذا ما قصدته، بالتحديد.

سعل الأعمى، ذو الخيال العابس، من ركنه المتداخل الظلال: «يتنزَّل على زوجتي كاسو، بين الحين والحينة، شيء من صرير الأنغام، وهي أمام تنُّورها»، قال، فاعترضَه شيخٌ من جملة الجالسين: «يخرج إليها إبليس من النار يا جميل، وما تسمعه مناجاةُ عاشقَيْنِ».

ضحك البعض. تجاهل الأعمى اعتراضَ الشيخ، متوجهاً بكلامه إلى المعنيِّينَ الثلاثة - كريم، ومانو، وزينو: «أشعار الأغاني من صناعة المستخفِّيْن»، قال، فقابله زينو بصوته:

- مستخفُّون بِمَ؟.

«بنعمة الكتمان» ردَّ الأعمى.

«وما النعمة في الكتمان؟ بعضه شرٌّ، وبعضه ضرر، وبعضه وقاية، وبعضه جُبن، وبعضه غَدْر، وبعضه ظلمٌ للنَّفْس»، قال مانو، فهأهأ الأعمى: «أن يكون المرءُ مكشوفاً في الأغنية، إلى الحدِّ الذي لا يتبقَّى فيه ما يكشف عنه، استخفافٌ بكَرَم الظلمة».

«ومتى كانت الظُّلْمةُ كَرَماً إلاَّ لكَ، يا عكَّاز الظُّلمة؟»، دمدم سرعو، فتدخل كريم متأفِّفاً: «أمْتِعَانا قليلاً بإصغائكما،

أيها الآدميان » ، وسدَّد إلى مانو سَهْمَ المقصد من قوس لسانه : « لو تجمع لنا أغاني من أنحاء بحيرة وَانْ. أنت الأقدر ، الأكفأ ، بحصافة تدبيرك لموازيْن اللفظ ، وقواعده ، وأخلاقه ، على جمع المتداوَل الأصلح من الأغاني لأيامنا هنا ، نستعيد بها رفاهةَ الإصغاء بالكبد إلى المعنى الجليل . لقد انقطعْنا عن ذلك حيناً بعد خراب صوتِ جميلٍ ، وتصدُّع أغانيه المُسْتَثْقَلة » ، قال ، فتدخل زينو : « عفواً . هناك قرى بنواحي هكَّار ، وأخرى في سُنْنْدج ، ورَشْت ، ونصيبين ، لأهلها باع في صناعة الأغاني على نهجٍ عفيفٍ ، يقدر السيد مانو على اختيار بعضها .. » ، فاعترض الأعمى : « منذ متى استثقلتم أغانيَّ ؟ » . حدَّجه كريم بنظرةٍ ذات مخلب . قدم لفافة تبغ إلى مانو : « لن نكلِّفك مشقّات الرَّحالين وراء أثقال المستور . يقول ضيفنا إن رَشْت ، بجنوب قزوين ، فيها زاد من الأشعار يكفينا دهراً . أتقصدُها لنا متوكِّلاً على الله ؟ » . تململ مانو برهةً ، لكنه عبر البرزخَ قبل أن تبترد كلمات كريم : « ليكن يا أبا جادو . إنما يلزمني دليل » ، قال ، وقد اتَّصل بصوته صوت الأعمى متعرِّجاً بين ظلال الأباريق المحمولة على قمر الموقد : « مشقَّةٌ نافلةٌ من أجل زيادة الصخب في سيدروك » .

لمسَ حميد داهي بعقب قدمه فخذَ الأعمَى لَكْزاً : « كنتَ مُغنِّياً يا جميل . ألستَ مُمْتنَّاً لما كُنْته ؟ » . قال ، فرد الأعمى ممسكاً بعقب قدم حميد : « لا . كانت طريقة لا أحتاجها من أجل أن أراكم . صوتي بصريّ . جعلتكم تصمتون لأطوِّقكم . كنتم موجودين لأن صوتي كان موجوداً ، وأنتم موجودون طالما أريد ذلك » .

« عاد إلى هرطقته » ، قال سَرْعو .

« ألست فخوراً أن يكمل ابنك الصناعةَ التي عرفْتَها يا جميل؟ أنت درَّبته كما تقول » ، سأله هوار حاجي ، فسكت الأعمى. جلجل صوتُ شريف الممسك بموجة الصلصال في كيانه : « الزوالُ قاطعُ الطريق على قافلة الله » ، قال. خيَّم سكونٌ متلألىء كمقصِّ الغيب. همهم كريم : « أتسألني دليلاً يا مانو؟ بالطبع سيكون لك دليلٌ صاحب. عندنا جَكَرُوْ عَمْشَة ، ثعلب الأطلس من أصفهان حتى الخابور ».

تلك الليلة آوى الغرباء الخمسة ، أوَّل مرة بعد سفر في العراءات ، إلى حدائق وثيرةٍ من الرسوم على لُحُفٍ ناعمةٍ ، وفُرُش سابحة على غزوات التَّرَف الرقيقة. شريف رندو عَبَر ، في حساب يقينه المشرف على فجوات المعاني ، شفرةَ المغاليق الكبرى ستة آلاف مرة ، ذهاباً وإياباً بين العدم الشريد والوجود الشريد : « النسيانُ أصْلُ الخَلْق » ، تمتم مراراً بلسان النعاس المُمَزَّق ، فيما كانت الأحلام المعذَّبة تتوافد عليه مُقَطَّعةَ الأوصال ، لها صريرُ عَتَلاتِ الآبار. أصحابه الأربعة الآخرون ، أحسُّوا انتقالات الأرواح المَرِحة بين وسائدهم ؛ - أرواحِ الطيور التي امتلأت الحشايا الناعمة الوثيرة بريشها تحت رؤوسهم ، المستسلمةِ الخيالاتِ لعماءِ ما بعد الصُّوَر. كلٌّ تهيَّأ لشفقِ نومه سربٌ ملتمع الأجنحة بالبذور المتناثرة حمراءَ من سنابل الشعاعات المنسية على بوَّابات الغيم. أرواح ستين طائراً في الوسائد الخمس المحتضنة خزائن أنفاسهم. في كل وسادة اثنتا عشرة روحاً ، لحقت بها ، بلا امتزاج ، أربعُ أرواح أخرى هي آخر الذبائح من الوزِّ والبطّ ، التي قُدِّمت للضيوف عشاءً. ريش طيور القوق داعبَ ، في وسادة جَكَر سَيْدا المعقوف الشاربين ،

ريشَ طيور الغرنوق. ريشُ اللقلق، في وسادة الملاّ نَجْدَتْ الحليق الوجه، وسوسَ ريشَ طيور الخَبَل. ريشُ طيور الغِرْغِر تَنَاجى وريشَ طيور الذَّهب، في وسادة والي جَنَابْ المبتسم. ريشُ البطِّ الهندي المزوَّق عابثَ ريشَ الديك الرومي، في وسادة زينو ميڤان. أما وسادة شريف فكانت نَهبًا للغزوات المتبادلة بين طيور الغُداف ودِيَكَةِ الخابور، ذوات الأذيال الجامحة الخُضْرة. وفي الفَلَك ذاك، المطوَّق بأرواح الحيوان المنجذبة إلى حَمْدِ العَدَم، مُغفاةً من الدينونة ومحاججاتها، نزلت أحلامُ الخمسة دَرَجَ الأقاليم المحفورة بإزميلِ العبث على الأطلس، من التخوم الشمالية لجبال البُورز حتى أدغال العَرْعر على ضفاف بحيرة أَرُوْمية؛ ثم تفرَّقتْ قطعاناً من التياتل في اتجاه الكهوف الأزلية، المموَّهة الأبواب بعرائش من نحاس الأرقام المدوَّنة، والمحفوظة بلا تدوين.

هكذا كانت أحوال الخمسة، المنذورة لكشوف البقاءِ العَالِم، حتى الصباح. إثنان منهم قاما إلى صلاة الفجر، ثم عادا إلى نداء الريش في وسادتيهما، فغرقا - ثانيةً - في الهبوب الرحيم لأنفاس البرازخ من البوَّابات. ناما، قليلاً، واستيقظا مع الجمع المستيقظ لمَّا حشد النُّورُ بهلواناته في كوى المضافة قافزين من حِبْرِ الشروق إلى ممحاةِ الكثافة العادلة. حميد داهي أسْلَم الحقائقَ التي في حوزته إلى أرواح الأباريق، فانكبَّتْ بآلات بخارها على ترتيب الجوهرِ مِزَاجاً أحمرَ متغْتَعاً من التَّرَف. إنها أباريق تستنطقُ عيدانَ الشاي حتى تعترفَ بمكنونها فتعترفُ. الشاربون يعرفون ذلك، وهم ممتنُّون لجسارة القنص في صبر النار تحت ملقط حميد داهي

- رسولِ الوعد النباتيّ للشارب بترويض الوقت كالببغاء.
أربعة من ضيوف كريم تداولوا رموزَ الصباحِ المذوَّب في الأقداح، فوق صَحْفَة عليها عَدَسٌ كثيف الحساء، وجُبْنٌ أصفرُ في دَسَمِه. الخامس ظلَّ مستنداً إلى الوسائد من حوله يتمهَّل في الانضمام إلى الحشد، الذي اتسعت حلقته دائرياً، فجلس البعض خلف بعض. بنات كريم كُنَّ يدخلن ويخرجن آتيات بالمزيد من الإفطار، الذي يجتمع عليه من تنحو بِهِ خطاه إلى صباح المضافة. لا غيم. صحوٌ نقيٌّ تواطأ على إرهاقهنَّ قليلاً. لو أمطرت لنقصَ الوافدون ارتجالاً إلى مدخل النهار. لكنَّها الآيةُ التي ينبغي احتسابُ كَرَمها في يقين كريم بيرخان، الذي جهَّز، منذ مطلع الفجر، مع ابنيه، وبناته، وسرعو، وهوار حاجي، وأخته وَسِيْلَة، واثنين من أبنائها، على تنضيد متاعٍ محسوب، وزادٍ محسوب، ورَزْمِ خيمةٍ صغيرة من خيام الرعاة في سهوب التتار، وإعداد جوادين وبغلين، للمهمَّة المشفوعة بأملِ الغَلَبة على مُغنِّي آل بابك.

في العقد الثاني من شبابِ الشمس المرقوم درجاتٍ على لوح النهار، امتطى مانو ساروخان جواداً فيه دماء ثلاثة من أسلافِهِ: جيادِ قرغيزيَةَ، وداغستان، وخُراسان. جَكَرُوْ عَمشة امتطى، بدوره، جواداً تدلَّت على نحره أربع خرزات بيضاء، يتوسطها قرش نحاسيٌّ كبير، فيه رسم تكيَّةٍ نقشبندية. تبادل الرجال الإيماءات الصامتة على معنى التوفيق والبركة. تبع البغلان المحمَّلان متاعاً حوافرَ الجوادين وهما يضغطان الترابَ الرطب فيورثانه نقوشَ الأثر الحيّ. هَأهَأَ الأعمى ذو الخيال العابس: «احذَرا القمرَ»، قال بهبوبٍ من

رمل حنجرته .

سربٌ من طيور القَبَج اتجه شمالاً ، عبر سماء القصب العالي على ضفة النهر ، صوبَ هضبة « كايّيْ خُودان » .

(٢)

المغيب في جبال الجودي

(مصيدة نِيْنو سارِيْنْ)

قلَّب شهبور نَظِيمْي الحجارةَ الرقيقة، الصقيلة، بقدمه اليمنى، على الضفة الجنوبية لنهر سَانْ، العابر نحيلاً في وادي آرون. حمل واحداً وتشمَّمه من جهته الرطبة الملامسة للأرض: «هذا حجر انقلب على ظهره منذ أربعة أيام» قال بلسانه الفارسي. دار في المكان المغمور بالحصى، الذي انحسر عنه الماء أمتاراً. جسَّ مقابضَ الهواء النافرةَ من أبواب الكهوف الخفية، ولهَجَ بأسماء الأدراج وراء حدائق المعاني: «هؤلاء أعادوا ترتيبَ الجهاتِ مختلِطَةً. بدَّلوا مواقعَها»، تمتم، وفي عينيه حَذَرٌ مُقْلِق.

«قلْ لي شيئاً أفهمه»، دمدم زادهْ بَزْرَبادِيْ من صهوة جواده.

ألقى شهبور الحجَر من يده عمودياً فوق الحصى، فتطايرت من الصدمة حبَّاتٌ وتدحرجت في هَسِيْسٍ ناعم. عدَّها الرجلُ القَيَّاف بعينيه: «ثماني حصواتٍ». التفتَ إلى زادهْ: «أخشى أنهم سلكوا في مجرى الماء ليقطعوا الأثر. لكنني سأجد ما يدلُّ عليهم في إحدى الضفتين. لا بَشَر يستحيل أثيراً، ولو صار لتشمَّمْتُهُ»، قال شهبور، ثم امتطى جواده، وتقدَّم الحشدَ ذا الأكباد الإحدى والعشرين الموصودة على رنينِ حقدها.

في ساحة «جَارْ جِرا»، ذات المصابيح الأربعة، حيث

تدلى جسد رئيس جمهورية مهاباد القاضي محمد الفارق في جُبَّته ، حاول زاده بزربادي ، بجهد بلا طائل ، أن يعثر على شريف رندو ، أمين الرسائل والرموز بين الرئيس والعشائر الكردية في أوشنو ، ومرغابيرا ، وبانَهْ ، وسَرُوْشتا ، وسُنْنْدُج ، وكوتورا ، وماكو . كان يحمل يَطَقاً مدمًّى اقتطع به رأسَ المغنية سارا مِيْمَان ، قبل أن يدحرجَه من باب « دار الأوبرا » على الأرض الحجرية المنحدرة حتى نهر صابلاغ . فتاة في الثانية والعشرين كانت سارا ، العائدة من حديقة الصوت في إحدى مدارس موسكو . ذهبت إلى أرض النجوم الحمراء ، في بعثة تدبَّرتْها حكومة القاضي محمد ، المشمولة برعاية الرُّسل بين مَهَاباد وقلاع ستالين الكبرى على بوَّابات أذربيجان ، كي تقتنص علوماً في مراتب النَّقاء النباتيِّ بمعهد زراعات آسيا . لكن زميلات لها في مساكن الطالبات أبلغن إدارة المعهد بكوامن الغمام الذهبي في حنجرتها حين غنَّت لهنَّ ، مراراً ، شواردَ من مطارحات السهولِ للسهول هوى الريح المسحورة ، بكلمات النداء الكردي . أصغت إليها متعهِّدةُ المكاشفات في طبائع الأعراق ، السيدة زينوڤا غورديبف ، صاحبة الخَتْم الضروري على التقارير الواجب رفعها الى المحقِّقين من سجلاَّت العوالم ومغاليقها . أصغت مرتين ، فكان استماعها هو الوساطة في نقلها من مرتع المجابهات في قوانين الإحياء النباتيِّ ، واستنباط الأخيلة لأنواع الثمار ، إلى حدائق الصوت ذات الهندسة البيانية في « معهد الأوبرا الصغير » ، المتفرِّع عن « المعهد الكبير » . وقد عادت سارا إلى مهاباد ، في الشهر السادس من تلقِّي الوحي الرثويِّ ، لتقدِّم مَغْناة « وَلاَتْ » ، بعدما أسَّس شبَّان طافحو الأكباد بالخوارق المنقادة ، مثل

دجاج الساحات، لانتصار الإنسان على ظلمات الحقول، وظلمات المصانع، وظلمات العسف، وظلمات الصوت، التي غدت الحناجر - بعد تبديدها - متولِّيةً مقاليدَ الأمل الطاحن، والفرح الطاحن، والإيمان الطاحن بلا هوادة؛ - بعدما أسَّسوا «دار أوبرا» إسوةً بأُخوَّة الحناجر في عرين الإمبراطورية المتقوِّضة من العصف الطاهر للحتمية الأكيدة. لقد أفرغوا خانَ الحامية العسكرية الإيرانية من مزاود الجياد، ومرابطها ذات العَمَد، والأَسِرَّة الخشب المُنضَّدة طبقاتٍ، بعد إعلان مهاباد دولةً ذاتَ مجلسٍ، وقوانين، وحكومة من أربعة عشر وزيراً، بدعم ستالينيٍّ أَلْجَمَ البهلويين في طهران عن تقويضها، وغطوا الجدران برسومٍ من موجِ نار «نوروز» الأزلية، ظاهرةً على أشكال مشاعل، وحرائق راقصةٍ؛ وخفيَّةً في سُتُرٍ من أذيال الطواويس المنشورَةِ مراوحَ على أطرافها نجومٌ، وأهِلَّة، وعيون بشرية، وكلمات من أشعار السيد هَجَال، التي ستنبثق منها أول أوبرا صادحة في حديقة صوت سارا ميمان.

حشد عَرِمٍ من الرجال، والنساء، والأطفال، تتبعهم أرواحُ حيواناتهم، قَدِمَ من مداخل ساحة «جَارْجِرا» التسعة حتى باب الخان الكبير، الذي حطمت الفؤوس نصف أَسَدِ الأكاسِرة الخشبي، المنحوتَ نافراً من مقطعه القوسيِّ العُلْوي، ثأراً من شبحه المحدِّق في ثيران الكُرد وبغالهم. جلس البعض على كراسي الخوص، واعتلاها بعضهم واقفين. تشاجر الأطفال والصبية على استراق النظر، من تحت مناكب الكبار، إلى المسرح الصغير، ذي الأعمدة المقتطعة من سيقان شجر الحور: عازفان على آلتي كمانٍ،

وثالث ينفخ في ناي مغلَّف برقائق النحاس ؛ تلك كانت مجابهة الروح الكردية الأولى لكهانة الآلات ذات العزيف المُلْغِز ، وهي التي لم تشهد قبلاً إلاّ العراك الغباريَّ في الساحات بين الطبل ، والمزمارِ - قصبةِ الشيطان المجروحة من السعال .

قطعاً ، لم يفهم أحد شيئاً من غناء الفتاة الشاحبة ، المعقودة الحاجبين ، سارا ، بحسب ما رواه زينو ميڤان لكريم ، ذات ليلة . حضر زينو الحفلَ بنفسه ، حاملاً علومَ المغني الصقيلةَ كصِحاف الشاي في مبنى حكومة مهاباد ، فلم تُسعفه علومُه في تطويق الرسوم المحفورة بمدية الغيب على حجر الصوت ، المتدحرج خفيفاً من المسرح إلى ذهول الحشد المصعوق ، الصامت ، أمام نُصُبِ الغامض المهيمن . أنهت سارا مَغْناتَها صعوداً هبوطاً بالنَّفَس الإلهيِّ في صلصال الكلمات ، ونزلت السُّلَّمَ ذا الدرجات الأربع إلى قاعة الخان ، من غير أن يعرف الحشد أن المَغْنَاة انتهت . عَلَت زغاريدُ نساء بعد صمتٍ لاهثٍ ، لتبديد الكمالِ المُبْهَم الذي بَسَط راحتيه لالتقاط القُبَل من فم العبث النبيل . دبَّ الهَرْج في السماء وفي الأرض . عاد السِّحْرُ إلى صوابه من غير حاجة الى شرح . لم يفهم الحشدُ شيئاً ، لكنه أحسَّ أن ما جرى في فراغ الخان المسكون بشظايا من روح أَسَدِ الأكاسرة باتَ لهم ؛ بات مِلْكَ أَعماقهم القاصرة عن تقويم المشهد : ثمت أمر مَّا ، لا سابق عليه في خيال الحشد الممهور بختم الجهات الصغيرة ، حدث للمرة الأولى ، فاقترن صوتُ سارا بتاريخ مهاباد ، الذي اختزله الخذلانُ الجغرافيُّ إلى سنة واحدة من مقام الزمن الأرضيِّ .

زادَهْ بزْرَبادي ، الذي واكب كأمثاله من طلبة الثأر طلائعَ الجيش الإيراني ، العائد - بعد غياب - إلى أرض كردستان ، دوَّن قائمةً بحبرٍ من سُمِّ السَّيْكران المُخدِّر على شَغَافه . أقسم أمام أبيه ، في خُرم أباذ أنه سيترك علامات من دم شريف رندو على كل حجر عَرْضُه شبران ، من مهاباد حتى باب البيت . وسيحمل في كيسٍ عَقْبي قدمي شريف ، مُملَّحتين ، ليدفنهما أمام البوَّابة ، كي يهدأ بال عَقْبي أبيه المبتورتين .

شريف رندو أوعز بقطع عَقْبي جلال بزربادي ، أبي زاده ، الذي حمل رسائل مرزبانات السناجق إلى الحاميات المنقطعة عنها في تخوم كَفويْ ، بعد تشتت الجيش الإيراني في مناطق الشمال ، والتناحر الصامت على مناطق النفوذ ، في أقسام من جنوب آسيا ، بين السوفييت والحلفاء . جلال ، الفارسي الدم ، لم يغادر مهاباد عقب إعلان الجمهورية . أوكل إليه شريف القيام بتدبير فرعٍ من البريد المدني ، وائتمنه على خَتْم عليه اسمُ الجلالة وهلالُ الدولة ، وسجلٍّ فيه جيوب حاوية طوابعَ بلونين ، ضخمة القَطْع ، ذات شموس ومثلثاتٍ معقودةٍ سلاسلَ على مدارها . لكن جلال بزربادي مَهَر مغلَّفاتٍ بالختم تحوي رسائل من فروع الإدارات في الجيش الإيراني إلى الحاميات التائهة بانسداد الطُّرق عليها ، وانقطاع المسالك بعضها عن بعض . التُّرْك الأكرادُ ، الجوَّالة على خيول ، أو القائمة على الثغور بين القرى ، كانوا يطمئنون إلى الجوَّابين تلكَ الأنحاء طالما يحملون كتباً مختومةً ، وورقاً مطوياً مغلقاً بالطوابع ذات الصمغ العسلِ ، فيعرفونهم سعاةَ بريد . لكن حاميةً صغيرة على خطٍّ بائنْ ارتابت في شخص كثر تردّاده على الوعر هناك فاستنطقته فاختلَّتْ حيلتُه . تبعثر

الخفيُّ وانكشف المرقومُ. ضربت الصاعقةُ الباردةُ نخاع شريف من قَذاله إلى عصعصه، وتهيَّأ القصاصُ الواجب لعينيه مرسوماً على صورة قَدَم. فكَّر في قطْع قدمي جلال، ثم خفَّف الحدَّ فيه إلى قَطْع عَقْبيه، فلا يغدو قادراً على وضعهما في ركاب السروج، ويصير مشيه على مشطَيْ قدميه كمشي النسناس في جزائر الهند. ولمّا أنفذ الحُكْم فيه، دمغ جبينه بختمٍ عليه صبغة الأرجوان لا تزول ستة أشهر، وأبعَدهُ مع أهله إلى مِلّته فاستقرَّ في خُرَّم أباد.

كانت القائمة المدوَّخة بحقدها، في الخفاء المعلوم من قلب زاده، تحوي اسم شريف، وزينو ميڤان، تحديداً. زينو، مغني الأشعار الطاحنة عن مقام الكُرْدِ في سُنَنِ الخَلْق، ملأ الأعراس، والمضافات، واحتفالات الدولة الوليدة، بمواثيق الصوت الأكثر إحْكاماً. رجلٌ نذر حنجرتَهُ لقضاءِ قلبه وقَدَرِ كبده، يوجِّهانه إلى معاقل الجوْهر. ظل هارباً عشر سنين من شرق كردستان إلى سيرتْهْ، وبتليس، ونصيبين غرباً، حتى مدارج جبل الكُرْد في النواحي القريبة من بحر الروم، يَصِلُ الوشائجَ المُمَزَّقَةَ الهواءِ بين رئات الذئاب الجبلية، وحجل السهول. عرفتْهُ الدساكر، والقُرى، والقَصبات، والكُوَرُ، وقلَّده المهمومون في الصوت، من الرعاة حتى النساء أمام فوَّهات التنانير المُسَجَّرة، والقدور المغلية من هيامها بحساء العَدَس. وقد عاد الرجل، ساعي الصوت، مع قيام مهاباد، فوطَّد فيها قباباً من رئتيه، ومآذن من براعات لسانه، الذي طالما سمعه زاده بَزربادي، وأخواه رامي وفيروزي، العاملون في مدبغة الجلود، ومصنع السروج. ولمَّا عاد المنتقم مع أخويه إلى مهاباد، بعد غياب

ثلاثة أشهر لا غير، لم يعثر بين الأجساد المتدلية من أعمدة المصابيح على شريف، أو زينو. إلهامُ الفَتْكِ دحرج إلى خياله رأسَ سارا ميمان، تلك العائدة من كاتدرائيات الشرِّ في أرض صَقالبة الشمال. الشَّرَرُ المعتم في هيكل عقله أضاءَ الدمَ نافراً من الأوردة المبتورة. يده على مقبض الغيب - يدُ زاده، ووراء الدفَّة سارا. الوحيُ الذي بلَّلَ صدغيه بعرق الإقدام لم يكن يُرَدُّ. هكذا وجَّه حصانه إلى دار الأوبرا، حيث احتشد الهاربون من الهَرج، المذعورون من القتلِ يخبطُ عشواءَ في الأزقة والمباني، قَتْلٍ متبوعٍ بأسماء «الله» من فم الأجناد الفارسيين، وبأسماء أئمةٍ هم المختارون للحقائق ونداءاتها.

لم يخطىء حدسُ الحَدَأة في قلب زاده. رفرف حقدُهُ بجناحين عليهما ريش من الغِسْلِيْن، فوطأ بحصانه من اعترضه حتى بلغ الفتاةَ الحاسرة الرأس، القصيرة الشعر، واقفة قرب سُلَّمَ الحلبة الخشبية، شاردة العينين، واضعة يديها تحت إبطيها. ترجَّل عن حصانه. سحب إحدى يدي سارا ووضع الرسن في راحتها: «اهربي» قال، وعيناه تحرثان الزَّبدَ البارد على صفحة يقينها. نخزها بإصبعه في خاصرتها يحضُّها على المشي فمشت سارا بالجواد حتى خرجت من الخان. اجتمع على زاده نفرٌ من مِلَّة الانتقام بينهم أخواه. كلهم عصبوا أعضادهم بشرائط صفراء يعرفهم بهم الأجناد الفُرْس: «غَنِّيْ لنا يا بديعة اللسان» قال رامي بزربادي، وتلفَّت من حوله: «أعطى الروسُ هؤلاء الأكراد دولةً، وفَرْجاً ناطقاً بلغة البلابل».

«نعم. لغة البلابل» تمتم زاده. تراجع خطوتين وسَلَّ

اليَطَقَ المعقوف من حزامه. ضربَ عنقَ سارا من الخلف فأصاب عاتقها. خرَّت الفتاة جاثيةً والتفتت إليه مصعوقةً من الألم. عاجلها بضربةٍ ثانية فتدحرج الرأس قليلاً، فركله مرتين لينحدر بعينين مفتوحتين إلى نهر صابلاغ، المطرَّز الضفتين بأعلام الجمهورية الممزَّقة، وسجلاَّتها الزرقاء، وبعض الحمير المقتولة التي منعها الثقلُ أن تنحدر إلى الماء كانحدار جثث الآدميين الخفيفة. طفا رأس سارا بين كتفي النهر. التحمت حنجرتُها المقطوعة بحنجرته فصعد الزفيرُ قوياً من ظلال القصب الكثيف.

حين هدأت الحرائق، وامتدت ألسنة الرماد إلى الأزقة والطرقات، جرى إحصاء الهاربين الناجين من المذبحة، أولئك الأكثر قُرباً من الرئيس القاضي محمد، أو المتنفِّذين من أركان الجمهورية المهدورة: بعض الوزراء وبعض الرتباء في جيش الدولة الصغير، وبعض الإداريين. لم تكن القائمة ضخمةً، لكنها شملت ثلث الرجال في الكيان الكردي المدحور. إدارة الجيش الفارسي اكتفت، في الإقليم المعاد ضمُّه إلى غابة أَسَد الأكاسرة، بذلك القَدْر من أسماء المطلوبين الفارين. أما السيد مهدي مشهران، رقيب الاستخبارات المدنيُّ، الموكَّل بتصنيف الشُّبهات، وتقدير الميول والنوازع لدى أهل الأقاليم المروَّضة، فقد جرَّد فرسخاً من لفائف الورق بالأسماء المطلوب تحصيلها على أشكال بشر، وأشباح؛ أحياء وموتى: حيوانات ومحاصيل؛ بذورٍ وأسمدة. ولمَّا راجعه زاده بزربادي متوسّلاً خبراً عن شريف رندو، أمدَّه الرقيب بصفات خمسة بغال تترية، عرَّجت عن ضفة صابلاغ شمالاً في اتجاه وادي كوشير:

«المغني زينو، وشريف، عرفهما الراعي الذي استنطقناه. معهما ثلاثة آخرون لا ندري من هم».

«أبعثتم بمن يتتبَّعهم؟»، سأله زاده، فرد الرقيب:

– لو خوَّلنا الجيش الإيراني أن يتتبَّع كل كرديَّيْن هربا في اتجاه، لما بقي هنا أحد.

«أنا أتتبع شريف رندو، وزينو ميڤان حتى أنهار الجنة. سأخلط الحليب والعسل بالنُّخُعِ ونِقْيِ العظام»، قال زاده.

عربة بمقطورتين، تقودها أربعة بغال، وقيَّافٌ من الممسوسين بأحلام الكوجَر – أسدِ الصخور: ذلك ما استطاع الرقيب تدبيره. زاده تولى الباقي السَّهل: تسعة عشر رجلاً بينهم أخواه رامي، وفيروزي، ومترجم من الكردية إلى الفارسية هو زاهدانْ نوري، الضاحك بلسان الجنِّ.

قهقَهَ القَضاءُ العريق. رتَّبت مواثيقُ الباطن سطورَ عقودها الأولى، فانحدرت قافلة الجياد باتجاه وادي كوشير، الذي يعبره خيطٌ رقيق من الماء هو ما يتبقَّى من نهر السيول، إذ تذوب الثلوج عن قمم زغروس الشمالية ربيعاً. حصى كثير، ورقائق من حجر أسود ورماديٍّ دلَّ على الخمسة، في الأخدود الواطىء بين صفوف من أشجار العلَّيق والصنوبر القصير. حوافر البغال التَّترية الخمسة مزجت الهواءَ بالرمل الناعم المتفتح عن آثارها الدائرية حُفَراً كفُطْر مقلوب. انقلب الحصى والحجر على ظهره فبدا أبيض، عليه غبارُ الجفاف بعد طول رطوبةٍ. سطرُ الأثر مديدُ الحروفِ على القاع المنبسط للأخدود، الذي ظلت عربة المؤنة، ذات المقطورتين والبغال الأربعة، تسير على ضفته العالية بتوازٍ مع سير الجياد التي تواكب القَيَّاف في الغور. تشمَّم شهبور

حجراً حرَّكهُ شرْعُ الثِّقَل: «هُم عبروا منذ أربعة أيام» قال، وأعاد الحجر إلى موضعه، على الوجه الذي تشمَّمَهُ منه: «إنه مُعَذَّب منذ أربعة أيام. ظاهرُ الجماد، المنكشف منه للفراغ، هو إيمانُ الجماد». ودار بعينيه على نفائس المرئيات المعلومة حتى مسيل الماء الضَّحْضاح. لمسَ شاربيه الرماديين بيده الممسكة رسنَ جواده السائر من خلفه. تقدَّم خطوات صوب الماء. توقَّف فتوقَّف الجواد. حدَّقا، بخيالٍ واحد، في التماعةِ الحيلة على الفضَّة الجارية: «هؤلاء أعادوا ترتيب الجهاتِ مُختلِطَةً»، تمتم، فتسلَّلت الكلماتُ مُقتَصَرةً إلى سمع زاده المُهْمَل اللحية في وجهه الموشك على عامه الثامن والثلاثين. حرَّك جواده صوب القيَّاف: «قُلْ شيئاً أفهمه، يا شهبور».

كان واضحاً أن الخمسةَ الهاربين تحسَّبوا المطاردة مُحتملة، فسلكوا في مجرى الماء طولاً كأنما سيتصيَّدون منبعَه بفخاخ الكشَّافين. عضَّ شهبور على عضلة المعنى بنواجذ أنفاسه القوية. قال للآخرين أن يواكبوه من ضفة الأخدود، لأنه عازم على السير خوضاً في المسيل. هم صعدوا يمشون بإزائه من الحافة المشرفة على القيَّاف، وظلَّ هو في المجرى يقطعه كالمحراث راكباً، يوزِّع بصره على الحصى، من جانبيه، توزيعاً متساويَ التقدير. الماءُ ثرثار صامت، والحصى صامت ثرثار. ما يخفيه الماء سيفضحه الحصى. هكذا خمَّن عِلْمُ القيَّاف فيه. الأثرُ المطحون في جُرْن الماء الجاري لا بد أن ينعقد عجيناً يؤكل في قِدْر الحصى. ساعة، أربع، عشر. يومان، ثلاثة، ما همَّ. لا بد أن يحيد الهاربون الخمسة عن المجرى إلى اليابسة، شمالاً أو

يميناً. سيتولى الحصى التقاط الآثار دافئةً ويقدِّمها، في كأس المكنونات المرئية، إلى يد شهبور. لا جسمَ أو أثيرَ ينجو من نمر فِطنته. إذا وقع على أثرٍ، مرَّةً واحدةً، أفشى لبصره بمخابىء الآثار الأخرى. «العَدَم نَفْسه لن ينجو مني» يقول ظلُّه للمكان. العدم المستور بصفوف لا نهاية لها من دروع الغياهب، التي تسند الوجود المرتضَّ. دروع فوق دروع كحراشف التنين الساهر على الممالك الغارقة. عدم ودروع لن ينجوا من شهبور. لكنه، بعد نصف نهار من مقارعة مجرى الماء بحوافر الجواد، أخذتْهُ رعدةُ الشكِّ من إخمصي قدميه صعوداً حتى عصعصه. نزل عن دابته وقادها مشياً إلى حافة الأخدود حيث الجياد الأخرى. جلس على الأرض مشرفاً من سور التخمين على معاقل الخفيِّ: «هؤلاء أعادوا ترتيبَ الجهات»، ردَّد بصوتٍ مُنقسِم على نبرتِهِ. وضع زاده يده على كتف القيَّاف منحنياً عليه: «قُل لي شيئاً أفهمه يا شهبور».

تمدَّد الليلُ مِلءَ عظامه فوق الوادي، والأخدود. بدَّل مواقعَ الآثار الفَلَكية، وعيَّن قضاةً، وحَسَبةً، وحرساً، وعدَّائيْنَ ببريد الأجرام إلى الأجرام، ورعاةً للمجرات، ومُغَنِّيْنَ، ودهاقنةً على أقاليم اللُّغز البلَّوري. قدَّمَ وأخَّر في ترتيب المصكوكات على درع الكمال الأول، وأدار النواعيرَ السرمدية تغرفُ من ماء الخلائق وتسكبها في جداول الخلائق: «إحكِ لنا حكاية خرقاء يا شهبور»، قال زاده، الجالس في باب الخيمة المنصوبة على عَجَل، نصفه في ظلامها والنصف الآخر في رعاية العراء الأسود. توهَّجت لِفافة التبغ في فم شهبور. أضاء الجمرُ شجرةَ لسانه:

«يُحكى أن رجلاً خرج من دغل حاملاً كنزاً. جثا على الأرض واستند بصدره على سيفه حتى خرج من ظهره. هجم طائر على الرجل المتخبط، واختطف الكنز، محلِّقاً به فوقَ البحر. احتدم البحرُ الشَّره، ورمى شِباكَ الماء عالياً فاختطفَ الطائرَ من الهواء. نَتَفه، ومَعَسه في راحتيه الطاحنتين، ثم استولى على الكنز. رآه بحارةُ السفينة ذات القلوع الأربعين، فطمعوا فيه. رموا المرساةَ الى الماءِ، واستخرجوا المزاريقَ يطعنون بها البحرَ حتى خارَ وارتَثَّ، قيَّدوه بحبال السلالم والمراسي، ولفُّوه بقُلْعٍ، وعلَّقوه إلى الصارية، ثم جذَّفوا في الهواء متجهين إلى جبل راقوم الحديدي، وراء نهر الغيلان. اعتكرت السماءُ وازْبَدَّتْ. غنَّتْ غناءَ سَحَرةِ النهار، ونزلت من مدخل الكهف إلى الهاوية. أمسكت بالسفينة من دَقَلها. نفضَتْها كنفْضِ المكنسة حتى لم يبقَ فيها خشبٌ لم يتخلَّع، وحبلٌ لم ينقطع، وقُلْعٌ لم يتمزَّق. سقط البحرُ، والبحارةُ، والكنز، والهيكل المحطَّم للسفينة من فوَّهة البُركان إلى جوف الحوت». سكتَ شهبور. عبرتْ شَفَقَ يقينه خمسةُ بغال تترية لها قوائم نحيلة من لهب ذهبيٍّ. تمتم شخص مَّا: «إنها حكاية خرقاء حقاً».

استجمع الليلُ طواحينَه، ومرزباناته، وعيَّاريه، وعطَّاريه، وأجنحةَ ملائكته المنسية، وأُفعواناتِ أفلاكه، وحشودَ مِلَلِه المتشبثة بشراع الفراغ العريق، عائداً إلى جوف لؤلؤته، في الصَّدَفة ذاتها - صَدَفةِ المجاز الأكبر. بزغ الفجرُ النازف غيوماً من جراح النُّور. تمطَّى سليلُ نمورِ الزخارف الآجُرِّيَّة في مدافن الأزمنة. مسَّ نَفَسُه وجهَ الترجمان زهْدَانْ

نوري فأفاقَ أوّلاً. صفَّر صفيرَ الطير فأفاق الآخرون. توزَّعوا خبزاً وشاياً بينهم. لم يشرب شهبور من قدحه. حمل خبزاً في يده وقاد جواده، ثانيةً، إلى مسيل الماء. ذَرْقُ طيورٍ كثيرٌ على الحصى استوقفه فتوقَّف. ذَرْقٌ أبيض، ورمادي، وأسود، كثيفٌ جامد، ومائع. لمسَ شهبور بعضَه بإصبعه السبَّابة، يتبين بحاسَّة مسامِّه الحكيمة بقايا طعامٍ لم ينهضم في معدة الطير. ذَرْقه، إذا استُقصي اللونُ والفُتاتُ فيه، دليلٌ على الجهات التي يغتذي فيها. الطيورُ القواطع، المشمولة بشرائع الرحيل ومواثيقه المبوَّبة بحِبْرِ الغيب، تحمل في ذرقها فضلاتٍ من رزْق أغتذت به من أقاليم بعيدة. الطيور الجوائم تحمل في ذرقها ما يجود به المكان القريب عليها من غذاء. ذرْق الطيور القواطع جامد، كثيف، لطول بقائه في أحشائها أن لا تستقرُّ على الأرض إلاَّ بعد طيران طويل. ذرق الطيور الجوائم مائع، رقيق، من جراء الأخلاط المنسابة سريعاً من المعدة والمعي. وها هو شهبور يفتِّت الذَّرْق بين سبابته وإبهامه، متحسِّساً غوامضَ الأخلاط وجهالةَ المادة. إنه يعرف أن الطيور تغتذي من روث الدواب أيضاً - الجيادِ، والبغالِ، والحميرِ، على التحديد، لانسياب النُّخالة، والشعير، بلا هَرْس أو ذوبان أحياناً إلى الخارج مع الفضلات. قد لا يكون للبغال الخمسة، التي يقتفي شهبور مواجعها الخفية، ما تغتذي به من نُخالة أو شعير، إذِ الهاربُ على عَجَلٍ لا يتزوَّد مؤنةً لدابَّته أو لنفسه. قَطْعاً هي ترعى، إذاً، في عبورها، ما يعرض لها من كلأِ الأرض، فتخرج القشورُ، والعيدان، والألياف في الروث بلا طَحْن، فإن أكل منه الطير غدا ذرقُهُ مائلًا إلى الصفرة. علوم شهبور، المغذَّاة بعسل السنين في

عقل أبيه القيَّاف، فيها سطورٌ من حواشي المستورات، ومكابداتٌ من إرادة النظر في خواصِّ المجهول وإشاراته. الطيور، التي تغتذي من جثثٍ إنسانية تورِّث إناثها خيالاتٍ كخيالات الإنسان. منيُّ الطائر ليس عُصارة اللذة المستحلبة من صلب كيانه، بل استطلاعُه في أحشاء الأنثى؛ استطلاعُه المروِّض للفراغ المتمرِّد على التعيين داخل المرتبة الحيوانية. فإذا تغذَّى من أشلاء آدمية اختزنَ في منيِّه نوازعَ العقل الكشَّاف، المحرِّض على ترتيب الأسباب للحقائق. والإناث، اللائي يعلق بأرحامهن منيٌّ من أخلاط العنصر الآدميِّ يتأجَّجْن فضولاً، فينتقلن مسافاتٍ قصيرة بين طيران وآخر، ثم ينزلن الأرضَ أو الأسطحة، أو الشجرَ، متفحِّصاتٍ، صائحاتٍ صاخباتٍ من دَهَشِهِنَّ لكلِّ ما يفجؤُ الخيالَ القاصرَ.

ليس في نشأة الطير خواصُّ النزوع إلى الفضول، أو التقرُّب إلى أسباب الحقائق. هو كيفيَّة ترابية بلا نَفْخٍ من الغيب المؤوِّل. بسيطٌ خالصٌ في نِسبته إلى الوجود الجوهر. مُكْتفٍ بيقينه؛ مكتَفٍ بخاصِّيَّة البرزخ فيه كحالٍ في الوسط العازل بين اليأس والأمل، حيث الرُّتبة الأكثر انعتاقاً من ربقة النوازع إلى خلودٍ مَّا. برهةٌ راهنه هي تمامُ الكونية. يأتيه الزمنُ بلا ترتيب لأنه لا يُمكِّنُ الزمنَ من الالتئام حول كيانه كوخْدةٍ. الطائرُ عقدةُ الزمن وخيبتُه المرئيةُ. يموت الطائر لأنه يأخذ الحياةَ على محمل سكونها، ويحيا لأنه يأخُذ الموتَ على محمل سكونه. إنه الثقل الأعنف في الموازين الوديعة. طيرانُهُ وديعةُ الكمال، الذي استعصى على تصريفه وعداً فأُغْدِرَ. طيرانُه هرطقةُ البرهة، ومروقُ الشَّكل. الطائر

أثرُ العَدَم في عبوره العجول من الموعد المُرَجّإِ إلى الموعد المُرَجَّإِ. وشهبورْ نظيميْ يتوخى في تفتيته الذَّرقَ بين السبابة والإبهام أن يجلو ما انغلق عليه من نِسَبِ الجهات، باحتكامه إلى القضاء الشريف في شرائع الطير المُدوَّنة مَحْواً: «هيا، كاشِفْني أيها الأثرُ الضائع»، قال بصوت الورق في شجرة لسانه، وانقبضت أحشاؤه حين بدا للعين خياله ببغاءَ الإخفاق يردِّد الصيحةَ الباردة.

عاد شهبور إلى صهوة جواده. خاض في مجرى الماء من جديد يستطلع الأرقامَ القمرية على الرمل والحصى من جانبيه. بين القمر ورمال الأنهار المترسبة على الضفاف معابثاتٌ من نوافل الحساب الفَلَكي. القمرُ يدوِّن رقماً فيضيف إليه الرمل رقماً يتحصَّل من مجموعهما نصف المسافة، التي تقطعها الريح من الأفق المرئي للبصر إلى الناظر إلى ذلك الأفق. «مقدار الإشكال» هو اسم الحاصل الحسابي. مصطلحٌ يعرفه قيّافو «الأحوال التائهة» في آثار الهاربين. الجاذبية القمرية، التي تنتظم شعاعاتُها في الأودية، والأخاديد الكبيرة، والصدوع، تبث ترتيباً في الرمل متساوياً بين الحصوات المتباعدة بالمقدار ذاته. كل حصاة في حجم حدقة الآدميّ استدارةً تغدو غارقة في سُرَّة من الرمل فلا يبين منها غير بؤبؤ. عبور الجِرْم الدافىء لإنسان، أو حيوان، يخلخل الجاذبيةَ القمرية مقدار ستة أيام، في خطّ عبوره، فينحسر الرملُ عن الحصاة حتى منتصفها. القيّافون، ذوو التحصيل الموهوب بالتأمُّل في علوم الليل ومسائل أحواله، لا يحتكمون إلى هذا الإثبات في القيافة إلاّ بعد نفاد الحيلة في التوصُّل إلى «جَبْرِ الأثر المنقطعِ». ففي أساس

المكاشفات ، التي يستودع بها عالِمُ النظر في مكنونِ القيافة ومستورها المهيبِ خلاصةَ الطبائع لدى طالبها المؤتَمَن ، أن لا يلجأ القيَّاف إلى قاعدة الجاذبية القمرية حين يسعى وراء طريد أو طريدة إلاّ في أمر واحد : أن يكون السعيُ من أجل لَجْم فتنةٍ ، أو قَطْعِ مكيدةٍ يتدبَّرهما امرؤٌ مَّا لوقيعة دموية تهتك مواثيقَ الله . هكذا تفكَّر شهبور في الأمر . ومن طباع القيَّاف العالِم ، المُحَصِّل بخياله كرامةَ النجدات الكبرى من مساررة الجماد ، أن يحفظ للطريدة حقَّ الطريدة في امتحان كفاءتها للنجاة . أبداً ثمَّت ثغرة تبقى عن عَمْدٍ في الحصار المُحْكَم للقيَّاف ، إذ لا حصار كليًّا إلاّ حصار الله . الشيطان نفسُه يجد ملجأً في شجرة الغَرْقَد ، التي تتستر عليه دون سائر النبات الواشي به . يعلم اللهُ القيَّافُ ذلك ، لكنه يحفظ للطريدة حقَّ امتحان كفاءتها ، ويجعل شجرةَ الغرقد ميثاقَ التغاضي عن عمدٍ . ليس لشهبور أن يحيد عن القانون المدبِّر لعلاقة القيَّافين بطرائد هي سياقُ وجودٍ مشمولٍ بهباتِ السرِّ الظاهرِ - سِرِّ الخلاءِ الممتلىء بالضرورات . وفي برهةٍ من مكاشفات عقله لقلبه ، وقلبه لجوارحه ، وجوارحه للفراغ المحيط بأعشَاس المُمكن وحواصل المعنى ، لوى عنق جواده خارجاً به من المجرى إلى سفح الأخدود ، وصعده حتى أدرك الرجالَ السائرين على ضفته بجيادهم من وراء العربة ذات المقطورتين . تلقاه زاده عسى يروي الكمأةَ المريرةَ في رمل كبده خبرٌ بليل . جاور الجوادُ الجوادَ ، واهتزت ذؤابات الوشاحين المعقودين على استدارَتَيْ رأسيْ الرجلين . وشاحان زُوِّقا برسوم سحالي حقول اليقطين ، بين متوازيات من غصون العفص بلون أصفر مخضرٍّ . هما أقل

تزويقاً مما في أوشِحَة النساء المعهودة في أنحاء همدان، وبحيرة أرومية، لكنهما محفوفان بشراريب صغيرة تنسدل على جباه الرجال وآذانهم. «قُلْ لي» نطقت شجرةُ لسان شهبور؛ «قُل لي يا زاده، أيقع هؤلاء الخمسة، الذين نطاردهم، في حُكْم ما يقع على أوصياء الفتنة؟».

تجردت عينا زادهْ من لهفتهما. حوَّمت في خاطره ذبابةُ القتل: «عمَّ تسألني أنتَ؟»، قال بشفتين تطحنان الهواء. ردَّ شهبور:

- أردتُ أن أستعلم عن خطورتهم على الله.

«على الله؟»، تمتم زادهْ مستعجباً. شدَّ رسنَ الجواد إلى صدره حتى أحنى رقبته: «أأنت تَسْتخبرني في شأنٍ يخصُّ الإفتاء يا شهبور؟»، وتطلع من حوله إلى الرجال طائشَ العينين، مبتسماً في سأم: «كنتُ جئتُ بفقيه معي يشرح الآيات وليس بقيَّاف يا شهبور. هؤلاء الخمسة...»، وتردَّد قليلاً، مستدركاً: «أعرف اثنين منهم. نَسْلٌ من سلالة الجنِّ. الكُرْد من نَسْل الجنِّ. هم يدَّعون ذلك. سنأخذ منهم حقيقةَ ما يخصُّنا نحن الآدميين، ونعيدهم، بعد ذلك، إلى حقيقتهم. ألا ترى ما فعلوا؟ لقد أخذتْهم الحميةُ، بتحريض من خنازير الصقالبة، فاستهتروا بأملاك الإنسان»، وقرب رأسَهُ من شهبور: «ألستُ فقيهاً؟ فَلْنُرجعْ هؤلاء الكُرْدَ خفيِّيْنَ».

«لم أفهم» قال شهبور باستسلام، فاحتدم زاده:

- ما حاجتُك إلى أن تفهمني؟ جِئْ لي بغالاً خمسة عليها آدميون خمسة، بينهم شريف رندو وزينو ميڤان. لا تحاول أن تفهمني. أعطِني آثارَهم. ضَعْها في راحتي هذه.

نظر شهبور إلى يد زاده الممدودة إليه باستخفاف. كلَّم جوادَه بإشارة الإنسان الصامتة من عقب قدمه، فانحدر الجواد عائداً من حافة الأخدود إلى سطر الماء المدوَّن بفضَّة الحياة. خاض شهبور في المجرى ثانية، يقلِّب الحصى بعينيه، على الجهتين. سبعة آلاف عذراء عبرن في النسيم الرطب شفيفات الجسوم كلؤلؤة الأزل الأولى. تشمَّم شهبورُ حنَّاء أقدامهن بخَطْم خياله. سِرْبٌ شُهبٌ عذراواتٌ قادهنَّ عِتاق الجنِّ من ضفاف الأنهار، في أقاليم أوروبا، إلى مملكة سليمان. ولمَّا بلَغهم موتُ الملكِ مُحَلِّمِ الطير تزوج عِتاقُ الجنِّ أولاء العذراوات، اللواتي اختطفوهن لمتعة السيد، فأنجبْنَ الكُردَ. كذا استقرَّ المعنى على نِصَابه الجَسُور من الحكاية. نسلُ الجنِّ، هؤلاء. ذئاب الجبال، وعزيف الريح في شِعاب الحجر. أهل اللؤلؤة المستقرَّة على ظهر الطائر المحلِّق منذ تسعمائة ألف عام. خُلِقت اللؤلؤة أولاً فحدَّق الكُردُ من زجاجها في الكينونة ذات الأهداب الدموية. وها هو شهبور يحدِّق، بدوره، في اللؤلؤة المشروخة كي يلتقط الوميضَ ذا القرون المائية راكضاً كوعل على صفحة الآثار. «أراها» تمتم لنَفْسه. أوقفَ الجوادَ. نزع العمامةَ الموشومة برسوم السحالي عن رأسه في حنَقٍ متبوعٍ بزفير المخدوع. «لم يسلكوا مجرى الماء في هذا الاتجاه»، قال لجواده، ثم صرخ بلسانٍ مرير: «خُدعتُ. فلنرجعْ»، ولوَّح بالعمامة للقافلة فتجمدت القافلة، ورانَ العبثُ شامتاً.

أعاد شهبور ترتيب الجهات بآلة النداء الخفيِّ. رجع هو والآخرون إلى حيث ابتدأت آثار بغال الهاربين الخمسة تنحدر إلى مسيل الماء، من سفح وادي كوشير. أكد القيَّاف،

بكلمات الحقيقة المستنْطَقَة يومين ونصف اليوم ، أن الهاربين تحسَّبوا لمطارديهم ، فسلكوا مجرى الماء عائدين على أعقابهم . تركوا آثاراً تقود إلى الشمال ، ورجعوا في مسيل الماء عكسِ آثارهم ، ليخرجوا من جنبات الوادي جنوباً . زأر أسدُ المُشخِّصِ العارف في حرْش أعماقه ، وسلك البدرُ فَلَكَ الخيال إلى الكَشْف ، أُضيئت الطرائدُ في الأطلس : « ها هم » ، نَطقت شجرةُ لسانه ، ونزل عن الجواد فوضع راحته على الرمل الثرثار . رفع حفنةً منه إلى أنفه يتشمم أعمارَ البغال وأثقالَها . تمدَّد على الأرض ، وتكوَّر : « سأنام قليلاً » ، قال القيَّاف للرجال المبتسمين أخيراً .

لثلاثة أيام ظلَّ زاده متحيِّراً في سلوك الخمسة الهاربين من الشمال إلى الجنوب الغربي : « أهم يقصدون مكَّةَ ليحميهم ربُّ إسمعيل ؟ سيضيعون في رمال العرب الأتراك » ، قال لأخويه مراراً ، فأصلح الترجمان زاهدانْ نوري شروخَ علومه : « انحسر الترك عن تلك الأنحاء عائدين إلى ما وراء منابع الأنهار ، يا زاده . الإنكليز ، والفرنسيون انحسروا بدورهم . هذه إرض الممالح ، والينابيع الغائرة تحت سكك القطارات » . وقد عرض لقافلة الإيرانيين ، في نواحي القرى المتناثرة بين الزاب الصغير ، والزاب الكبير ، أزواج من الدَّرك الخيَّالة ، المتنقلين اثنين اثنين ، فأبعدهم زاهدان عن المساءلة الطويلة في أمرهم ، بالعربية اللَّينة على لسانه ، وهو يخفنُ لهم من التبغ الأحمر القوي ما يملأ قبعاتهم ، فينصرف الدَّرك شاكرين . والقافلة بدت ، على أية حال ، لا تثير الشبهات الكبيرة بالواحد والعشرين راكباً ، تتقدمهم عربة ذات مقطورتين . فالمهرِّبون لا يزيدون عن الستة عادة ، ولا

يستخدمون العربات لصعوبة الفرار بها. كما أن جمعاً مثل أولئك، فيهم الرجال لا غير، مشهد معهود في المواسم الخريفية، إذا تأخر نضوج القطن في حينه وانحسر الصيف بلا حصاد مكتمل. حقول كثيرة تنتظر الأيدي إذا أبكرت الأمطار، وحقول كثيرة تنتظر الحرْث لإعادة التراب إلى جدارته في تغذية الظلام ذي البذور. كما أن القافلة نفسها تجنبت الدَّساكر، والكُوَر، معرِّجة بين حين وآخر على بيوت الرعاة المسوَّرة بالطين، تُسائل عن أحوال غرباء سبقوهم، وتقايض الجبنَ بالتبغ، الذي حمل منه زاده، بحكمة المشورة من عقل شهبور القيَّاف، كيسين تُقصِّر عن تطويق الواحد منهما ذراعا رجل: «التبغ زادُ الهائم. يصدُّ دخانُه الهمَّ عن العبور في الشرايين إلى القلب، ويرقِّق الغمَّ». والأرجح أن شهبورْ قيَّد على نَفْسه معانيِ اللسانِ المسكون - لسانِ الأمثال، التي هي افتتان العقلِ الآمن باختزال الوسائط إلى التجربة وامتحانها. الأمثال أمانٌ من فجاءةِ المُحيِّر، وانطباقاتُ أخيلةٍ على أخيلة، واستنساخُ الحياة في تعريفٍ واحد، وإطاحةُ التعميم بالتخصيص. الأمثال مثابرة الفكر على تبجيل ما أقامه على نَفْسه من غيبوبة، وهي دوام النظر إلى جسامة الأعراض الكبرى للماهيات بخفَّة التوسل إلى خلود المعنى. «الناس إما في غمٍّ لِمَا أصابهم، أو في همٍّ مما سيصيبهم. والذين هم في الوسط، بين هذا وذاك، سينتسبون - لاحقاً - إلى الغمِّ أو الهمِّ». هذا ما قدَّره لسانُ شهبور، المتفرعُ عن غصون السلالة، للكائن الناطق، الذي تبارى زاده وصحبه، من سأمهم في البرِّية، في تحديدِ مسكوكٍ لفظيٍّ لخاصيَّته، على وجه الفكاهة:

– الإنسان حيوان ناطق.

– أخرجتَ المَثَل من جيب أبيك. بل هو حيوان عمودي.

– عموديٌّ؟. لا. الإنسان حيوان مغلوب على حيوانيته.

– أتقرأ؟. أنت لا تعرف القراءة. ما تقوله بلا سند. والأرجح أن الإنسان حيوان منافق.

– جميل. حيوان منافق. الإنسان نَحْتٌ حيوانيٌّ.

– نَحْت؟. كيف خطر لك النحت يا ابن إسرافيل؟ الإنسان حيوان بجلْدٍ من نصائح أبيه.

– بل بجُبَّة. الجبَّة أفضل من الجلْد. الإنسان حيوان النكاح الدائم.

– الإنسان حيوان يتعثَّر، أبداً، بكونه إنساناً.

حدَّق الراكبون في زاهدان. خمَّنوا بعقل الجهالة الرقيقة، والعلم الرقيق، أن ما قاله الرجل يجاوز قليلاً مَدَارِكَ ألسنتهم المقصِّرة عن تدبير الكوامن. قرع شهبور، الذي ترجَّل عن جواده، حجراً بحجر فأورى شرارةً بيضاء. تشمَّم الدخانَ اللامرئي، وعاد إلى صهوة جواده. ابتسم لمارد العبث خلف خياله: «هؤلاء تاهوا عن اختيار الجهة التي يريدون. كان عليهم سلوك السفح الجنوبي الغربي لجبل زاغروس إلى بحيرة وانْ، ومنها إلى عشائر أسلافهم في ديارْ بكرْ». مشى بجواده بين كائن الهواء: «إنهم يتوجَّهون إلى موئل طيور القَبَج».

قصدت قافلة الإيرانيين قبابَ الفَلَك الجنوبي المرسومة معكوسةً على ضباب الأنهار، ثم انحدرت من تخوم فيش خابور إلى مراعي سهول الجزيرة، الممتدة لساناً من فروع

الخابور الأمّ بين القرى الكردية والأشورية إلى سفوح سنجار الشمالية بأرض العراق. وفي البرزخ المتعيِّن من مجابهات النقائض، حيث يتعذَّر على قلب الآدميّ أن يهتدي بإشارات الوجود إلى طباع الوجود، التقى مانوساروخان ورفيقه جكرو عمشة، رسولا كريم بيرخان إلى مجاهل الأغاني، بالقافلة، في عراء زيروك الأصفر. تنحَّيا بجواديهما وبغليهما قليلاً عن الممرِّ الممتدّ سيفاً من الحجر الرمليّ. مرت بهما العربة ذات المقطورتين أولاً، فحياهما راكباها برأسيهما، ثم تقدم من خلفها الحشد على تسعة عشر حصاناً. كادت دواب الراكبيْنَ تلامس بجنباتها دوابَّ الرسوليْنِ. عَرَقُ الجياد قويٌّ يأسرُ الهواءَ وينثره مالحاً فوق صحن الخريف. السنابكُ تقرع العماءَ المتهدِّل مرئياً في الحجر. تلاطمت الكثافاتُ وتناجت أسرارُها. حيَّا زاهدان نوري الرجلين بالكردية، فردا التحية. شملهما زاده بنظرة جانبية. سحقت غيمةٌ غيمةً في السماء. ابتعد الرجلان شمالاً عن القافلة المنحدرة جنوباً. لوى جكرو عمشة عنقه إلى الوراء: «إنهم يحملون بنادق في لفائف جلدٍ لصق أفخاذهم»، قال. لم يعلِّق مانو. كان أقلَّ حماسة من أن يتوجَّه إلى نواحي بحر قزوين ليجمع الأغاني. رازَ بخياله الأمكنةَ. وضع قلبه في موضع الوقت، وانسحب بجسده إلى المتاهة الساحرة للشِّعر المُلْغِز يلقيه على نفسه بصوت عالٍ: «الدرجات العشرون للكمال هي الدرجات السبع في الأشياء الأخرى». توقف بجواده. حدَّق في عيني جكرو المتلألئتين بالشهوة إلى كل شيء: «قُلْ لي، أليس الأفضل أن نتجه صوب بَتْلِيس؟ إذا كان كتاب «كمائن وتضاعيف» ولد بأرضها، فالأرجح أن فيها ينابيع من أشعار الأغاني أيضاً.

وهي أقرَب. انظرْ»، ومدَّ ساعده على استقامته إلى المرآة الرمادية للأفق المطحون.

«أستطيع الوصول إلى بتليس مغمض العينين. اسألني، فحسب، أين تريد أن نمضي. أعرف الطرق إلى ما وراء الجحيم»، قال جكرو.

«إلى بتليس، إذاً»، تمتم مانو.

كانت باردة نسائم الممرات في سفوح جبل الجودي، ذي الأشرعة الحجرية المنشورة على قلوع الطوفان الأول. من القمم المزينة بأصداف القرون، وقواقعها، ومحاراتها، نزلت حيواناتُ نوح إلى إقليم بوطان - رئةِ الكرد اليمنى. الينابيعُ، صقورُ الأنهار الحاضنةُ بيضَ الغيوم وفراخَها، تزدحم بها الأعشاش الحجرية، والسماءُ تهذي على سرير من أنصال الصنوبر الوبريِّ، والبلوط، والشربين العابق برائحة القطران. تسع قرى، متراصفة على مساطب كالأدراج، عَرَضتْ للرجلين المعمَّمين بكوفيَّتيهما. مَكَثا ليلة في مسجد، وليلة في طاحونة سرد عليهما صاحبها الطحَّان، الأعزب الكهل، وقائع فراره من أرض قونيه، حين كاد أهله أن يرغموه على الزواج من زوجة أخيه المتوفى، التي تكبره بعشرين سنة. وختم سيرة الهرب بالإشارة إلى أتانه البيضاء الضخمة: «تزوجت هذه أخيراً، ورُزقت بثلاثين طفلاً يعملون في الترجمة عند أخت الرئيس المُبجَّل الراحل، ذنب الجمهورية»، وضحك، فلم يفقه الرجلان مغزى الفكاهة على أي وجه.

فتحت لهما الممرَّات، المتشعبة في رئة الجودي، خزائنَ الأحراش من قرى جَزْري إلى شيرناك. صادفا رعاةً لا

يتحدثون الكردية فغذَّيا السير: «واحدة من بنات خالات أبي تعيش في هذه الأنحاء. زارنا ابن لها مرة قبل أربع سنين. ما اسمه؟ ها؟»، قال جكرو، وعضَّ بأسنانه السفلى على شاربه. قلَّب الصفحات اللامرئية لكتاب الجهات. تمتم «سُوْرَا». وضع يده على صدره: «اسم القرية سورا، واسم ابن خالة أبي جِكْجِكَان. كيف أنسى اسماً كهذا؟». ابتسم: «لَقَبُه لقبُ أكثر الطيور حذراً. جكجكان». وقد عثرا، من السفح الأقل انحداراً، عند التقاء غابة الحور العارية بفرع من دجلةِ منابعِ الشمال، على الهضبة الصغيرة، المنفصلة، المرصودة برسم حجريٍّ أبيض لرأس الذئب الأغبر. تلك علامة وجود سورا مرتمية من أثداء الظلال الداكنة على صدر الوادي ذي المرآة المائية. انحدر الرجلان بدوابهما إلى الجسر المتمدِّد على عضل الهواء القوسيِّ، وسلكا - بعد ذلك - في المرتقى الخفيف إلى ساحة القرية، التي لم يرها جكرو من قبل، قط، لكنه حفظ وصفاً لها مشفوعاً بأخبار عن طاحونة الهواء الكبيرة في وسطها، ومسلخ للضفادع النهرية. وقد بدا كل شيء على صورته المنحدرة من الخيال إلى التعيين الحاصل، مرتَّباً في خزانةِ جهته. «أين شجرة الدردار؟»، همس جكرو لنفسه. تقرَّى ببصره مراتبَ الحياة الخضراء، المتشعبةَ الغصون أمام الأبواب. تاهت البرهةُ في حساب الشجر. خرج صِبْيةٌ من شقوق الهواء وجيوبه يتفرَّسون، بأفواه مفتوحة، في غمامة القَدَر الخفيفة، التي تسوق رجلين وأربع دواب إلى كهف سورا المفتوح. ترجل جكرو فترجل صاحبه. قادا جواديهما من العنانين برهافة الغريب، التي ترقِّق على جسده كثافةَ كيانه فيغدو ملحوظاً

بخيال الآخر، لا ببصره. كل غريب يَحْذَرُ من نفسه أولاً، حين يقربُ العتبةَ التي تُحيلُه غريباً. وجودُه لا يماثل، في خواصه كجسم مرئيٍّ، وجودَ المُستأْنَس. هو يسعى إلى ذلك بغريزة الفروق الموهوبة إلى الكثافات الحيَّة؛ هو يقيم الحدودَ الضرورية حسًّا وشعوراً في حيِّزه المنساق إليه، فينفصل عن طبيعة السياق الأنيس للحضور. يكون الغريب غريباً لأنه يلتزمُ شرعَ انفصاله عن الحضورات المسكونة بجواذب المستأنسيْن، كي يحفظ لنفْسِه تدبيرَ صوغ ممتلىء بعافية مُمكناته ككائن ذي حقوق في الكثافة، وفي الخيال، وفي الحركة، وفي المُجاورة. الغريبُ يقينٌ مُرَجّأٌ حتى موعد الإتفاق بينه وبين مُسْتَغْرِبِهِ على الإشتراك في نداءِ المشيئة. هكذا تقدَّم الرجلان، والدواب الأربع، في ساحة سورا المطوَّقة بعيونٍ خرجت إلى الأبواب تستطلع صخبَ الصِّبْية، فيما تتبَّع فوجُ حَمَامٍ لجوج خطواتهم، يكاد ينقر الأقدامَ، مستعجلاً أن يحظى من الكائنات العجماء بروثٍ دافىء يلتقط فيه رواسبَ لم تَنطحن أو تذوب.

تقدم شيخ من الرجلين بيدين معقودتين خلف ظهره. سلَّم تسليم المُستعرضِ حدودَ الأشكال، وعَرَض عليهما العونَ بلغة عينيه اليقظتين. استأنسا إلى ترحيبه الصامت: «نبحث عن بيت جكجكان عَلُوْ، ابن خالة أبي حوليا مراد». مدَّ الشيخ يده العجفاء مصافحاً: «أأنتما قريبا جكجكان؟». عبر الحمامُ بين أقدامهم. دفع الصِّبيَةُ بعضهم بعضاً في عراك خشن، فانتهرَهُم مانوساروخان بطبعِ الحافظِ لسياق السكينة حين يلقِّن الأولادَ حروبَ الإعراب على جبهات علومه. تفرَّس فيهم فتهيَّبوا عينيِّ المروِّض المؤدِّب. ابتعدوا قليلاً

ليستعيدوا حقيقتهم كحرسٍ للحرائق المحتجبة في غلالات الظاهر. «ها هو البيت»، قال الرجل الشيخ، الذي قادهم متمهلاً: سور حجري واطىء، متهدم في بعض أنحائه. بيت عال، من طبقتين عليهما سلَّم خشبي عريض. زريبة مسقوفة. شجرة دردار ضخمة بجذع تهالك نصف أغصانه على الأرض، كأنما شطره سيف. النصف المتهالك أخضر لم يمت. بقي بجزء منه متصلاً بأُمِّه يغتذي منها، لكنه صار عائقاً بارتمائه ذاك، الذي شرح جكجكان لجكرو، فيما بعد، حكمةَ إبقائه هكذا: «يصعده الدجاج بيُسر لينام على الشجرة صيفاً».

لم يكن جكجكان ليشبه اسمه. ضخم مرح في عقده الخامس. بطيء الحركة قليلاً، كسول العينين. أرسلت زوجته هَرْفا أحد أبنائها يستدعي أباه حين قدَّم لها جكرو نفسه. لطمت على صدرها من المفاجأة كأنما توبِّخ نفسها على تقصير، وألقت بصرها على الساحة تحدِّد ضحايا من الدجاج، سلفاً، لوليمة ينبغي أن تتدبَّرها في خريف سورا، المشمول أبداً بعناية حساء العدس القوية. خريف بارد قليلاً بانزلاق الهواء البلوري من جنبات الجودي، لكن له رائحة لم يعهدها الرجلان من قبل. قادا دوابهما، بنفسيهما صوب الزريبة، متبوعيْن باعتذارات إضافية من هَرْفا، التي ضاعفت رحمُها السخيَّةُ من عمرها فبدت أكبر من جكجكان. ثمانية أولاد. أربعة ذكور وأربع إناث هم هِبَةُ كيانها إلى الضرورة الجالسة على عتبة البقاء. ولمَّا حضر زوجها نصف مهرول، في قبعته المضلَّعة الحواف، ووشاحه الملتف على رقبته، وشرواله، الذي بدا مضحكاً لعيون الرجلين، ويَّخته المرأة

على نحوٍ غامض. فتح الرجل ذراعيه معتذراً منها ومنهما معاً. سكب لسانُه اللومَ على نَفْسه: «كان عليَّ أن أتنشَّق، بكرامة الصباح في سورا، رائحةَ سيدروك»، واحتضن جكرو مقبِّلاً، ثم صافح مانو ساروخان بيدٍ، وشدَّ على عضده سخاءً في الترحيب: «هذه الضفادع باتت تموِّه على أنفي رائحةَ الكرامات»، أضاف. وقد اقتضى المساءُ، وبعضَ الليل استفاضةُ الرجل البطيء الحركة كي يشرح أمرَ مسلخ الضفادع لضيفيه، في الحلقة المكتملة من أولاده، الذين ينضم الإناث منهم إليه في مشغله، فيما يخرج الذكور، إلا الصغيرَ، مع رعاة الماعز إلى الحواف الجبلية، ما وراء الرسم المرصود بالحجر لرأس الذئب الأغبر، على امتداد عشرات الأمتار.

تخرج نساء سورا بالفوانيس، ليلاً، إلى النهر. ينصبن شِباكاً في فواصل بين القصب المائي، على عمقٍ ضحضاح. يتوزَّعن على حواف النهر في أنصاف حلقاتٍ، خائضاتٍ فيه بأحذيتهن المطاط الطويلة الأعناق حتى ما فوق الرُّكَب. يتقدَّمن صوب الشِّباك وقد طوَّقن حجافلَ من الضفادع السمينة. يضربن براحاتهنّ صفحة الماء صفْعاً قوياً، مصحوباً بالزغاريد الفكهة، والولولات من غير أسىً. تتطاير الضفادع هاربةً إلى نشورها الغامض في نداء التَّافور، الذي يرفعه ملاكُ التَّرف من جهات المدن الكبرى، الغارقة في دسائس الطّهاة وتوابلهم. تمتلىء الشِّباك، فتُفرَّغ في أكياس القنَّب، وتُغلق عليها بالحبال الرقيقة. كل ضفدع سيقضي ليلة في زحام الكيس حتى الصباح، بلا نقيق، بلا حلم، بلا احتكامٍ إلى مَلَكَة البوَّاق في طبعه الصاخب، بلا دفاعٍ عن جدارة بَوْلِهِ في توريث الثؤلول إذا مسَّهُ الآدمي. ضفدع النهر لا

يُحذَر: هكذا جرَّدته نساء سورا من الرهبة التي لأخيه ضفدع البرِّ، حاملِ غُدَّة السمِّ في رأسه - سمِّ الفَتْكةِ الأشدِّ إذ يصفها النطاسيون للملوك كي يسقوها أشقاءهم فتنشَلُّ أطرافهم وألسنتهم، في حروب الاستئثار بالعروش.

أصغى جكرو، ومانو، إلى الصوت المزدحم بألسنة الغمامات - صوتِ جكجكان المتأني في رَسْم الأطياف على بلَّورة علومهما: في الفجر تحمل النساءُ الأكياس إلى المسلخ المستطيل، ذي السقف العالي، حيث يسبقهنَّ جكجكان وبناته، اللواتي يهيئن المقصات الكبيرة الرهيفة، ويملأن الحوضَ الحجري، المُمَلَّسَ الجنبات والقاع بملاطٍ جيريٍّ، بالماء. توضع الأكياس، واحداً بعد آخر، فوق المنضدة الخشبية المستطيلة، وسط المسلخ، ثم تُستخرج الضفادع فرداً فرداً. تنفتح أشداقُ المقصَّاتِ وتنغلق خَطْفاً في أيدي البنات على المواضع الرقيقة من جسد الضفدع، في الخيط اللامرئي لاتصال البطن بالفخذين. يُرمى الجزء العلوي من الجسد المشطور في صندوق يذهب إلى المزبلة، فيما تستقرّ الفخذان في حوض الماء. حين ينتهي الشطر الأول من مهمة الاستئثار بالأفخاذ الممتلئة، السمينة، الرَّخْصة بلا دسم، تُنْتشلُ من حوض الماء وتُسلخ بالأنامل في يُسر، بعد قطع الأقدام ذوات الأغشية، وتُراكم في صناديق أخرى أكثر نظافة، في جوانبها وقيعانها ثقوب كثيرة. تُغمر الصناديق في ماء الحوض المتجدِّد، وترفَع، زيادةً في غسل اللحم الأبيض الشفيع. الأفخاذ الملساء، البضَّة، تنحدر، بعد ذلك، إلى أجواف البراميل المستديرة، المخصوصة لدبس العنب. ثلاثة براميل، لا أكثر، تلك هي

طاقة مسلخ جكجكان. تُملَّح الأفخاذُ في برميلين منهما، ويُغمر الثالث بالخلِّ الأبيضِ - عَرَقِ الحصرم المنعقد في ختام أسبوعه الثاني. كل يوم ثلاثة براميل، اثنان مملَّحان يوماً، واثنان مغموران بالخل في الذي يليه، والثالث في مرتبته المخالفة لشقيقيه إمَّا منتسباً إلى الخل، أو إلى الملح، الحافظيْن لمقاليد الصيرورات، ومنادمة الخواصِّ المتشبثة بالزوال الخالد.

في الظهيرة، تحديداً، ينبغي أن تكون الصناديق جاهزة، مختومة بأغطيتها المشمَّعة الحواف، كي تنتقل إلى هيكل المركبة الآلية ذات الأنين، المكشوفة الظهر إلا حجرة السائق المفلطحة، الغبراء، المطعونة الصفيح الأسْود برماح الطرق المُمتحِنَة. من سورا تصل البراميل، بعد ساعات، إلى بلدة سيرته، ومن هناك يحملها قطار الشحن ذو المقطورات التسع إلى بتليس، حيث يُعاد غسل الأفخاذ من الملح والخلِّ، وتُستعرَض على موازين البصر واللَّمْس، التي تخصَّص فيها شُفعاء الموائد المدلَّلة تحت شموس الذَّوق المُنْتَخَب. الأفخاذ الأكثر امتلاء تُنتقى لمطاعم أنقرة، والأقل امتلاءً لمطاعم سمسون، وقيساريه، والضعيفة لمطاعم بتليس نفسها. يجري توزيعها على صناديق غير عميقة، مغمورة بطحين الثلج، أو عميقة محمولة على ألواح الجليد إذا كانت وجهتُها أبعد، حيث ينتظرها مروِّضو الطعوم بآداب النبيذ الأبيض، وفِقْهِ فُطر الغابات الأحمر، ومِرَاسِ خلِّ التفاح المشوب بالثوم. أفخاذ ضفادع تتقلَّب في وَلَهٍ تحت حلم الزبدة الصفراء والكزبرة، أو تنام في غطاء من الطحين الذهبيِّ بعد قَلْيِه في مقادير متجانسة من زيت الزيتون، وبزر عبَّاد

الشمس، والسمسم، خُفِقَ فيها دهنُ اللوز خَفْقاً على نار أُغمي عليها شوقاً.

بالقَدْر ذاته، الذي أصغى جكرو، ومانو، إلى جكجكان مستغرقين في الشرارات المعروضة على خياليهما من حديثه عن رحلة الضفادع، أصغى جكجكان إليهما يقلِّبان الأخبار عن قصدهما إلى بتليس لجمع أشعار الأغاني. كان المعنى صغيراً على فهمه، لا يتناسب مع مشقة ترويع القلب بمجاهيل الأسفار وراء كلام يطحنه المغنون: «لا أعتقد أنهم يحتاجون إلى كلمات. المغنون لايحتاجونها. هي تأتي عفو الخاطر إلى الصوت لتنطحن. أنا، نفسي، أستطيع الغناء بعد ثلاث كؤوس من عَرَق العنب»، هكذا خفَّف جكجكان عليهما ثقلَ الكشوف المُرجَّأة. بوغت جكرو:

- أتشرب العَرَق؟

«عشاء بلا عَرَق هو نكاح بقرة في النوم»، ردَّ جكجكان، فانكمش مانو حياءً.

«أكلنا ولم تشرب غير الماء؟»، سأله جكرو، فأغمض الرجل الذي يحمل اسمه صورة طائر الحذر عينيه مبتسماً: «لم أردْ إقحام العَرَق في عشائكما اليوم. نبدأ غداً».

نظر أحدهما إلى الآخر متهيباً من عاصفة الغد في الكأس البيضاء. طوَّق جكجكان الفراغَ الحائرَ في الحلقة الآدمية، حين صمت الضيفان: «كيف عبرتما دوريات الشرطة إلى سورا؟».

اختضَّ عِرْقا الرهبة في صدغيهما. وَجَما قليلاً. نطق جكرو: «لم نفكِّر بها. ما لا نفكِّر به لا يكون موجوداً»، قال

يُضفي شيئاً من الدعابة إلى الرَّهبة التي فاجأته.

« إنهم يملأون، بخيَّالة الشرطة، إقليم النهر بين سيرته ونصيبين، وديار بكر»، قال جكجكان، فاسترسل جكرو في التفكّه: « تتبَّعتُ خيالي الذي لم تدخله الدوريات بعد».

عرض سهمٌ من الريش لخاطر جكجكان؛ سهمٌ ينبِّه الفكرَ إلى أمرٍ سَها عنه: « دونكم وتبليسَ مشقاتٌ. لدى ابن الآغا صَفْوَت مِيْرسِيْن دفاترُ أشعار. وهو يحبُّ المغنِّيْن. آخذكما غداً إلى دارته. ماذا تقولان؟».

نظر جكرو إلى مانو بعينيِّ الوَشَق القنَّاص، فأدرك معلِّم مدرسة سيدروك أن الخيار خياره. ولِمَ لا؟. لربما اختزلا رحلةً لا تستدعي الإسرافَ في اهداء الحدائق إلى صوت علي فاركو، ابن الأعمى ذي الخيال العابس. ولمَّا حضر الثلاثةُ مجلسَ نديم، ابن الآغا صفوت ميرسين، الذي يقيم مع عشيقته الألمانية تابيا في أزمير، أدرك مانو أنه سلكَ طريقَ الجنِّ إلى واحات البلُّور. « أتبحثان عن أشعار للأغاني؟ سأجعلكما تكتبانها على الورق الذي معكما، وعلى بطانة ثيابكما، وحوافر دوابكما، وأرغفة الخبز التي ستأكلان في عودتكما، وعلى أجنحة الذباب الذي سيرافقكما منتشياً بدبس العنب إذا دبقت منه أصابعكما»، قال نديم البدين، وضرب فخذَه: « سطلٌ من دبس عنب الجودي، المقتطف من سفحه الغربي البارد، هو هديتي إليكما. عنب الريح الباردة يختزن الحلاوةَ في بطء، يخثرها كأنفِحَة اللبن. عصيره قليل، لكن كل حبة تعْدلُ قِطافَ عريشةٍ بأكملها. أليس كذلك يا نمر الضفادع؟»، قال، فردَّ جكجكان: « وكيف لا يا صاحب ذاكرة النمل؟».

قهقه نديم ذو الشاربين الكثيفين، الرماديين، فاهتزّ الشحم تحت لَحْيَيْه. يحب الألقاب الفَكِهةَ. صورةُ الآخر، في خياله، مقرونة بالصفات المساوية لمهنته أو طباعه. ابن سلالة من آغوات الجودي، الذين نزح بهم كمال أتاتورك إلى المدن الكبيرة ليأمن انقلاباتهم عليه في الحدود الجنوبية الشرقية - بوّابة الكُرد في الكرِّ والفرِّ إلى كردستان فارس والعراق، حيث ارتدى بعضهم المعاطف الأوروبية، والقبعات، هناك. قليلون عادوا، أو عاد أبناؤهم لإدارة مزارعهم، ومراعي دساكرهم، والتجارة بمحاصيل القمح مع الولايات الوسطى، والسناجق الغربية. نديم ترك أباه في أزمير وعاد إلى سورا، وهو في نهاية ثلاثينِهِ آنذاك، مصطحباً أمه التي هجرها الآغا صفوت من أجل مرمر فخذَيْ تابيا الألمانية، ذات الفرج الأشقر كالليرة العثمانية، بحسب لسان ابنه الثالث في سلسلة إرث الذكورة من صُلبه. نديم هو الثالث. وهبته زوجته نورا تسعة أولاد: ابنتين، وسبعةَ فحول، ألحقهم بمدارس أزمير ذاتها، في عهدة جدّهم وعمّيهم «كي يقودوا قطارات العلوم إلى قمم جبل أرارات الإحدى عشرة، وينثروا كنوزَ المغاليق على السهول شرقيِّ الأناضول»، قلبُ نديم أثيريٌّ، وروحه منصرفة، بتدبيرٍ رشيق، إلى مُقاطعات كرومه المتعدِّدة الرئات: عنبٌ يتنفَّس طباعَ السهول، وعنب يتنفَّس كوامن ضفة النهر المديدة، وعنب يتنفَّس بسالةَ السفح الجبليِّ. لكلِّ كَرْم تحت بصر نديم طَرَبٌ، وفي يده منهُ لونٌ. ضروعُ عصيرٍ تُستَحْلَب بآلات العارفين، وتُسْتَقْرَأ بالنار اللينة في أحواض الخمر بملاطيه، وديار بكر، وماردين، وأورفه. «هات يا ووريثَ أشباح دِرْسيم إبريقاً من دمع الإسكندر ذي

القرنين». هكذا ابتدأ لقاءه بضيفي جكجكان، وهو يتوجَّه بحنجرته إلى كمال رُوْفا، مراقب مَزارعه الذي يدير ستين عاملاً وعاملة في موسم القِطاف، ويلازم بيت نديم معظَمَ يومه قائماً بتوزيع المهامّ على خَدَمه الأربعة. جاء الإبريق الزلال، فقهقه جكجكان: «هذا الرجل العفيف النَّفَس واللسان يحفظ، بذاكرة النمل التي له، ما لا يحفظه العنبُ من ذاكرة السماد. سيستنطقكما الآن، فاحذرا»، قال.

تدحرجت رائحة اليانسون القوية إلى مكمن المحظورات في خيالَيْ جكرو، ومانو، فتعوَّذا بالله من طبائع العصيان. «لا تخافا. تذوَّقا قليلاً منه»، قال جكجكان، وقرَّب كأساً مازَجَها الماءُ فصار السائل حليباً. مدَّها إلى مانو فارتدَّ بصدره إلى الخلف متهيباً، فيما قرَّب جكرو الكأس من أنفه وشمها. ضحك نديم، وتجرَّع حليبَ الكَرْم، ثم أتبعَ الرَّشفةَ بملعقة من حَبِّ الرمان: «لا تقولا إنكما لا تأكلان أيضاً»، وبسط راحته يحثهما على مجابهة الصَّحْفة النحاسية الضخمة، المستديرة، المرصَّعة دائرياً بصحونٍ خزفٍ فيها خضار مقلية على أصنافها، وخضار نيئة، وشرائح من القديد المتبَّل بالفلفل الحرِّيف والسمَّاق. «لِمَ تجمعان أشعار الأغاني؟»، سألهما، ففتح جكرو ذراعيه مستسلماً: «لا تسألني أنا»، وأومأ برأسه صوب مانو.

«أريد تدوين شيء منها لأهل سيدروك»، قال مانو.

انضم خدم نديم الأربعة إلى الصَّفحة، ذلك العشاء. لم يقْربوا عَرَق العنب الأبيض، بل اكتفوا بالطعام يتناولونه راكعين من غير أن يتربَّعوا كجلساء ابن الآغا، الذين لا يبارحون الصفحةَ، عادةً، إلاَّ مخمورين قليلاً فيغادرون إلى

النوم وهم يغنُّون، في ظلام سورا، غناء الفجر المتربِّص، أبداً، بقنانص الليل التي يُخطِئُها في وثبته الأزلية: «هؤلاء، جميعاً، من دِرْسيم»، قال ابن الآغا مشيراً إلى الخَدم مبتسماً. وأردف: «كلهم ورثةُ أشباحٍ، وسلالةُ وديانٍ بلا أغوار. قلوبهم وعرة، وأنا أحبُّ ذلك»، فدمدم الأربعة بكلمات بلا حروف، لم يفهم منها جكرو، ومانو، إن كانت تأييداً، أو امتناناً، أو معابثةً علَّمهم نديم صوغَ ترياقها في أنبيق مَرَحه. علَّقَ جكجكان بصوته الكسول، المتأني: «كلَّما كانت القلوبُ مصعوقةً أحبَّها نديم أكثر. إنه من سلالة تُبهجُها المآزق».

«بدأتْ تصير رقيقاً يا نمر الضفادع. تجلياتُ كأسك تتفتَّح كزهر القُنَّبيط على لسانك»، قال نديم مهتزاً من الضحك الخافت المتسلِّل إلى شحمه. وتمطى: «هات دفتراً من الزريبة يا عثكول النَّخْل»، فنهض شاب عن المسطبة العالية، من وراء الحلقة الجالسة على بُسُط في صحن الغرفة الواسعة. اجتاز أربعة أبواب متقابلة في غُرَفٍ تفضي الواحدة إلى الأخرى. طقطقاتُ الرتاجاتِ الحديد، التي تُرْفَع بضغطٍ من الإبهام، تناهت إلى الأسماع مراتٍ أربعاً في ذهابه، ومرات أربعاً في إيابه، صاحبَتْها وشوشات خافتة كانت استفساراً من نساء بيت نديم للشَّاب عن ضيفي رجل البيت. وضع الشاب الدفتر الأحمر، الممهورَ في أعلى غلافه بختم نافرٍ، دائريٍّ، يتوسطه رأس الذئب الأغبر، في حُجْر نديم: «ستة وثمانون أغنية، بحبر الذهب على الكتَّان»، قال الرجل البدين المَرِح، وضرب على فخذه: «أكان هذا الدفتر ينتظرك يا.. سيد مانو؟ لا بدَّ أنَّ في الأمر سرًّا. لا. لا

يُمقل أن تأتي باحثاً عن أشعار للأغاني وهي ملءُ حُجْري هنا». وغطّى فمه براحته يتأمّل جكرو ومانو برهةً: «أبعد اللهُ السوء». غمس إصبعَه السبابةَ في كأسه ورشَّ بالرذاذ الهواء. «فليبتعدِ السوءُ. حين تكون المصادفة على هذا القدر من الإتّفاق تنتبه عينُ الحيلة». مدَّ الدفتَر إلى مانو، والتفت جانبياً إلى جكجكان: «أحضِرْ معكَ، غداً، لسانَ ضفدع وذرْق ديك أسود، نجعل منهما دخاناً».

«بل نحضر طنبوراً»، ردَّ جكجكان.

«وما نفعُه؟ لم يمرَّ بسورا مغنٍّ منذ زينو ميڤان»، قال نديم متنهداً.

فوجىء مانو باسم رجل تعرَّف إليه قبل مغادرة سيدروك بليلةٍ ونصفِ صباحٍ: «ميڤان، هذا، في ضيافة كريم بيرخان»، قال.

«أهو عندكم؟»، ساءله نديم متعجباً.

«نعم»، رد مانو، فيما قرَّب جكرو رأسه من صاحبه يستفسره: «أيُّهما كان ميڤان»؟ لم أتأمَّل ضيوف كريم».

«النحيل، ذو العينين الصغيرتين. الأصغر سنًّا بينهم، في اعتقادي»، رد مانو، فلم يبدُ على جكرو أنه التقط صورة الرجل المقصود.

خيطٌ رقيق من طعمٍ مُرٍّ مسَّ لسان نديم، وانفلتَ ومضٌ كئيب من فَلَك خياله: كانت تتناهى أصواتُ رعود إلى الأسماع المنصتة، في شرق الأناضول، من مساكب الروح القوية بأرض مهاباد؛ وكذلك همسُ المقايضات على طرق الشرق، ورياحه، بين الذين تقاسموا تركةَ الأمم المنهارة في خاتمة الحرب الثانية. لم يكن من أمل للقاضي محمد، بعدما فتح الشاه البهلوي لستالين ممراً إلى حدائق الذهب الأسود.

بقيت أغاني ميڤان» ، في الأرجح - هكذا خمَّن نديم بعقلِ العنب في كأسه ذات الفكرة البيضاء: «الأغنيةُ هي دولةَ ميڤان»» ، قال ، ومسح على شاربيه بظاهر يده الممتلئة. «تتذكرون أغنيته عن دِرْسيم . ها؟». عبر ببصره وجوه الخدم الأربعة ، متوقفاً عند كمال روفا : «ما مطلعها ؟: النهار الذي يجمع القشَّ والدمَ في الأودية نهارٌ يذوب غضباً. أعطني يديك أيها الجبل».

كان في نبرةِ صوت نديم ما يُحيل الفراغَ هشًّا لا يسنده إلاَّ الصمت. دقَّتِ البرهةُ المنحنية على ذاتها الصحفةَ النحاسية براحتها اللينة فترقرقَ الصدى في الكؤوس. دندن كمال روفا ، بفم مغلق: «أعطني يديك أيها الجبل». إنها أغنيةُ ميڤان عن أوديةٍ يعرفها كمال ، والخدم الأربعة. هم من دِرْسيم الجبلية ، المُمْتنَّة لظلال المتاهات ، ذات الكهوفِ الحناجرِ ، حيث تتدلى من سقوفها حجارةُ البلور عناقيدَ من بذخ اللون. هناك انبثقت أفخاذٌ من الكرد العلويين مع بزوغ الخمائر على عَذْلِ النشآت ؛ أفخاذ من عضلِ ريحٍ تحمل الهيكَل السماويَّ ، الراسي على قمم شجر الأرز. لم يروِّض أحدٌ دِرْسيم - لؤلؤةَ الوعْر الحجري: قلوبٌ على ميثاق الثلوج والأودية. عقْدٌ حرٌّ أن تتسلَّم المشيئةُ مقاليدَها من جسارة الآدميِّ في ابتكار الأنساق الحرَّة. دمٌ نورٌ في دورته. «أعطني يديك أيها الجبل» - ذُبحت دِرْسيم بالمدية التي شحذها غُوْكْ إلبْ على مبرد فكرته ، وأهداها إلى كمال أتاتورك. اللوعة تفتح يديها للجبل.

«لا ينتصر غير الكرديِّ على الكرديِّ إلاَّ بمؤازرةٍ من كرديٍّ». تلك حكمة نديم. «والمعونة هذه تصنع دولةً

لميقان» في الأغنية»، يقول ابن الآغا البدين المَرِح. غُوكْ ألبْ الكرديُّ ابن الكردي وضع كتاباً عن «مبادئ القومية التركية»، في عشرينات هذا القرن، مسكوناً بتذويب الأعراق في مطهر الفكرة كي يرجع الخَلْق، أجمعين، إلى مقام اللُّبِّ «في البطيخ الأحمر». «الكلُّ لتركيا». سهر مصطفى كمال الأغبر على سطور ألْبْ. صنَّف الحياة على مثاقيل ميزان سطور ألبْ. توعَّد الحقائقَ، المتقافزةَ كالسناجب، من أرارات حتى بحر إيجة، بسكين على الوريد استعاره من سطور ألب. ألغى ثيابَ الآخرين، ولغات الآخرين، وقوانينَ سهرِ أرواحِ الآخرين على حكاياتهم، بفواصل من سطور ألب، ثم بعثر دِرْسيم بالطائرات المملوءة وقوداً من خيال ألب. ابنة أتاتورك بالتبنّي، الهانم صبيحة غُوكْ جيْنْ، قادت بنفسها، في نهاية الثلاثينات، طائرةً ذبحتِ السماءَ بمراوحها الحديد على أكتاف الأودية، حتى سالت العظامُ والأشجارُ جداولَ إلى مصبٍّ خيانة ألب ليقين أمّه. «مراوح حديد من أوروبا»، قال نديم، وقهقه: «مراوح خضراء، صلبة، لا تشبه مراوح الشيطان اللينة، المتهدلة».

«مراوح الشيطان؟»، سأله جكرو، فردَّ نديم وهو يلكز كتف جكجكان بقبضته:

– اشرحْ له. فسِّرْ لابن سيدروك ما لم يدخل معجمَها الضعيفَ القَذِف.

«بسيط»، قال جكجكان. «خصيتاك هما مروحة الشيطان. تحرِّك بهما الهواءَ بين ردفيِّ الأنثى، في حركتك المتعاقبة عليها دفعاً وسَحْباً».

أغضى مانو حياءً. رفع جكرو حاجبيه إعجاباً ببلاغة

الكلام المارق، ثم التفت إلى صاحبه: «ألن تدوِّن شيئاً من هذا؟» فردَّ الآخر: «استحِ».

تفتحت شذرات الدفتر الأحمر بين يدي مانو. مُدوَّناتٌ بالقلم الفحم انتشر هبابُهُ على الصفحات فتضخَّمت الحروف، وتلاصقت، وانطبعت ظلالُ الأسطر، في الصفحات المتقابلة، بعضُها على بعض: «من أيِّ قرن هذه الكتابة؟»، تمتم مانو، فجحظت عينُ العبث من لسان نديم: «هي، والله، من القرن الذي ولد نصفي الأسفل فيه. أنا دوَّنت الكنوزَ المرمية على البياض بأناملي الفاتكة».

تدوين متداخل بالحرف العربي واللاتيني معاً. أنصاف متتابعة كدرج السلالم، بينها أبوابٌ تصطفقُ من رياح اللوعة. صرخاتُ ودياٍن، وسُعال غيوم. قلوب تتقشَّر كبزر اليقطين. غدرٌ كثير. أمل كثير. شكوى كثيرة. أحوال ترتدي معاطفَ من جلود الأحناش، وأخرى فراءَ ثعالب الثلوج. مجرَّات من الدمع، ونحيب خافت. ألمٌ نافرُ النقش كالوشم بالنار. أكباد ذاتُ شروخ وصدوع. رئات متقرِّحة من النداء الأسْيان. حناجر بلا أوتار، ثم السؤال الأثير ذاتُه، المُقْتَطَف من شجرة الصلصال الأولى: «إلهي، لقد امتحنتَ قلبي كثيراً».

كلما قلَّب مانو ورقة أدرك نديم أنها لم تستوقفه. انتصفَ الدفترُ وحركة يد معلِّم سيدروك على حالها. تدخل ابن الآغا أربع مرات، وهو ينقر بسبابته على فراغاتِ الفحم وهبابه: «هنا بُغيتُك. ثِقْ باللوعة هذه»، فلم يثق مانو بالحروف. أطبقَ الدفتَر: «هلاَّ أخذتُهُ معي إلى بيت السيد جكجكان؟ أسهرُ عليه، وأنسخ ما أراه مناسباً»، قال، فتجرَّع نديم نصفَ كأسه برشفة واحدة: «بالطبع. لكنني لا أراك تعثر على شيء».

« أنا لديَّ أغنيتان، أو ثلاث. أسْمَعْتُك منها إذا شئتَ »، قال رجل لم ينتبه إليه مانو من قبل إلاَّ لحْظَاً. شيخ من وراء الحلقة، التي تفسَّخت قليلاً بانفضاض البعض عن الصَّحفة النحاسية، مستند بظهره إلى المسطبة، غارقُ الوجه في دخان لفافته - هو الذي تحدث بصوت الشرخ الظاهر في لوحِ سنينه. التفتت إليه الوجوه بعلامات فضولها. ضحك نديم: « أنت لا تشرب دمعَ العنف يا قاوون، فهل أسكرتْكَ الرائحةُ ؟ ».

لم يأبه الشيخ برنين الدعابة المُسْتَخِفَّة، أسْند رقبتَه إلى حافة المسطبة كأنما يُعيْن خيالَهُ على الثَّبات. حدَّق في السقف، أبْعَدَ من مراتب المرئيِّ، وجذب وترَ الصوتِ الثالثَ بأنامل يقينه ثم تركَهُ فرنَّ رنيناً مشدوخاً:

« لا تصعدي السطحَ كي تري موكبَ الزفاف.
سينزف قلبُكِ طويلاً، يا زيْرو، وأنت ترينَ
الذي دوَّخ جدائلَك بأنفاسه يلهو على سرير سواكِ ».

رمى نديم صدرَ الشيخ بكسرة خبز صغيرة، في مَرَحٍ: « فلتأتِ صاحبتك زيرو إليَّ لأجعلها تنزف، طويلاً، من مكان آخر غير قلبها فتنسى »، قال من تحت شاربين التمعا من بَلَلِ الزيت في الطعام المقلي.

حمل مانو الدفترَ الأحمر، ذا العاصفة الفحمية، إلى سريره، تلك الليلة، في بيت جكجكان، الذي أنْزلَ ضيفيه غرفةً لها مقام المؤانسة بين الغرف. أسند ظهره إلى الحائط، متغطياً باللحاف حتى صدره، مائلاً قليلاً ليحظى بسقوط الشعاع الذهبي من السراج العالي على مدفن الحروف بين يديه: « أنمت يا جكرو؟ »، قال معلم سيدروك، فانقلب الدليل على جنبه الأيسر في الفراش: « لا. ليس بعد »، ردَّ

بعينين مطبقتين.

«اسمعْ»، قال مانو: «سينفجر بظرُها صراخاً. ستنفجر حلمتا ثدييها. سترتشِفُكَ مع المنيّ حتى يخشخش جِلدُكَ الفارغ إذا مسّكَ الهواء. لا تستسلم كثيراً للهب لحمها. أولِجْهُ فيها مرةً، وفي طاسة الماء الباردة مرة أخرى». هزّ رأسَهُ يُبعد الصور الحائمةَ كالذباب عن فالوذج خياله. «أتسمع؟»، قال، وحوّل بصره عن الدفتر إلى جكرو، الذي اتّكأ على مرفقه مفتوح الفم والعينين.

«هذه أشعار ينعقد منها لسان الأعمى جميل فاركو نفسه»، تمتم مانو.

«دوِّنْها يا رجل»، قال جكرو، وأشعل لفافةَ تبغ من هشيم نعاسه: «نديم، هذا، داعرٌ مُرفَّه».

«أظنُّ هذا الشعر للتسلية والتسرية، والمؤانسة إذا أثقلَ عليهم شرابهم»، ردَّ مانو، فيما استحثه جكرو وقد بدت في عينيه مساررات الذَّكَرِ العمياء: «أعِدِ القراءةَ وفَّقَتك الملائكةُ».

قاورن الشيخ، الذي أوى إلى فراشه البارد، أحضَر طيفَ مانو: «لماذا لم تقل شيئاً حين فتحتُ لكَ خزانةَ أغنيتي؟»، وجاهد قليلاً أن يتدبَّر الأعذارَ المختلطةَ في ظلال النعاس، المنسرب بقطيعه إلى سديم الخيال. لكنه استوقفَ مانو مساء اليوم التالي، لما اجتمعت بين يدي نديم حلقةُ المسكونين بذئاب العنب، وفيهم ضيفا جكجكان، اللذان قرَّ قرارهما أن يغادرا سورا إلى بتليس، بعدما حظيا من دفتر ابن الآغا البدين بسحابٍ من الأثداء الغارقة، وبأسراب من الخُصى الدموية تلتهم الفُروجَ الأكثر ممانعةً

وضيْقاً، وانسداداً، وبدغْلٍ من الألسنة المشتعلة شوقُ نيرانها بأيائل القُبَل، من الأعناقِ حتى الكاذات: لَعْقٌ، وارتشافٌ، ومصٌّ، ونَهْشٌ بالأنفاس. ذلك ما لن تحتمل الأغاني في سيدروك. غير أن مانو سايرَ الكَرَمَ في حضور نديم، فادَّعى نَقْلَ شذرات من هنا وهناك، حيثما سمحت هدآتُ السطور في الدفتر ليده أن تنقل، وأعاد الوديعةَ إليه بجلالٍ في الحركة من يديه الإثنين. في البرهة تلك استوقف الشيخُ قاوون رجُلَ الحروف والنَّحو: «لديَّ ما أُسمِعُك، يا سيد مانو، إذا جاد سمعك عليَّ بقطرتَيْ إصغاءٍ».

«كَرَمٌ منك إن فعلتَ»، ردَّ مانو، وهو يحدِّق في عيني نديم المُستخفَّتين، كأنما يتوسَّلُه أن يُعفي الشيخَ من تعليقٍ جارحٍ، فلزم نديم كأسَهُ ألصقها بشفتيه ولم يرفعها عنهما.
«هيا»، قال معلِّم سيدروك، فنطقَ قاوون:

«لستَ لأحدٍ، بل لي.

ما تفعله هنا، بقلبكَ المتدثر بريش وسادتي، لا تفعله في مكان آخر؛

ما تضيئه جوارحُك، هنا، من نقش روحك، لا تضيئه في مكان آخر.

من يديَّ، لا من غيرهما، تأخُذُ النومَ خفيفاً كخيال السوسن؛

وفي يديَّ، لا في غيرهما، يوقد حلمُك اللذائذَ التي لا تنتهي.

إن بحثت عن قلبك لن تجده هناك،

إنه في صدري، هنا، يا شريكَ سَهَري».

ثبَّت قاوون الشيخ عينيه الغائرتين على وجه مانو. أدرك

أنه تصيَّده. الأقمار التي انسلَّت من قلب معلم سيدروك إلى فَلَكها كانت مرئيةً ولها رائحةُ المُصْطَكى. نديم، نَفْسُه، توقَّف عن مضغ لقمته. ازْدَرَدَها وأشعلَ لِفافة تبغ نقشتِ المتاهات على ضوء السراج بحبر دخانها. رفع جكرو قَدَحَ الشاي إلى فمه، وتنحنح جكجكان من حرارة دمع العنب في لَهَاته. «سأدوِّن هذا»، قال مانو.

مسَّت خمائلُ الترف، إذ تمايلت، كبدَ الشيخ. زحف إلى الحلقة مؤكداً لمانو بأصابعه العشر أن الصباحَ يهبه يقظةَ المعنى: «سأتذكر أشياء أخرى من هذه غداً يا سيد مانو». لكن مانو نظر إلى جكرو مستعيداً، في صمتٍ، ما قرّراه من مغادرة سورا. تمتم: «لستُ أدري يا سيد قاوون إن كان في مستطاعنا البقاء غداً».

«بل تبقيان»، قال نديم بنبرة الكلمة الأكيدة. «وستكونان ضيفيَّ منذ الغد. هيىء لهما يا كمال روفا فراشين لم يلمسهما إلاَّ الأرواح المتيَّمة بحرْث الكروم». ثم ضرب براحته فخذ جكجكان: «اسمحْ لي بهما، يا نمر الله»، فردَّ الرجل الكسول العينين: «إنْ رغبا في ذلك فهما لك»، فأكد نديم ثانية: «بالطبع سيرغبان، وإلاَّ أوثقتُ نفسي بجواديهما ليسحلاني إلى تبليس»، ففتح مانو يديه مستغفراً: «معاذ الله أن يُسحل مثلك. غداً ننضم بحوائجنا إلى دارك»، والتفت إلى جكرو: «لا طاقة لنا بهدر كلمة كريمة من سيدٍ كريم. لنبقَ يوماً آخر».

ست نجوم سطعت بإشارات النور من خيال قاوون. ظل صامتاً، مستنداً بظهره الى المسطبة، حتى غادر آخر رجل مضافةَ نديم إلا كمال روفا، الذي يتثاءب بقوَّة، مطلقاً من

حنجرته زئيرَ الإمتنان لليل. ضمَّ قاوون أطرافَ معطفه القصير على شرواله، ونهض بهيكل خلخلتْه المعاني المتدحرجة مع نَرْدِ الوقت، لكن صوت نديم أعاده إلى جلوسه: «ها نحن وحدنا يا جزَّارَ الغيوم. لِمَن الشِّعر الذي رميتَه علينا؟».

ذابت النجوم الست في خيال قاوون، وانفرط عقدُ الحيلة. لم يقاوم الشيخ إلا برهتين من الصمت شقَّهما نديم بريشة الوعيد الرقيقة: «أنا أستنطق السَّعَالى في شؤون الموتى، وأُحمِّلها رسائل إلى بنات إبليس، فلا تخبِّىء عني ما سأعرفه»، قال. ابتسم قاوون. حَسَر قبَّعته التركية المضلَّعة الحواف عن نصف رأسه، إلى الخلف، وزفر زفرةَ المغلوب على أمره:

- إنه من نِيْنُو سَارِيْن.

بدا جواب الشيخ ساخراً لبرهةٍ نزفت من وريدها في صمت نديم، الذي حَرَث بمحراث بصره تخومَ المُمكن، ونثر بيديْ خياله بذورَ النقائض. تململ الأكيدُ الجاهل. تململ العدمُ العاشق في مأدبة الوجود العاشق، وتبادلت العلومُ المُهمَلةُ أقلامَ الأسباب. عينا قاوون جَلَتا مدخلَ المتاهة فتتبَّعتها عينا نديم: رؤوس الحدائق تتدحرج كلَّما أخطأت الحدائقُ فكَّ طِلَّسمات النُّور الأحد عشر، وها هو السراجُ المُمْتَحِنُ، في فضاء الغرفة الذي بلا نهاية، يرتِّب لأعماق نديم مسألةَ الجَبْر المُلْغِزة: كم مزدوجاً في المُفرد؟ دخانُ لِفافة التبغ حجَبَ مقامات الفراغ عن قلبه، وسوَّى الخلاءَ قطيفةً عليها رسومُ الحُبَارىٰ: «نينو سارين؟!!. منذ متى تُداعب نينو فهودَ المسكونيْنَ؟».

في ظهرة اليوم الأول لوصول مانو وجكرو إلى ساحة

سورا، لمحتهما نينو من عليّة دارها المفتوحة جنوباً. نزلت الدرج الخشبي إلى حوش البيت تستطلع من سياجه ذي الجذوع القوية عبورَ الدواب الأربع. الغرباء لا يطرقون هواء المكان، إلاّ دوريات الدَّرك الخيَّالة بين حين وآخر. أرسلت عينيها، أسوة بعيون الواقفين على أبوابهم، إلى الحيِّز ذي الجاذب المؤنس في محيط جسميهما. تلمَّست بأنامل التخمين حروفَ صورتيهما المتصلة بلا انقطاع. تهجَّتهما وقد اختلط الحَمَامُ بالخطوات. «لو يتَّجهان إلى بيتي»، هكذا داعبتْ خيالَها بريشة الغامضِ الأليفة. ولِمَ لا؟ هي بضع أذرع لا غير. ينعطفان بالجوادين إليها ويدخلان الحوش. ستعينهما على ربط الدواب إلى عمود الزريبة، وتقودهما إلى البيت، فتعدَّ لهما أرزاً يتلألأ في أصداف السمن. سيحكيان لها، ولطفليها، ما تريد أن تسمعه: ظباء الكهوف الذهبية، ذات الأجنحة الزمرُّد والأظلاف الفيروز. الأقمار الثمانية في السفح الشرقي للجودي. الغيومُ الخلاخيلُ فوق سهول بوطان. فَرْهَاد، الذي حوَّل سلسلة جبال البُورز إلى تماثيل بمطرقة النحَّات ولهاث العاشق. غير أن الرجلين تابعا سيرهما إلى بيت جكجكان. وقد استعلَمَتْ عنهما خالَها الشيخ قاوون، صبيحة اليوم التالي لخروج أغنيته مخذولةً من امتحان مانو الصامت، فنفخ هواءً مهشَّماً من رئتيه: «إنهما يجمعان أشعار الأغاني»، وتصنَّع الضحكَ: «خرفت الأرضُ من حولي قبل أن أخرف. أيُّ أحمق يجشِّم جوادَه تعبَ البحث عن وساوِس المشجونين؟».

حطَّت فراشة على روح نينو، وحام حولها نحلٌ من بلَّور. كانت إذا غنَّت، بصوت خافت، أمام القِدْر، أصغى

إليها زوجُها إصغاء الحائر: « كيف ترتبين الكلمات المهمومةَ هذه؟ لكِ لسانُ الغريب، وخيال الغريب». هو ابن خالتها. أنجبها طفلين وهي بعد في العشرين. يسافر ستة أشهر في السنة إلى الغابات غربيَّ جبل أراكس، حيث المهبُّ العاصف لقرون الوعول على البنادق. زُمَرُ الصيادين تحلِّق بأجنحة الذَّهب الرَّشاديِّ على المجاهيل الخضراء، والمتاهات الدائرية، وسط شجر الصنوبر، والبطم، والعَرْعر. هناك يُهْمَلُ اللحمُ، وتُؤخذ الجلودُ إلى الكُوَر الكبرى، لتنتقل بعدها إلى مدابغ موانيء البحر الأسود. وقَدَرُ نينو أن تودِّع بعلَها الشاب كل مطلع ربيع، في البرزخ المطوَّق بسلالم زهر البرقوق، وسهام زهر الأجاص. لربما تسهو أعيُنُ أهل سورا عن ميعة النرجس الأزرق، وسَكْرة شقائق النعمان، وثرثرة الصعتر البريِّ على أكمات الهضبة، بانصرافهم إلى إعداد الحياة نَفْسِها، بعد رُقاد الشتاء الثقيل، لامتحان جوارحها الساكنة، المتصلِّبة، لكن نينو تتنسَّم من وسادتها عبقَ التَّرَف الأرضيِّ كجسد الذَّكَر خارجاً من وقيعة اللذَّة مدهوناً بزيت الديمومة. تريد ابن خالتها - بعلها معها في النشيد الهامس، المُنبعث من خزائن الأسماء الجبلية المشرفة على شفق سورا. ربيعٌ عذبٌ، شَرِه، قيَّافُ ثمراتِ الدفء، يجلس على عتبة بيتها، فيما يسلك بعلُها مراقي ربيع جبل أراكس المحموم، المُدرَّبِ بسوط الثلوج الذائبة توًّا على اعترافٍ باردٍ عن أقاصيص النار في أكواخ الصيادين. ربيع الجبل محتَّكٌ، خشن، متكتِّم، وعنيد، لكنه الموعد المُبرَم بميثاق الطِّباع بين الأنهار، والصيادين، والوعول. حين تذوب الثلوج على السفوح تنحدر الوعول إلى السهوب المتَّصلة

بالضفاف، واضحةً بالتماعات الشمس الباردة على وَبرها. أبجدياتٌ من نصال قرونها ترتسم، حَفْراً، على اللوح المرئيَ بخيال الهواجس - خيالِ القَنْصِ وإلْهامه: هناك يتواطأ النُّوز مع القتل.

في الخريف يرجع سَرْبَسْتْ - بعل نينو. وهي تنتظر وصوله في الآناء التي حطَّ الغريبان مانو، وجكرو، بأجنحتهما الغماميَّة على أكَمة الأغاني، التي نبت فرعٌ من أحشاء نينو بين بَقْوْلها. إنها، منذ ما لا يدريه عِلْمُ الحقائق الصغيرة، مِلْكُ الهواء، لذلك لها لسانُ الغريب، وخيالُ الغريب. والأغنية هي جواب الغريب عن مساءلات الكمال التائه في ممرات السحاب، والريح. غنَّتْ من بَسَالةِ خاطِرها وهي في الثامنة بعْدُ. غنَّت وهي تحمل سطلاً من بَعْر الضأن إلى مستودع الروث الذي يُحْفَظُ سماداً ووقوداً، فضربت أمُّها كَفاً على فخذها: «هذه الطفلة من نَسْل المشجونين». وها هي، إذ سمعت من خالها قاوون الشيخ عن جسارة السَّعي الغامض وراء تِيْه الكلمات وخزائن الصوت المطمورة فيه، ترى نَخْلاً من بلَّور على غصن لسانها: «هَلاَّ حملتَ إليهما شيئاً من ريش جناحي، يا خالَ النِّعمة؟»، قالت للشيخ فأنعشته التوريةُ المائية. جلس لصق حائط بيتها فيما ظلت واقفة، بإشرافٍ من ظلِّ أنفاسها على كمين المعاني. دوَّنت على صفحة سمعه أسطراً منهوبةً حتى بات يراها مكتوبةً في بؤبؤي عينيه. توسَّلت أن يحفظ السرَّ، لكنه لم يقاوم سطوةَ الإستنطاق غير المُعلَن في صمت نديم المتوعِّدِ بمرَحٍ شرسٍ.

«هي نينو، إذاً»، دمدم نديم. أرخى عن رأسه الوشاحَ

الذي عَقَده كعمامة، وكشف لقلبه عن هبوب الحيلة: «آتِنا بشيء من كَرَم لسانها غداً أيضاً، يا شفيعَ المواقد»، قال للشيخ، فأحضر الشيخ، عشية اليوم التالي، غنائمَ النار العذبة. أما الصباح فشهد انتقال مانو، وجكرو، ودوابهما، إلى رحاب ضيافة نديم. سلّما مقاليد الحيوانات إلى كمال روفاذي الحنين المحروث بسِكّك الدَّم في أودية دِرْسيم، وانساقا وراء الخَدَم إلى غرفة عالية السقف، مبطّنة الجدران بالطنافس، إلاَّ مِقداراً مستطيلاً في بياض الجير تراصفت فيه رؤوس الثعالب المحنطة، مكشوفة الأنياب، منحسرة الأجفان عن أحداقٍ من خرز أحمر: «هذه ثعالب سهوب المغول، التي لا تنام. وهي لا تسطو إلاَّ في طقسٍ ريحٍ»، قال أحد الخدم للضيفين.

نينو، العاكفة على غسل ثياب طفليها في حوض الماء الحجريّ، رأت الرجلين يصحبهما كمال إلى منزل ابن الآغا، ذلك الصباح. شقّتْ بعينَيْ شبابها الجسورتين حجابَ الظاهر عن غوْر الظاهر. ارتعش خيالُها المُستثار: هل أسمَعَهما خالُها ما حمَّلَتْهُ من خَفْق جناحيها إلى مضافة نديم؟ لو نظرا إليها؛ لو التفَتا، لحدَّثَتْها اللفتةُ منهما حديثَ المساء. لكنهما لم يلتفتا. خالُها قاوون دَلَق النبأ على يديها المبتلتين، بعد عبورهما بدقائق، لا غير: «لقد دوَّن السيد مانو أغنيتك يا ابنة أختي»، قال مبتهجاً، من غير تحديق كثير في وجهها خشية انكشاف خيانته الناعمة للسرِّ، الذي توسلت إبقاءه سرًّا. لم تسأله إن كان قد باح، ولم يبُحْ هو. احمَّر عرنينُ أنفها الرقيق في بشرتها البيضاء المتفتِّحة عن نمشٍ سمسمٍ تحت العينين، وتماوجت ستارةُ أحشائها ذات الرسوم الزرقاء: «مَنْ مانو منهما؟»، سألت خالَها.

« النحيل الهادئ » ، ردَّ الشيخ . « هو الذي يصغي ويدوِّن . الآخر دليل » ، أضاف .

« ماذا لو حملتَ من صناعة خاطري متاعاً آخر إلى مانو هذا ؟ » ، سألت خالَها في حياءٍ ، فهرعَ بلسانه إليها : « هو هذا . نديم نفسه سألني المزيدَ للعشية » .

تبلبلتْ برهةً . سهمُ النشوة مرَّ مصفِّراً بقوة في هبوب قلبها عليها . حاولت أن تتذكَّر شيئاً من رسوم خاطرها فاستعصى الاستظهار . عصرت قطعة قماش بيديها ملتفتة بتوسُّل نديٍّ إلى الشيخ : « هلاَّ عُدت إليَّ بعد ساعة يا خالي ؟ » .

تركت نينو ثياب طفليها في الحوض الحجريِّ ، واتجهت إلى غرفة المؤنة المتصلة شرقاً بعرائش ثلاث بدأت تتعرَّى . هي لا تدري لم اختارت غرفة المؤنة للاختلاء بخيالها . صخبُ طفليها كان جليًّا في ردهة الدار . صخبُ الغمامات المشرفة على حقل لسانها كان جلياً : سطور البهاء متداخلةُ السنابلِ تحت الغمامات المشرفة على حقل لسانها . عليها أن تستذكر ، لا أكثر ، كي تختار المتجاوَر المتآلفَ . الأنساقُ ، التي صعدت أدراجَ خاطرها ، يوماً بعد آخر ، بلا قصد إلى استدراجها بآلة العقل وإغوائه ، موجودة في الخزانة هناك ، لصقَ الباب المفضي إلى روحها . ترفع نينو الغطاء عن الكثافة ، وتختار المرآةَ التي تستجلي فيها الموازينُ أشكالَ أثقالها :

« يا نقشَ الظلِّ أنتَ ، يا انسراحَ عقلي في البئر ،
أأنت تصعد في الدلو إلى فمي عذباً لك مذاقُ الماء ،
أم تُراني نازلة في الدلو إليك ، في عتمة الدلو وفراغه ،
فأرفعكَ بي إلى فم النُّور الذي لا يرتوي ؟ » .

دوَّنتِ السطورَ بإصبع الإشارات على الفراغ اللائق بحروف لا يكتبها حبرٌ قط، ولمست براحتها قرنَ وعل نافر من بحيرة الجدار الملآى بالأشرعةِ القرونِ، التي حملها بعلُها من ظلال الغابات السوداء إلى سورا؛ القرونِ العريضة، ذات الشِّعب الكُثر والأقواس، الرهيفة النصال، الصلبة كخُرافة صلبة. الجدار الشرقي حديقةُ قرون. جذوعُ حورٍ مستقيمة تراصفت على عرضه، مُختَرقةٌ بأوتاد تبرز رؤوسها من الجهة الأخرى، متجاوزةً سُمْكَ الحائط بأشبار. هكذا يريد ثباتُ الجذوع كي تحتمل أثقالَ القرونِ - حروفِ المشيئة، ومفاتيحِ المغاليق التي لا تهتدي إليها علومُ القراءات. نينو استعرضت ريحَ خيالها بين أشرعة العظام القوية. نزلت بقدمين من غبارٍ سكران إلى الحلبة المهجورة لتلتقط خوذةَ البوح الأزلية:

«يا مَنْ أنا قِسْمةُ روحكِ في تدبير الله،
يا مهبط قلبي - قلبِ الشربين الصلب،
كم أكونُ قويًّا لأن الأرض التي تحملكِ تحملني أيضاً،
كم أكونُ عاصِفاً لأنكِ لي».

اختطفت نينو حبةَ تين مجفَّفة من قلادة التين المعقودة بخيط القنَّب، وهي تصغي إلى صخب طفليها مقترباً. كلُّ شيءٍ منعشٌ. خرجت من غرفة المؤنة متجهة إلى حوض الماء الحجري، الذي تزاحم على حوافه سطرانِ من الحمام دوَّنهما الغيبُ العاشق.

في المساء المُطوَّق بالجلساء - مساءِ اليوم ذاك، المحمول على سِماطٍ توسَّطَ المجلسَ، عليه صَحْفة من أرز يعلوه نصفُ سرب من حَمَامٍ يرشح سَمْناً، يرى مانو القلمَ

الرصاصَ في راحة كمال روفا المفتوحة ؛ براه بسكين صغير ذي مقبض من عظمِ ترقوةِ السلّور. أطبق كمال راحته على البُرَادة ومضى ينثرها من النافذة خارجاً. « تقدَّمْ » ، قال نديم لقاوون الشيخ ، الذي يغلب عليه جلوسُه بظهرٍ إلى المسطبة المُغطاة بسجاد عريق عليه رسومٌ لحلقةٍ نقشبندية. زحف الشيخُ المنتظر إشارةَ البَيْعة الطاهرة تحت خميلة الأغاني ، فوسَّع له مانو ، وجكرو ، فراغاً بينهما. أطبقت الأيدي على الحمام ، ونهشت الملاعقُ الأرزَّ. تقوَّض الهَرَمُ الأبيض ، فيما ارتفع في الخلاء الزاحف على الصَّفحة هرمٌ من عظام. أُلقيتْ كلماتُ الحمد المُخْتَزَلةُ ، وحضر الطشتُ لغسل الأيدي. رُتِّبَ المكانُ من جديد بدهاءِ البخار الصاعد من أقداح الشاي. نديم وجكجكان آثرا المزيد من دمع العنب المُستَنْطَق بياضُه بآلات الماء المُحرِّض. « نُخْبكما » ، قال ابن الآغا لضيفيه ، وتشمَّم الكأسَ مستحضراً بخيال الرائحة فردوسَ اليقين الأول – يقينِ الصحوةِ المُسْكِرَة في كمين العدم : « يا لَتَرَفِ الحمَّى » تمتم متمَطِّقاً بلسانه في أثر الرشفة ، وصوَّب عينيه إلى قاوون ، الذي حدَّق ، بدوره ، في عيني نديم. صَمَتا يقتطفان ، معاً ، ثمرةَ البرهة الناضجة. ترقَّب مانو نشأةَ السحاب في سماءِ اللسان ، فنطق الشيخ بلا إيعاز : « يا نقشَ الظلِّ ... ». قسَّمَ بمدية صوته أجاصةَ الأغنية اللامنغومة أنصافَ شطائرَ أربعةً ، كما لَقَّنَتْه نينو ، وسكتَ يستنزل الحُكْمَ ، فصرَّ قلمُ مانو على الورقة ، وهو يهمس : « أعِدْها عليَّ » ، فأدرك الشيخُ أن صوتَه استحال نقشاً من نقوش الوجود. لم ينتظر فراغَ معلم سيدروك من التدوين : « لديَّ واحدة أخرى » ، قال ، فاختلجت أحشاءُ نديم ، وشهق قلمُ مانو.

«أنجدني يا كمال بشيء من الطِّيْبِ المؤنَّث. لدى أمِّ العيال أخلاطٌ منه»، قال ابن الآغا بنبرةٍ مستكينة، فنهض الرجل الرَّبْعَة، ذو الشروال الفضفاض الصاخب بقماشه الكاكي السميك. عبرَ البابَ الداخلي إلى غرف العائلة. غاب دقائق ثم عاد تصحبه نوفا، سيدة المنزل الأربعينية. سلَّمت على الجلساء، مخصِّصةً الضيفين بابتسامٍ مُرَحِّب أخفاه طرفُ غطاء رأسها الذي تلثَّمت به، لكنه ظهر عذباً على طرفي عينيها اللتين زادهما خطان مقوَّسان من الوشم الأزرق اتساعاً في اتجاهَيْ صدغيها: «لِمَ تريد طِيْباً؟»، بادرت زوجَها وهي تمدُّ إليه حُقًّا من زجاج أزرق، صغيراً ذا غطاء، فتناوله نديم منها. رفع كأسه إليها: «لو شربتِ شيئاً من هذا، يا أم العيال، لعرفت السبب»، قال ضاحكاً، فغادرت المرأةُ الغرفة تتعوَّذ من شرِّ العنب. فتح نديم الحُقَّ. استخرج بسبابته بضعَةً من دهْنٍ فَرَكَ به راحتيه، ومسَّد بهما شاربيه. قدَّم الحُقَّ إلى مانو: «تطيَّبْ. شجرةُ لسان قاوون مهيبة هذه الليلة، سنستظلُّها متطيِّبين بطيْبٍ مؤنَّث». زوجته نوفا لم تعهده يتطيَّب إلا بطيبٍ مُذكَّر. جاءته بخُطى فضولها ورجعت مُحْرجةً من دعابته أمام الغريبين. دهن الورد، واللوز، والزعفران هو الطيْبُ المؤنث. ما يغلبُ اللونُ، في الأخلاط المُسْتَحْصَلة، الرائحةَ يُدعى طيْباً مؤنثاً؛ وما تغلبُ الرائحةُ فيه اللونَ يُدعى طيْباً مذكَّراً. المسك، والعنبر، والرَّند من الطيب المُذكَّر: حصيلةٌ يذخرُ بها صندوق صغير على شكل كتاب مطرَّز الإطار بالصَّدف، في خزانة نديم العثمانية، إضافة إلى زجاجة عطر مخروطية من صناعة الكيمياء على مضيق البوسفور. ولـمَّا نطقت شجرةُ لسان قاوون، من جديد «يا مَن أنا قِسْمةُ

روحكِ..»، أُغمي على الأشكال في نظر ابن الآغا. العطرُ، وحده، انتشلَ الحقائقَ من الغرق، وأعاد الفراغَ التائهَ إلى صوابه عريقاً تحت أثقال الحروف، التي دوَّن بها مانو طيف الصوتِ وبُحْرَانَه. «ستبقيان هنا، بحقِّ الكَرَم في نَسَبِكما، حتى ينفد ما في كهف الزمرد المستور»، قال نديم بتوسُّل المُنتشي من كشف الأسباب الدَّهرية، فنظر كلٌّ من مانو، وجكرو، أحدهما إلى الآخر بفؤادين مستسلمَيْن، مدركَيْن أن ممحاةَ الأحوال باتت تُلاشي عزمَهما على سلوك الآفاق إلى تبليس.

غلب السهدُ حَرَسَ النوم على سرير نديم الواطىء، الصلب، القائم على مبعدة قليلة من أسِرَّة ابنتيه وزوجته نوفا. لقد حثَّ قاوونَ الشيخَ أن يأتي بالمزيد إلى مساء المضافة النَّهِم، كأنما يزمع الرحيلَ بالأحوال المُنكِرة إلى متاهاتها، ويعرضُ على اللوعة أن يُخْتَطفَ. هو في العقد الخامس، المشرف على امتحان البداية الأكثر ضراوة في اتجاه الغامض. السنون القادمةُ شروحٌ وتفاسيرُ للصمت المطبق الذي التزمته سنونُ ماضي الأعمار. الماضي الفتيُّ، الباسلُ بنعمة انشغاله بتقويض الوقت، لا يكلِّف الحقيقةَ تقديم شروحٍ إلى مَلاكِ الباطن. ما يقوِّضُ الوقت هو أن يُقْتَطَع برهةً برهةً، كلُّ برهةٍ سياقٌ في مرتبةِ ذاتها بلا سيرورةٍ، مطوَّقةٌ تُستَنْزَفُ حتى العَدَم لذَّةً، أو عبثاً، أو هباءً، أو تبذيراً، أو يأساً وبطولة. والفتوةُ تقوِّض الوقتَ هكذا، فيما تترك للشيخوخة أن تدبِّر، عادةً، ترتيبَ المائدة بعد اجتياحها. لك الشيخوخة تفسير غيرُ مُقْنِع للبسالة الساحرة في تعالي العَضَل عن البيان. الشيخوخةُ ثرثرة الوقت الذي

ضلَّله سحرُ الفتوة الصامت. التأمُّل ثرثرة. اليقينُ ثرثرة. الحكمةُ ثرثرة: ثلاث عجلاتٍ ينحدر بها الوجود إلى تبعية العقل للخسارة المُطْمَئِنة، المُمْتَنَّةِ لنَفْسها، المُتعافية بسحر النَّدم في حدائق الشيخوخة، حيث الغبطة الكُلِّية لجليسِ الثمر المدعوِّ وقتاً. لا بأس. نديم لا يتفكَّر، في سهاده، بإعادة تصويب النيزك الذهبي من الكمال النبيل الطائش في اتجاه النقصان الرَّزين، الممنوحِ هبَّة من السماء، بل يتوسَّل، بعقل الكَيْدِ إذْ يستيقظ، أن ينْحدر النيزكُ أسرعَ كي يغدو الإرتطامُ طاحناً؛ يتوسل، بعقل الكَيدِ المُطَهِّر، أن يغدرُ بالمقاديد المحسوبة في خيالِ الجسد مراتِبَ تتهدَّلُ الحقيقةُ في تِسَبها سنة بعد أخرى. لا بأس. فَلْيَنَمِ النومُ وليبقَ نديم صاحياً يُمَسِّد بأغاني نينو على عضلة الفَهد في عضُد ذكورته: لقد أفَاق المنيُّ.

حين صحب ابن الآغا ضيفيه، في الصباح الغائم، إلى نزهةٍ في سفح الهضبة، لم يكن يشير وسع ذراعيه إلى أفقِ كرومه، بل إلى قلبه ممتدًّا كالغمر على مسكوكات الوجود. الطرق المتعرِّجة، الملتمعة كجلود الأحناش، هي خطوط يديه، وأبراج الحمام الطينية، المرتفعةُ مناراتٍ على البحر المستور في لؤلؤةٍ مستورةٍ في قِلادة الكروم، هي سُعاةُ بريده يحملون إليه، ويأخذون، رسائلَ المطارحات المفقودة. كان يلهث قليلاً وهو يشرح وجوب مرور خط للقطار في سورا، بمحاذاة النهر. يمشي بقوَّة، لكن اكتناز جسده يقيد الخطوات باللهاث. لقد أرسل، قبل خروجه بضيفيه، خادماً بورقة إلى طاركانْ قره ليْ، آمر سراي الدرك الصغير في بلدة بشيري، يستحصل منه إذناً بحركة ضيفيه في البرِّ

التركي ، دَفْعاً لأي إشكال إذا صادفتهما دورية ما : « تتبَّعتما قلبيكما . أأنتما طيْرانِ ؟ الأرض ، هنا ، تتبعُ أختامَ الحديد » ، قال لهما في ليلتهما الماضية ، واستحلف كمال روفا أنْ يذكِّره في الصباح بالأمر ليذهب ساعٍ إلى آمر السرايِ ، فاقترح كمال إرسالَ شِنْدي ، الذي هو أحدُ خدمه . وقد أوضح نديم لضيفيه ، في خاتمة نزهتهم ، أن القائميْنَ على خدمة بيته ليسوا خَدَماً ، على وجه الصواب . هم عمَّال أشاد لهم ، ولعائلاتهم ، مساكن في محيط داره ، بعد نزوحهم من دِرْسيم المهشَّمة ، يتولون - تطوُّعاً - السهرَ على شؤونه وترتيبها بامتنانٍ لم يستطع التخفيف من اندفاعهم فيه . يعملون في كرومه حراثةً ، وتقليماً ، وتسميداً ، وقطافاً ، في المواسم ، ويلزمون - من ثم - عيالَهم إعانةً على تربية الغنم ، الذي يتركونه في عهدة النساء حَلْباً للضروع ، وجزًّا للصوف ، وفي عهدة صبيانهم ، وفتياتهم رَعْياً . ولمَّا بلغ الثلاثة ساحة سورا خفَّف نديم من مشيه . تعمَّد المبالغَة في استرداد أنفاسه وهو يستقصي بعينيه مغاليقَ الظاهر على العتبات . بيت نينو سارِيْن كان في المهبِّ العاصف للنُّور المنبثق من شعاع اللهفة ، وكانت هي ، المنحنية بمكنسة العَرْفَج على الإطاحة بذرق الحمام والدجاج معاً ، خارجةً توًّا من صدفة الكيانِ العُنْصُرِ إلى شروق القُدسيِّ الأمين . يا لها نينو . أيُّ كمينٍ أعلنَها هكذا واضحةً كي يستدرج إليه حروبَ البصر ويلتقط الأسرى ؟ صغيرةُ الجِرْم لا تُحسَب إلاَّ طفلةً ، ولها وجه طفلة . مكتنزة قليلاً ، يضغط مطاطُ سروالها الطويل على ساقها ، فوق الكَعبين ، فيغوص في اللحم . عمامتها الصغيرة حول غطاء رأسها متراخية بإهمال ، قد تنحلُّ وتتهدّل . استقامت إذ رأتهم

يعبرون الساحة فتبادلت الكواكبُ بروجَها ، وخرقت الألوانُ ستورَ الألوان . لمس الجبلُ بأنامله كتفَ نديم فعاد إليه حياؤه بعدما شردت به الحالُ عن المكان : « متى يعود رجُلُكِ يا نينو ؟ » ، ناداها متلبِّساً صوتَ الأب الذي تاه عن لسانه .

« إذا اشتدت الريح قليلاً يكُنْ هنا في غمضة عين . هو خفيف الجسم ، نحيل ، ويزداد نحولاً في الأسفار كما تعلم يا أبا رَوْش » ، ردت بنبرة فيها دعابة .

« هذه امرأة صغيرة مرحة . لو لم تذكر زوجها لظنَنْتُها بِكْراً » ، عقَّب جكرو المعقود اليدين خلف ظهره . شردَ مانو بخيال الرجل فيه إلى سيدروك . طوَّق فراشَ أمِّ بناته بذراعيه المائيتين ، وانسكبَ الغمامُ من صلبه في قوارير حقيقتها المائية : « هواء سورا يمرُّ على القلب قبل الجسد » ، تمتم مُعَلِّم النَّحو المُعار من خزائن الله إلى خزائن الله ، فالتفت إليه نديم : « نحن نقيم في حراسة الزُّهْرة . المنيُّ وَهْبٌ من الزُّهرة . حين اكتمل خَلْقُ آدم دار كوكب الزُّهرة أوَّل دورته فامتلأت خصيتا آدم بغبار الأفلاك الدَّبق » ، قال محدِّقاً في عيني مانو يبثُّهما الإقناعَ .

ابتسم مانو في خَفَر . أسقطَ بصرَهُ إلى الأرض ، وتكلَّم : « قلتُ شيئاً عن القلب فأخذتَني إلى موقع الحشمة في الجسد » .

« الحشمة ؟ » قال نديم متفكِّهاً . « للحشمة موقع في العقل ، وفي الخيال ، إلاَّ بين ساقي الآدمي . ما يقع هناك هو الزلزال » ، ثم استدرك : « حدَّثْتني عن القلب . ها . حين تمسُّ صورةُ امرأة قلبَكَ يستيقظ كوكب الزُّهرة في خصيتيك » .

« ولماذا يستيقظ ؟ هو حارسٌ كما تقول ، والحارس لا

ينام»، قال مانو.

توقف نديم. ضغط بأنامله على عَضُد ضيفه مؤكِّداً: «هو حارس مطمئن إلى مقدرة خصيتيِّ الرجل في الدفاع عن روحه».

قهقه جكرو. مضيفُهما جرَّه إلى تهشيم بعض الحياء الواجب تكلُّفُهُ بين الغرباء ولو جمعهم طعام ومجلس. استعاد نديم مَرَحه الموصوف كخرزة الجنِّ. شدَّ على عضد مانو شدًّا لَيِّناً: «قَهْقِهْ أنت أيضاً، لربَّما أُجْفِلَ الذئبُ»، قال، مومئاً بعينيه إلى رسم أتاتورك الأغبر، المنحوت جُرحاً حجرياً أبيض في ترقوة الهضبة فوق سورا.

«قطعاً، لم يجفل الذئب الأغبر الحجري، بل ارتعدت عضلةُ الميزان الخفية في ثدي نديم الأيسر حين نطقت شجرةُ لسان الشيخ قاوون، في مساء ذلك اليوم، ثلاث مرات، بثلاث حقائق من أسرار الأغاني. دوَّنَ نديم مكاشفات نينو، المموَّهةَ، بقلم الحِفْظ المسكون. تدافعَ البياضُ المُسَطَّر في الدفتر المستطيل يتمرَّغ على عتبات الحروف نشوةً:

«عُدْ بي إلى البيت.
عُدْ بي إلى الركن المظلم في البيت،
تحت قِرْبة الدِّبس المعلَّقة، وعرانيس الذُّرَة اليابسة.
الحقل يشرِّدني، هنا».

«لتبقَ يداكَ كسولتين.
لا ترفعهما عني.
إبْقَ كسولاً ولا ترفع فمك عني.
كسلُك هِبَةُ الروح».

« سأسرقُكِ، يا فتاةُ، من النرجس.
سأسرقُكِ من النسرين.
سأسرقكِ من الشقائق، ومن سنابل القمح.
سأسرقُكِ من التوت،
ومن التين،
ومن الهندباء، والخُبَّيز؛
من البَقْلِ كلِّه، يا فتاةُ.
سأسرقُكِ من دخانِ لِفَافةِ أبيكِ.
أنا لصُّ خزائن الأثير؛ لصُّ قلبكِ ».

أغلقَ مانو الدفتَر. فتحت اللوعةُ خزانةَ الليل بين يدي نديم فبعثر السهرُ اللآلىءَ، ودحرج الياقوتَ زفرةً زفرةً حتى الفجر. لم ينم ابن الآغا. قلَّب على فراشه رغيفَ العمر الساخنَ من جهة الجمر إلى جهة الجمر، ولمَّا تناهت إلى سمعه جلبةٌ خفيفة من ناحية الغرب، حيث المدخل إلى ساحة سورا، نهض غير أسِفٍ على فراشه المعجون بأيدي الأرق. ارتدى عباءة سميكة تناولها من المشجب الخشبي فوق منامته الإسطنبولية، وانسلَّ خارجاً إلى الحوش المطوَّق بسور حجري واطىء. عبرَ رفَّ الحمام المتهافتَ على ساقية الماء الممتدة من الحوض الملاصق للبئر إلى شجيرات اللِّيف. بلغ سرادقَ العرائش المكتهلة في الخريف. فتح البوابةَ القوسيةَ المجلَّلة بحدوة العنايات الكبرى - حدوةِ فرس جدٍّ جدِّهِ ميرسين الثاني. وقف يتأمل عربتين تتبعهما سبعة جياد: لقد عاد الصيادون تتقدَّمهم رائحة الوعول.

خرجت الناس إلى الأبواب، ملتفَّة بملاءات النوم

السميكة على عجل. الصغار ارتدوا عباءات الكبار. والشيوخ تدثروا بلُحُفِ الفُرُش اتقاءً برد الفجر. الفضولُ يتبادل والهواء النظرَ بمجهرهما. فالصيادون، إذ يبيعون الجلود، يشترون من الكُوَر والبلدات متاعاً بعضه لأنفسهم، وبعضه للبيع في سورا: الخناجر، والأوشحة، والسجاد، وأكياس التمر العراقي، والصابون الملون، وعلب التبغ المعدنية، الأكثر رقّة في صناعتها، التي بلمسة من الإبهام تنفتح عن إشراقة النقوش في باطنها. أما قرون الوعول، تلك البراهين الصلبة، ذات الشُّعَب المسنونة، فهي هِبَة الأقوياء، الناحلين من تجوابهم في المجاهل، إلى بيوت سورا يعلّقونها فوق الأبواب، وعلى جدران الصدارة في الأبهاء بعد طَلْيِها بماء الذهب.

توجهت كوكبة الصيادين إلى المظلة الخضراء، الضخمة، المنسوجة من أغصان شجرات الدردار الثلاث، جنوب الساحة، حيث البئر الكبرى، وحوض سقاية الدواب، ومسطبة الطين القوسية، التي يتخذها الرجال مجلساً في الظهيرات. تداخل المستقبلون بالصيادين. انعقدت حلقة حول كل واحد منهم، ثم تماسَّتْ وتشابكت. عناق بين الأهل والغائبين العائدين. الزوجات لم يعانقن أزواجهن. يُسلّمن فحسب، ويرسلْنَ لفظاً خافتاً فيه تلميح الشوق، الذي سيغدو صريحاً، من ثم، ضارياً، في الغُرف المغلقة. لكن لا عناق في العلن، تحت مظلة الدردار، حيث يتقاسم الصيادون مقاديرَ المتاع، ويفْصلون القِنَى والحوائج بعضها عن بعض فيُعطى الواحدُ ما هوَ لَهُ.

بخطى ثقيلة توجه نديم إلى الجمع. استعرض الوجوهَ والأحوالَ، من مبعدة، في مرآة المكنون المُتَجَلي:

شهقات، وزفرات خفيفة من الرثات المُمْتَنَّة للجاذب السعيد تحت الدردار. لكن عينيه أجفلتا كأنما كان يمشي نائماً فأفاق على مراوح من صورة نينو. هي بدت مُبَلبلةً فظن الأمرَ انبهاراً من قلبها بمفاجأة الفجر. أمُّ بعلها بدت مبلبلة أيضاً. خالها قاوون الشيخ بدا مبلبلاً وهو يحرك شفتيه بتسبيح العاجزِ، السائلِ شفاعةَ الفَهْم. تفتحت الحلقات الصغيرة ليخرج منها الصيادون السبعة إلى ملاقاة ابن الآغا. صافحه البعض باليدين، وعانقه البعض. هنَّأهم بلسانِ مقامات السَّعْد وبَرَكة الجسارة، فيما انعقدَ لسانُ خياله المتماوج تحت مراوح نينو، وتلعثمَ قلبُه: لقد هيَّأ كيانَه لزئير الطيفين اللذين سيتناجيان بعد فراق؛ زئيرٍ صاعد من فلتات الصور في عينيه الخفيَّتين، الناظرتين من دمه إلى مخدعهما المُنتظِر - مخدع نينو وسَرْبَسْت. انتصب وَبَرٌ في أحشائه قبل أن يستدركَ أنه لم يَرَ بعل المرأة الصغيرة، التي - فجاءة - أمسكت بردن عباءته، بوجهٍ مستنجدٍ: «لم يعد سَرَبَسْت، يا أبا رَوْش».

«ما الذي جرى له؟»، سألها وقد بوغِتَ.

«لا شيء، لا شيء»، كرَّرت الكلمةَ تبدِّد عن سؤاله نبرةَ إحساسٍ بكارثة. استعادتْ صوتَها أقلَّ اقتحاماً: «غادر جَمْعَ الصيادين قبل شهرين»، والتفتت إلى أحدهم تستوضحه: «ما اسم المكان الذي أبلغكم بتوجهه إليه، يا يلماز؟»، فانبرى ثلاثة، معاً، يحشدون الحروفَ المُكْتنِزةَ شحماً: «مهاباد».

صدح صوتٌ في مجاهل البرزخ بين الحقيقة والشهوة - صوتُ زينو ميقان الجوَّال على قرى السيف الحجري، من جبال هكار إلى طوروس. صوتٌ في عظام نديم:

« الأغنية إقامةُ الروح ». شيء من هذا انسلَّ إلى ذاكرته إذ سمع كلمة « مهاباد ». لكنه لم يفهم أن تستنجد به نينو، إنما كان عليه عَرْضُ العون وقد طوَّقت نخوةَ الذَّكر المقتدر في بمثولها الأنثوي المعجون بدهن العَبَيْثران وزبدة الفجر: « ماذا له في مهاباد؟ »، سألها بنبرة الأب الموبِّخ فعلَ بعلها.

« لستُ أدري؟ »، ردت بنبرةِ العاجز.

« هل من أحد يقدِّم لعقلي أنا، ولقلب نينو هذه، خبراً عن مقاصد سربست، يا أبناء عَرَق الآباء؟ »، قال نديم عابساً، يجول بعينيه على وجوه الصيادين.

« التقينا في النواحي الجنوبية من جبال أرارات صيادين من أمثالنا، قدموا من أرومية. أكراد من أرومية. حدثونا عن دولة مهاباد. رافقونا ثلاثة أشهر وعادوا يصحبهم سربست، يا سيد نديم. له بعض الودائع معنا هي هنا »، قال أحدهم من غابة لحيته الطليقة، وأشار إلى متاع ملفوف أربعَ صُرَرٍ، وثلاثة قرون.

« ماذا نفعل يا أبا رَوْش؟ »، سألته نينو بلسان المُفْتَقِد.

« أعطوني لفافة تبغ »، قال نديم من غير أن يخصص أحداً بطلبه، فمدَّت إليه أمُّ سربست لفافةً من كيس تبغها المخمل، المتدلي بخيط من حزامها الكتان المجدول. ملأ الرجل رئتيه بالدخان الكاهن يستفتيه جواباً من مقام العلامات. ماذا في وسعه أن يفعل؟ أيرسل أحداً في طلب بعلها؟ لا معنى للأمر. الأرض متاهات بين سورا وأقاليم البرِّ جنوبِ بحيرة أرومية. غير أنه توخى الحذر في ردِّه، فأرجأ التفوُّهَ بما سيكون تعهُّداً منه لها إذا ارتجل الإنجادَ كلاماً. عبرَ وجهَها ببصرِ القلبِ المعانق، الملجوم، إلى قاوون

الشيخ: «خذوا المتاعَ الآن، وليهدأْ روعُ النساء. سنتدبَّر، على مهل، ما يصحِّح هذا الأمرَ العارض». عاد فحطَّ بحَمَام بصره قرب بِرْكة عيني نينو: «إنه فضولُ الشباب لا غير. سيرجع بديناً من ولائم الأفراح في تلك الجمهورية». أحس بخجل خفيف من جملته المرحة، لأن أطرافَ الأخبار المُمَزَّقة، وألسنتَها المتلعثمةَ تحملُ نُذُرَ الدم ووعيدَ الأنقاض: لا أفراح على الأرجح؛ لا ولائم في مهاباد.

في مساء ذلك اليوم، بدا نديم ميالاً إلى مضاعفة شرابه من دمع العنب، صموتاً، بلا شهية إلى الطعام المتجاور أصنافاً على السِّماط. ابتسم مرتين، أو ثلاثاً، لفكاهات أطلقها جكروْ عمشة بقصدٍ إلى تبديد الكدر من عيني ابن الآغا المعتمتين، اللتين تربَّصتا بظلام الصَّدفات المُطْبِقة الكبرى - الظلام المجاهد في مكابدته نوازعَ النُّورِ العمياء. كانتا تستعيدان ليلَ البارحة المؤرِّقَ، وتحفران في سواد الليل القادِم بحثاً عن بذرة المعلوم: «أسمعتما، أيها الكريمان، من المغني زينو عن آخر أحوال مهاباد؟»، سألَ ضيفيه، فأفصح مانو، باقتضاب، أنه التقى أولئك الغرباء الخمسة، قبل مغادرة سيدروك، ليلةً واحدة. كان الحديث حديث الأغاني، وأشعار الأغاني، التي قادته إلى سورا. نقرَ بإصبعه على دفتره المستطيل، المتمدِّد برزخاً من ودائع الأسماء والأنفاس بينه وبين جكرو. التفت بعينيه إلى قاوون الشيخ - آمِرِ السِّحْر العادل، علَّ اللفتةَ تلك تثير إشارةً من نديم نفسه، أو من الشيخ، لإطلاق الكَيْد الرحمانيِّ القابض بيَده الشَّفافَةِ على غمد التوريات. تدخَّل كمال روفا - خازنُ العلوم المروَّضة بأفكار العنب: «هيا يا قنَّاصَ الفتنة»، قال وهو يهز ساقَ

الشيخ الممدَّدةَ في جلسته، فهزَّ الشيخ رأسَه معتذراً: «لا رئة لي اليوم؛ لا لسان».

نينو أسرَّتْ إلى خالها، همساً: لا رئة لي اليوم؛ لا لسان»، حين أبدى الشيخ طَرَفاً من رغبة القنص فيه على مشارف خيالها: «هل من شيء أحمله إلى مضافة نديم، هذا المساء؟»، دامجاً، بقصدٍ، بين أن يحمل منها أسئلةً عن بعلها إلى ابن الآغا، أو أنفاساً من هِبات الأغاني. كانت العائلة مجتمعة، بكبارها وصغارها، في بيت المرأة الصغيرة: أهل سربست وإخوتها هي، يتداولون مقاديرَ العلل، وموازيْن الأسباب، ضاربين أخماسَ التخمين بأسداسه. ما الذي نفثَهُ صيادو أرومية في رَوْع سربست لينقاد معهم إلى متاهة التطريز الصَّفَويِّ؟ أرضُ فارس كلها تطريز صفويٌّ؛ تطريز أكثر بذخاً من أن يُرتدى قماشُه. الصور الموكَّلة بجموح النقش على الغبار الصوفيِّ، الصائر غباراً أمبراطورياً من ثمَّ، تترصَّد الحقائق من جدران البيوت مؤطَّرةً، أو حرَّةً دُقَّتْ فيها الأوتادُ الرقيقة. كل بيت فيه بهاءٌ من مواثيق الرسم ومطارحاته. صوفيون نزحوا من معارج الإشراقات في الأحوال إلى تدوين عقْدٍ للدولة. تركوا خلافةَ الكائن الكليَّة، الموكَّلون بها ذَوْقاً إلهياً، إلى خلافةٍ على أقاليم الأرض الصغيرة. اقتطعوها ثم تذابحوا. سلالةٌ صحَّحت القياسَ الموصوف باللانهائيِّ على النسبة الموصوفة بجدارة الزمن في أن يكون مرجعَ الوجود وفروعه، والعدم وفروعه؛ مرجع الأزل والأبد معاً: لقد أنْزَلتِ الغيبَ إلى مرتبة الزمان، وسوَّتِ النشورَ فكرةً مَعْقِلُها فطنةُ النور الأرضيِّ وذكاءُ الظل. هكذا انبرى الصوفيُّ لشرْع الظاهر حاملاً لقبَ الشاه.

سطوةُ الرسم الصفويِّ، وحدها، حملت الشاهاتِ الصُّوفيين - بلا طرائق في المخاطبات؛ بلا كَشْفٍ مُمْتَحِنٍ - إلى منازل الكُرد. اللونُ المُشرِّعُ لوحدةِ الطبع الكلِّيِّ بَسَط سلامَ النقائض، وأسَّس هدنةَ المتناحِر. دِيْنُ اللون علَّق ميزانَ القيامة، في الأبهاءِ، من البصر إلى العقل، ومن البصر إلى الوجدان. لن تهدأ روحُ «الخان ذي الذراع الذهبية» لو شهدت، في نزهتها الأثيرية المحسوبة على أرقام الإسطرلاب، صورَ الشاهات الصَّفَويين في منازل فرعٍ من نسله الكردي. أمير قبيلة برادوسْت قوَّض السحابَ في مُلْكِ الشاه عباس الأول، وهتَكَ عليه خُيلاءَ المُقْتدر. نسج له بخيوط من وبر الجاموس كوابيسَه الأكثر مرارةً. ولمَّا حشد الشاهُ على معقله في قلعة «دِمْ دِمْ» غيلانَ الأثرِ الباقي من الشَّطْح المفقود، ومَرَدةَ الإستغراق والغناء الذاتيَّيْنِ، انتحر الرجل ذو الذراع الذهبية، وآلُهُ، ورهطُه، ليصير قَلَقَ النوم، ووساوسَ النهار، في البلاطات الصفوية؛ أثيراً حُمَّى؛ صدى معدنٍ موحشاً في رخام المقاصير وألواح النقوش. وها هم فروع من نسل دمه يزينون جدران منازلهم برسوم الغُرَماءِ الدَّارسة ممالكهم منذ مائتي عام!! لن تهدأ روحه، لكنها صَفْقةُ اللون تبيحُ الغفرانَ، ومقايضاتُ الرسوم المهيبة التي تستوجب الصَّفح: «الخان ذو الذراع الذهبية»، أمير برادوست، متسامح في زينة المنازل. لكن نينو، الغافلة عن روح الأمير، لم تكن متسامحة في عنابها على سربست، المنقاد وراء الصيادين إلى أرض النقوش. مَخْدَعها هو الأَوْلى؛ مخدعُها الخطوطُ الأكثر أتقاناً في لوح المكنون. ذراعاها أصلُ العناق ومعناه. صوتُها صَدَفةُ اللؤلؤة

المسموعة، وجسدها هو الجهاتُ وقد انسكَبتْ متمازجةً في حُقٍّ من بلَّور اللحمِ - ذلك المِنْفَحَةِ الذي أَلْزم به اللهُ لبن الضرورات كلِّها. فلماذا توجه سربست إلى مضائق الحجر، في النهايات الغربية لجبال البورز؟. أجهدتْ نينو خيالَها في ترتيب سياقٍ لكلمات اللوعة، من غير عثور على ضابط. كل الصور تنهمر بقسوة فتتهشم، والكلمات تعدو لاهثةً فلا تلحق بالكلمات. دارت من حول البيت. جالستِ الجدران. احتضنت طفليها مراراً. تجنبت النظرَ إلى الجَمْع العائلي. احتمت بحجاب الطبع في مقصورة عزلة الباطن: «لا رئة لي اليوم؛ لا لسان».

دوَّن مانو الجملةَ إذْ نطقها قاورون الشيخ. التمعت وحيدة في سماء البياض المظلم أعلى الورقة، فتنفَّس القلم. «لقد نضب نهره»، علَّق جكجكان بحروف بطيئة على اعتذار الشيخ عن عجز الكلمات، فروَّض مانو السخريةَ بآية من امتنانه: «أعطانا السيد قاورون ما لا ينضب. لو اكتفى بذلك لاكتفينا نحن أيضاً».

«ليس بعدُ»، تمتم نديم.

تدخل جكرو، الدليلُ المنتظر هبوبَ الجهات الأبعد على خياله: «أمامنا مسيرٌ إلى بتليس».

«لا بتليس يا جكرو. نرجع إلى سيدروك»، قال مانو.

«والأغاني؟»، ساءله جكرو، فرد حاملُ النَّحْوِ على بردعة الترجمة، من اللسان العربي إلى الكردي:

حنجرة واحدة في سيدروك - حنجرة علي، ابن الأعمى. ماذا في وسعها أن تحتمل من شراب الحفظ، الذي دوَّنته بالحروف في دفتري هذا؟ ذاكرةٌ تحفظ ما خطَّه القلمُ

هذين اليومين لن يضيرها ألا تحفظ شيئاً آخر ؛ لسان يردِّد ما خطَّه القلمُ هذين اليومين لن يضيره الخَرَسُ بعد ذلك.

ومضٌ ذهبيٌّ تفلَّتَ رقيقاً من فم سربست، الداخل من بوابة الغمام إلى حلم نديم تلك الليلة: «اقتلني»، قال الشاب. نابُهُ المغلَّف بالذهب، على عادة المزيِّنينَ وَضَحَ العظام وراء ستار الشفاه، هو الذي دلَّ عليه. كان وجهه ممحوَّ القسمات وراء كتف نينو. ولمَّا تكلم خرج الصوتُ من التماعة الذهب. كلمة واحدة لا غير، أفاق منها نديم ممرَّغاً في عَرَق بارد. ظل يقظان بعد ذا حتى أباح له الفجر شرعَ الخروج إلى وجدان المرئيات. قرع بابَ كمال روفا على تُخْمٍ من ساحة داره الشاسعة، واصطحبَه نعسانَ إلى فَلَك الكروم.

في الصباح حملت ابنتا نديم الصغيرتان صَحْفَةَ الإفطار، وإبريق الشاي، إلى الضيفين في غرفتهما. تنحنحتا بصوت عال قبل النقر على الباب ليعرف الرجلان أن الطارقَ أنثى. فتح جكرو مضيقَ الظلِّ لهما فانزلق إلى الغرفة المعتمة قليلاً قيدومُ النور. تبادلوا رذاذَ التحيات الندية، واسترقوا النظرات الأكثر خطفاً، الصقيلةَ كَوَدَعٍ واشٍ بآجال المحظورات. سألهما دليلُ المعاقل التائهة إلى المعاقل التائهة عن أبيهما فأنبأتاه بخروجه المبكر. ولمَّا اقتعد مانو، وجكرو، البساط تتوسطهما الصَّحْفة أكَّدا، بلسان العزم، على وجوب مغادرة سورا. تشمَّما بخطم الحيوان الشريك في كيانيهما يبوسةَ النفاد من خزائن قاوون الشيخ. هكذا أحسَّ مانو في الأرجح، وهكذا أحسَّ جكرو ما أحسَّه مانو في الأرجح. ثم، إذْ أنهيا إفطارَهما، توجَّها بأيدٍ معقودة خلف ظهريهما إلى مسلخ

الضفادع كي يُنْبِئا جكجكان بعزمهما، فألفيا الرجلَ الكسول العينين معتكراً. عادت المركبة الآلية، التي تحمل كنوز اللحم النهري الأبيض من سورا إلى قطار سيرته، بالبرميلين كما هما. لم تُسلَّم الشحنة لأن الطريق شهدت صدامات بالبنادق بين الدَّرك وبين جمع من غرباء مذعورين، بحسب الرواية المنقولة عن أنفاس السائق. طلب الخيالةُ الترك إمدادات من سراي بلدة بشيري. قتلوا ثلاثة، وأسروا ثمانية، وهناك آخرون متحصّنون بدغل الشربين. ليس معهم ما ينبىء بتهريب تبغ أو قماش. هم أناس تائهون، في الأرجح - قال السائق، لكنه لم يفهم أن يحمل أولئك التائهون بنادق معهم. التخمين - بتفويضٍ من خيال التأويل في علومه - أنهم يقصدون الثأرَ لأمرٍ ما. لكن السائق سيؤكد أخباره من ثقاتٍ، في رحلته الثانية: الغرباء كانوا هاربين من إيران؛ من جهات في بحيرة أرومية، وقد انفصلوا جمعيْنِ، سلك أحدهما على نداء الشعاع الأرضيّ شرقاً فسقط في كمائن الدرك الجوالة، وسلك الآخر شعاعَ النداء الجبليِّ شمالاً، في اتجاه أرارات. وثَّق السائقُ، بختم الجلاء الذي لا لبس فيه، خبرَ الجمع الأول، أما خبر الجمع الثاني، فلن يُروى إلاّ عن ألسنة نوتِيِّي المتاهات، بعد سنين:

ذلك الرجل القصير قليلاً، العابس من رصده الوقتَ العابس، الواقف وراء الميزان الحديدي، هو الذي سرح بالجمع الثاني في مغاليق الثلوج الكبرى على قمم زاغروس. تساقطت الأصابع المتجلدة، والتصق لحم الأقدام بالأحذية. التفافات كَهمَّةِ اليأس من تركيا إلى إيران، ومن أيران إلى أرمينية، ومن أرمينية إلى تركيا، ومن

تركيا إلى مشارف اللامكان السحيق في عبث المصائر. كان على الجمع أن ينجو من قيّافي الشاه، الذين لم يكونوا ليتوقفوا إلاّ على البوابة الروسية. وقد نكصوا عن آثار فرائسهم، حقاً، حين أدركوا أن الجمع يقودهم إلى حيث الكمين المموَّه برماح الجليد، وحيث يرتدُّ صدى زئير أسد الأكاسرة مواءً مختنقاً في الهواء الصلد الأمميِّ.

فتحت موسكو الباب للرجل القصير قليلاً، الذي أنجد جمهورية مهاباد بعشائره من كردستان العراق، ثم ارتدَّ بسقوطها شمالاً. أعطته مخدعاً ليُدفِّيء الوقتَ المتجلد في مسيرته الأسطورية، وقدمت له، في الصباح الثاني، مع إفطار الزبدة والشاي، طلباً بأن يعلن حكومةً في المنفى، فأحجم الرجل، فاقْتِيدَ إلى مزارع الدولة. نُصِب حاكماً على ميزانٍ حديدٍ يزن به سلالَ الفاكهة بعد قطافها.

فلاَّحات حمراوات الخدود، ذهبيات الشَّعر، ممتلئات، ثخينات العظام، مررن أمام ميزان الملا مصطفى البرزاني - المُدقِّق المستوحش في المقادير المحمولة من خيال النبات إلى الكينونة. الثمرُ مجازُ المنفى وتوريتُه السُّكَّرية. والكرديُّ لا يقرأ الخُلاصات، بل يمضي من الفروع إلى الفروع، ومن الكثرة إلى الكثرة، ومن التفصيل إلى التفصيل. الكثافة تخصُّ الثمار وحدها: اللبُّ المُخْتَزَن، والعصارة المتجمدة بلا جفاف، والسُّكر المُخْتَزَلُ إلى جوهرٍ يروِّض اللسان. الثمر حماقة إذا تأمَّلها الكرديُّ من كثافة كِيانه هو - الكثافةِ المجبولة من دَفْع الأثير إلى الأثير بلا نَفْح، بل باستدراج الخاصِّيات المتنازعة في الحقيقة الواحدة إلى عمائها الأليف، العريق. الثمرُ زوالٌ، والزوال، وحده، يوزن

بالمثاقيل، ويُحْسَب بالأرقام فأية هاوية جمعت الملا مصطفى إلى الفاكهة يقايض المنفى بأوزانها، ويستعرض في السلال المحمولة إلى ميزانه بروقَ لحم الفلاحات؟ هي سخرية ستالين في الأرجح، والمُلاَّ لن ينسى ذلك.

لم يعمد جِكجكان إلى المبالغة في اعتكار مزاجه حتى لا يُحمِّل الرجلين، مانو وجكرو، أسوَ قد يعزوانه، بفطرتيْهما في قراءات الفأل ونقيضه، إلى وجوديهما في حيِّز تملُّكَهُ سوءٌ حاصلٌ. فطرة البخت، والفأل، من الأبخرة الدافئة، المتولِّدة في الفراغ الرقيق الفاصل بين شغاف القلب وباطنِ عَظْم القَصِّ. حين تعرضُ الفجاءةُ ما تتطيَّر منه الفطرةُ ينقطع البخار الدافىء، ليعودَ الفراغُ بارداً كنشأته الأولى قبل أن يغدوَ مَلاءاً بمشاحنات العناصر إذْ تآلفت نسيجاً وجوداً ذا حركة حيَّة. كل اصطفاق من أبواب المعقولات العادية، والأليفة، بيد المصادفة، يثير إجفالاً. المكنون العادي، الرتيب، الحاكمُ مَجلى البرهة العادية في يوم المرء وساعاته، هو القياس الأمين في تقدير العافية الصادرة عن الفطرةِ تلك، مالكةِ البخت والفأل. شخص مَّا؛ طير مَّا، صوت مَّا، قد يبلبل البرهة المطمئنة إلى عافيتها العادية فيُحمِّله المرءُ وثبةَ المصادفة بخُفِّي الشرِّ إلى حيِّز السَّلامة. ويحصل أن يُحمِّل المرءُ نَفْسَه كباعثٍ على تدبير المصادفة الغادرة إذا وقعت بإشرافٍ من حضوره على عافية البرهة لدى شخص آخر، فانتكست تلك العافية، أو اختضت، أو تقوَّضت. لربما لن يعزو مانو، وجكرو، خللَ الأسباب الثابتة في عُرف جكجكان إلى نَفْسيهما بتمنُّع الخير، ذلك اليوم، عن الجري مجرى نَقْلَةِ العارف بالكمائن. فالخير، ذاته،

لاعبٌ ذو حيلة: يتراجع كي ينقضّ، ويتشتت كي يطوِّق، ويتساهل كي يغنم، ويتمارض كي يصغي إلى منازل العِلْم، وينام كي يحلم بالشرّ تائهاً. لربَّما. لكن جكجكان أعفى مصادفةَ عودة البرميلين من غلواء المعاني، فتَبَشْبَشَ، وشدَّ ثورَ المرح من خطمه إلى حقل لسانه: «لِمَ أبكرتما؟ أتسترِقان على مهنتي؟».

«جئنا ننبئك بعزمنا على مغادرة سورا»، قال جكرو، فردَّ الرجل الكسول العينين، الممتلىء الخيال بضفادع ناطقة في أنهار البرزخ: «الأمر شأنكما. لكنني سأسعد لو بقيتما أكثر. سورا صغيرة ومملَّة».

«وددنا أن نبلِّغ السيد ابن الآغا، بيد أنه بارح البيت بُكرةً. أين تراه يكون؟»، قال مانو، فحدَّق فيه جكجكان بعينيْ طائرٍ: «نديم يحب النوم. أرى قلبَه الساهر طرقَ البابَ على عقله».

«إنْ يسهر القلبُ يسهرِ العقلُ أيضاً»، قال مانو مستعرضاً لوحَ المقابسات الحكيمة، فمسد جكجكان على شاربيه. حَمَّلَ أجفانَهُ الكسولةَ ثِقْلَ الخِفَّة: «إنْ تسهرْ هاتان» وأشار إلى خصيتيه «يسهرِ القلبُ أيضاً. العقل وساطة تأتي فيما بعد، في الأوان اللازمة أو بعد فواتها».

قهقه جكرو. ابتسم مانو في حياء. تمتم «رجالكم في سورا، يتحدثون بلا حرج عن أنصافهم السفلى»، وأشار بيده إلى مادون سرَّته، فصحَّح جكرو ملاحظةَ رفيقه: «في سيدروك أيضاً، يتحدث الرجال عن أنصافهم السفلى - مَوَاطِن العقل». همهم مانو وغمغم بحروف لا تتساوق. شطرَ الهواءَ بيده المهوِّمة يتقرَّى العقلَ: إنه يتكوَّر، أبداً، في فراغٍ

مًّا. العقل موعد على مأدبة من كلمات، أو لذةٍ، أو قَتْل. وعقل نديم، في تلك البرهة المنسوخة عن برهان الثرثرة بلا جدال، يبلغ ذروته ضراوةً، في الأرجح، لأنه استخلص أن امرأةً مًّا هي فكرته التي من دونها لا يكون عقلاً. وامرأةٌ مًّا، إذ تكون فكرةَ العقل خالصةً، فإنما يسكب الرجل قلبَهُ فيها من اللذة؛ يسكب كبده سائلاً، ويسكب أحشاءه، ورئتيه، وعظامَه، ويقْيَ عظامه فيها من اللذة، حتى يرشح المنيُّ من مسامها. فأين نديم كي يرتّب من غبار المصادفة العابرة على أغاني دفتر مانو قولاً يهذي متعةً، وهو المستيقظ، في أواخر كهولته، على بيدر نينو القمريِّ؟. عطّل جكجكان عبورَ الحقائق في برهةٍ من خياله. تأمّل الباطلَ المُخْبي - خازنَ علوم التخمينِ النبيلة، ونطق: «هو في الكروم. لا ينهض نديم باكراً إلاّ من أجلها. تعالا».

بعد المنحنى الأرضيِّ الرقيق، غرب تخوم سورا، نهضت في الخيال البُنّيّ للكروم أبراجُ طينٍ متناثرة، كل اثنين أو ثلاثة في حيِّز واحد تتخاطر بشفاعة عناصرها الأولى - مهدِ الخميرةِ الخالقة. أبراج عالية تتقاطع فيها أعمدةٌ خشبٌ نافرة الأطراف من جنبات الطين، طبقةٌ فوق طبقة. وفي الطين ملاذاتٌ كوىً للحمام في صفوف دائرية هي عيونٌ وشُرفاتٌ تستطلع منها الماهيةُ خواصَّ الخروج على حصانة الأرض: الطيرانُ نَقْضٌ للميثاق. الأرضيُّ جاذبٌ من حصالة الثِّقل المُتْرَف في العناصر، المتواطئة بآلات الأهواء على الشَّفَافةِ - تلك الرسولة العدمية؛ والطيران امتهانٌ للأسباب التي وكّلت الأرضيَّ، وحده، بشرعة النهوض مَرْجِعاً للكينونة الناطقة:

هكذا، مُذْ وُجِدَ الطيرانُ، انتقصتِ المرجعيةُ.

سيكون على الوجود، في أرقه الجامح، أن ينصرف إلى المُعضلة: كيف يتدبَّر اتّفاقاً، بلا صخب، يحفظ نسبتيهما إليه - نسبةَ الطيران ونسبةَ الأرضيِّ، بالقَدْر الذي لا يخلُّ بالمَراتب؟ الأرضيُّ مضمونٌ في حقيقته. الأرضيُّ من أَعراض الوجود؛ خَتْمٌ من أختامه؛ نشيدُه، وامتداحُه، وهجاؤه؛ رسْمٌ من رسوم الإحالة عليه كي يتبدَّى الوجودُ، في نسبةٍ منه، شكلاً. إنما الطيران ليس في ماهيته قياسٌ إلى وجود. الطيران ليس وجوداً. كان صوغاً في مَنْشَئِهِ العريق من نذير الوجوب الحافظ للصَّوغ في ذاته، بلا إحالة على وجودٍ أو عينٍ؛ بلا إحالة على عَدَمٍ، أو ممكنٍ في عَدَمٍ. كان صفةً للمراتب في الحقِّ قبل أن يكون الوجود عِلْماً في خيال العدم ذاته. الطيران إحالة إلى الشاغلِ في شأن الحقِّ الكُلِّيِّ بآلة الجناح، أو بالعَطَالة المطلقة للخِفَّة. الملائكُ تطير. كان ذلك دأبُها في الطيران منذ ما لا يعلمه الأزلُ من نَفْسه، ولم يكن طيرانُها وجوداً. كان - ثمَّتَ - الفراغُ العَطالة؛ الغمامُ العطالة؛ العماءُ العطالة. عطالة فوقها طبقاتٌ من قرائنها، وتحتها طبقات من قرائنها. عطالةٌ أحوالٌ بلا حاويةٍ. عطالةٌ رَفْرَفٌ هي إقامةُ العريق في ماهيَّته منفصلاً عن الجواذب - تلك الحضوراتِ المُفْتَرَضة.

الوجود في مأزقٍ إذاً، ويجاهد، مثلوماً، أن يتدبَّر بآلة أَرَقِهِ اتّفاقاً لا يخلُّ بالمَرَاتب، غير أن الحَمَام المهيَّم في سمت الأبراج الطينية لم يكن مهتمًّا بالتصاريف المُغالية في مجادلات العقل. كان يطير وحَسْبُ. يستعيد للكونِ العَرَضِ، القائمِ مقام الجوهر المفقود أو المتقوِّض، أريجاً

من خمائل العماء السَّيد. وعلى مبعدة أشبار من طيرانه كان نديم يقتعد الترابَ الأحمر، الرطب، وهو يسرد لكمال روفا كيف التقى زوجته نوفا، وهي طفلة بعد، عائدةً من كَرْم أبيه الآغا صفوت ميرسين: «ربما كنتُ، آنذاك، في السادسة عشرة. وجدتُها تضم سُترتها المقصَّبة الطويلة بقوَّة على وسطها، وإحدى يديها مضمومة على الصدر. عبرتني سريعاً مطأطئةً، مُنكَّسةَ البصر إلى الأرض. لمحت عيناي ارتجافاً ما بين صدرها وبطنها حيث ضمَّتِ السترةَ. وإذِ استعدتُ الصورةَ أكثر، بإلحاحٍ، خيِّل إليَّ أن شيئاً ما كان قد برز من الفتحة غير المكتملة الضمِّ. يا إلهي، لحقتُ بها حتى سبقتها فوقفتُ معترضاً طريقها. حاولتِ الإلتفاف جانبياً لتجتازني فأمسكتُ بردنها. انفلتت قبضتها عن صدر السترة فانبثقت حمامةً طائرةً في هلع مدوٍّ. كانت نوفا قد سرقت الحمامة من هذا البرج». رفع بصره إلى الثلاثة القادمين في اتجاهه، وتمتم: «كمال. ضيفاي سيغادران سورا. هما قادمان لإبلاغي».

جلس الرجال الثلاثة على الأرض الرطبة قليلاً، في مواجهة نديم وجليسه كمال. تبادلوا علب التبغ بعد كلام غير متجانس عن الهواء والأنواء في فصل كالذي هم فيه، ثم اخترق جكجكان، بتفويضٍ انتدبَهُ به السَّردُ اللَّيْن ككسل عينيه، منبتَ الإستعارات الملجومة: «يأتي الخير، ويذهب الخير فتبقى ذكراه الطيبة».

حدق فيه نديم. تمتم: «يا نمر الضفادع. الخير الذي يأتي لا يذهب أبداً. تتعاقب عليه مفاسد الآدميّ، لكن الخير يبقي. لا. لا». هزَّ إصبعه أمام أنفه: «أنا مخطىء قليلاً. لا

يأتي الخير، ولا يذهب. هو أبداً هنا. نحجبه نحن، أو نكشف عنه». أسند ظهره إلى جدار البرج منتشياً بحبكة شرحه الصارمة. تنهَّد جكرو. شحذ لسانَ الدليل بمبرد القرائن: «الخير مثل بَعْر التيس، إذا كسرت البعرةَ وجدت فيها حَبًّا وبزراً لم يُطْحَنا. ذلك الحبُّ والبزر يأكلهما الطير فينتفع. آكِلٌ يأكل من مأكول».

«لم أفهم المَثَل»، قال كمال روفا. تدخل جكجكان:

- ضيفانا سيغادران سورا.

«وماذا عن إذن التجوال الذي بعثنا في طلبه من سراي بلدة بشيري؟»، ساءله نديم، فردَّ مانو:

- الهواءُ الذي جاء بنا خفيفاً يأخذنا خفيفاً يا سيد نديم.

«الهواء» تمتم نديم. شَخَصَ بقلبه إلى المعارج اللامرئية. فتح البلوراتِ البيضاء للمعلوم المكنون عن بلورات بيضاء للمجهول المكنون. تسع رياح تململت في جوارحه التسع، من القدمين حتى الرأس. لم يكن خياله يستقرُّ على صورة. كيانُهُ ينزل سُلَّم الهيولى المحيطة بزمردة الجوهر المكسورة. نهض واقفاً وهو يُسْقِطُ بصرَهُ على مانو: «لقد سَرَقْتَني» قال، ومدّ يده مصافحاً: «سيجهِّز لكما كمال متاعَ الرحيل، ويهيِّىء البهائمَ ويزوِّدها بالذي ترغبانه. سأبقى هنا».

نشرت نسائمُ سفوح الجودي على الرجلين أذيالاً من كتَّان. سمعا خَفْقَ قلوع السفينة المدفونة في خزائن الحجر، منذ غادرتها الخليقة إلى سهول بوطان. كلٌّ منهما نظر إلى الآخر مُنتشياً وهو يضع يده خلف أذنه ليلتقط الصوتَ أنقى في هبوبه من الكمين الأزليّ. سفينة الطوفان الأول. نَفْخُ الأرواح في قواقع البحر الأول. الحقيقة المشرفة من

الصارية على أهوال بناتها المرتعدات متعةً. الله والكيد؛ الغيب والحيلة، كلهم معاً. والجودي يرفرف شراعاً واحداً من شرق اليقين إلى غرب اليقين، بالهبوب القويِّ من رياح الحجر. «أعطني تبغك. نفد تبغي» قال جكرو لمانو، فأعطاه معلِّم سيدروك علبته الفضية. دوَّن الدخانُ عبور الرجلين بدوابهما الجسر، أسفل الوادي المتصل غرباً بالهضبة ذات الجرح المنحوت من حجر أبيض في هيئة رأس الذئب الأغبر.

بعد فرسخ من المشي، في رحاب السفح الكريم، انعطف الرجلان جنوباً يستقبلان جزائرَ الأنهار - تلك السهولَ المقرونة بوثاق النقائض الأنيسة. دحرجا قلبيهما على صفيح الأفق. «يحدثني عقلي أن الأغاني التي قرأها علينا قاورن الشيخ ليست له»، قال مانو، فلم يُبد جكرو اكتراثاً:

- ما همَّ لمن تكون. الأغاني صناعةُ اللسان إذا نفخ عليه الفراغُ.

تأمل مانو وجه صاحبه جانبياً: كان جكرو يحدق بعينيه النهمتين في الكتلة المنبثقة من رماد المسافة بعيداً، عبر الأرض الحمراء، المتصلة بنهاية الأحراش. تقدمَّتِ الكتلة. تكوَّنت أكثر في اقترابها: شاب حاسر الرأس على بغلة. سَلَّم بإيماءة من الرأس واجتازهما، مخلِّفاً ومضةً ذهبية من نابه المغلَّف بمعدن النقاء الناريِّ، لأن فمه كان مفتوحاً من الإعياء.

لحقه مانو بعينيه قليلاً، ثم إعتدل ثانيةً على ظهر جواده. رفع بصره إلى عرائش السماء الدخانية، المتراصَّة،

التي تتدلى من عناقيدها أثداء الغيوم. قال: «انظرْ»، فسرح جكرو يتعقب ببؤبؤيه رفًّا من طيور القَبَج يقطع، بطيرانٍ كالمدية، رغيفَ الفراغ العريق.

(٣)
مُحاكاة العَدَم

وصلت كوكبة الرجال، التي يقودها زاده بزربادي، إلى البطحاء المنبسطة شرق هضبة «كايي خودان». كان الوقت عصراً يجره الغيمُ الأسود سَخْلاً في اتجاه المغيب الشهواني. بروقٌ مُنذِرةٌ زرَّرتْ قفطانَ الأفق البعيد بأناملَ فضَّةٍ، فارتأى القيَّاف شهبور أن يخيموا: «توقَّفوا هنا. سأستطلع صعيداً من الهضبة يصلح أفضلَ لمبيت الليل». نخز جواده. دار نصف دورة حتى أشرف غرباً، على السهل المتدحرج، في مرح، إلى ضفة النهر المُمْسِك برسَن الجهات. استطلع، من هناك، كورةَ سيدروك متفتِّحةَ البيوت كمآتٍ تحت بلَّور السماءِ الرصاصيِّ: «نَسَماتُ العراء الآهل أكثر أُنساً، وترقُّق الفجاءاتِ». هكذا خمَّن عقلُ التدبيرِ الجامع عناقيدَ الفراسة. مضى إلى الجَمْع يقوده، من ثم، إلى حيث تستطيع العين أن تسترق النظر على الأفول وهو يجرِّر الأشكالَ من سلاسل المرئي. انتصبت خيمتان، وأوقِدت النارُ بلا حذر.

تاه شهبور خمسة أيامٍ عن آثار فرائسه قبل العثور على روث البغال التترية، ثانيةً، في مسلكٍ وعرٍ باتجاه «كايي خودان». في الجزائر النهرية، المنبثقة من حصارات فروع دجلة العليا، ضيَّع القيَّافُ خواتمَ أسرار الثقل التي تمهر الترابَ بوشمٍ حيٍّ، أو تدحرج الحجارةَ عن أعشاش خيالها.

أشْكَلَ عليه، - وهو المتجاسر على الجزم أنه قادر على التقاط آثار غيمة متلاشية قبل أربعة أيام، في أي صَقْع من أصقاع السماء، - ما لا يقدر على تفسيره. ففي المنحدر الترابي الرقيق، المتصل ببرزخ من الأرض الجير على فراسخ من غرب دهوك، بدأت الآثار بالنقصان تباعاً: حوافر خمسة بغال تغدو حوافر أربعة؛ ثلاثة؛ اثنين؛ بغل واحد؛ ويبقى من ثم حافران، فحافر واحد، فالتلاشي. أمر كالمزاح. قَهْقَهَ الجِيْرُ بين أنامل شهبور وهو يفتِّته ليستحصل كَشْفاً: «إنه انتقام المرئيِّ المعلوم» تمتم المترجم زاهدان نوري معابثاً، فضرب القيَّاف براحته على الأرض: «بل هو ارتباكُ المرئيِّ المعلوم». نزل زاده عن جواده يتأمل آثار الحافر الوحيد. نثر عليه رماد لِفافة التبغ: «هذا امتحان»، قال، فردَّ القيَّاف:

- هذا شأني أنا يا زاده. إن لم أجد آثارهم ثانيةً سأبتكر آثاراً ولو على باب جهنم. وسأكلِّم البغالَ الخمسة غير ناقصة.

«بأية لغة ستكلم البغال، يا شهبور؟»، قال زادهْ.

«بلغة الحياء يا زاده»، رد القيَّاف.

خمسة أيام فتحت متاهاتُ النور الخريفيِّ لكوكبة الجياد أبوابَ الغيم الدائرية. كانوا إذا غادروا مكاناً ما لبثوا أن عادوا إليه. أطبق قلب زاده، مراراً، بأسنان الغيظ على رغيف العبث، وكاد جواده يصدم صدرَ جواد شهبور، في مجابهة معلنة، لولا نزول أخيه رامي عن فرسه ممكساً بلجامَيْ دابَّتي الإثنين فتباعدا. «نحن نتبع آثارنا. أيُّ غِرٍّ يفعل هذا بنفسه؟»، صرخ زاده، فاهتاج شهبور: «إنه عِلْمٌ ليس في

مقدور تأويلك يا زاده. أن تتبع آثارَكَ عِلْمٌ».

«أفي الأمر خطأ في التقدير لا تصارح نفسك به، ولا تصارحنا؟»، دمدم زاده، فردَّ القيَّاف:

- أحسبُ الوجودَ ذاتَهُ خطأً في التقدير.

في التُّخم الشمالي من الأرض المدحوَّة على زرابيات الحصى، على مبعدة نظرةِ خُطافٍ من «كابي خودان»، ظهرت الآثار، ثانية، على صورة اختفائها تباعاً: حافر بغل، ثم حافران، فأربعة حوافر، فثمانية، فإثنا عشر، فستة عشر، فعشرون. ضرب شهبور حجريْ صوان، أحدهما بالآخر، فأورى شرارةَ الجماد الدفينة: «عقدتُ ميثاقاً مع هذه الآثار»، قال، وأعادهما إلى خُرجه.

نشر المساءُ، بيدِ الساحر، هبابَ الكثيف المُشْكِل على الهضبة والبطحاء من حولها. انفصم رباطُ الظاهر، وتحلَّلتِ الشَّفافاتُ راجعةً نبيذاً إلى إبريق المكنونِ الحافِظ. وحدها النارُ الملجومة من نقص غُثاءِ النَّبت اليابس جاهدت، في إكبارٍ للعماء المهيمن، أن تقرأ للوجوه، في حلقة الرجال الملتفعين بالمعاطف من رؤوسهم حتى الأرض، فيما سرَّح الدخانُ الرطب بأمشاطه أعرافَ الخيالات التي تبادلتها العيون. كانوا صامتين، سارحي الهِمَم في اتجاه الأكيد المستور، المطوِّق بأغصانه الحجرية هِرَرةَ الأقدار. ويحسبُ الظلامُ أنهم لو أصغوا لسمعوا مواءً في قُفَفِ أعماقهم، لكنهم ركنوا إلى خَدَر الإسترخاء بعد مسير طويل، وارتخت ذقون البعض على صدورهم ولِفافات التبغ المشتعلة لا تزال في الأفواه.

صوت رقيق الأجنحة عبر الهضبةَ همساً، ثم علا قليلاً

ثم تَكسَّر وارتدَّ همساً من جديد. «هذا غناء» تمتم شهبور. همهم الرجال. «هو من جهة النهر الذي رأيناه»، قال رامي بزربادي. نهض أربعةُ مستطلعين. تقدموا ثلاثين ذراعاً في الفراغ الدائريِّ. «هناك نار موقدة» أعلن بعضهم لبعض، ورجعوا. أخبروا الآخرين. تساءل زاده: «أيُّ خَبَل هذا؟ يغنون في العراء البارد، وسط الليل؟».

«نحن في المساء بعدُ» ردَّ أخوه فيروزي.

سقطت حصاةٌ من مرمر الباطن على خيال زاهدان نوري المُرَيَّش فأفاقت طواويسُ المعلوم. مرَّر الرجلُ الترجمانُ راحةَ يقظته على الزخرف النافر في الغناء المتهادي أنيساً، رطباً، أملسَ عليه دهنٌ من بزر مِسْواكِ الليل. قام كأنما انقذفَ. مدَّ ذراعيه على جنبيه: «اسمعوا»، قال بنبرة آمرةٍ. علَّق السكونُ أَحشاءه على شاقول البرهة، وتحفَّزت الأسماع. أرخى الترجمان ذراعيه. شَهَق بإحكامٍ خلخلَ الهواءَ مدى أربعة أشبار: «أعرفتم مَنْ تسمعون؟»، قال محتفظاً بخرزة العارف على لسانه.

«نسمع الجنَّ»، ردَّ صوتٌ متفكِّهاً.

«نعم»، قال زاهدان، وقرفص في مواجهة عيني زاده: «أشْعِل لفافةَ تبغ تبترد بدخانها رئتاك».

«حسناً»، ردَّ زاده، وأخرج علبة تبغه: «ماذا هناك؟».

«إنه صوت زينو ميڤان، مغني مهاباد»، قال زاهدان نوري، فأومضَ نصلُ الدم في محجريْ زاده.

قرب نار غصون الغَرْقد فَتَلَ زينو ميڤان، بقطرةٍ من زيت الشهوات الرقيقة، خيوطَ صوته. ألحَّ عليه الأعمى جميل فاركو، ذو الخيال العابس، بتواطؤٍ صامت من كريم

بيرخان، أن يريهم لؤلؤةَ اللسان في صَدَفة حنجرته، منذ غادر مانو، وجكرو، سيدروك لجلب معادنِ الصوتِ الجاذبةِ - تلك الأشعارِ المطهوة على نار الكمائن العذبة، والمُعَذِّبة.

رضخ المغني: «لديَّ سبعة مثاقيل من طبقة الغَزَل لا أملك غيرها. الأغاني الأخرى لا تناسب الأحوال»، فانبرى الأعمى مواسياً: «سبعةٌ من أيام الله هي مفتاح كل هذا اللغز».

«أي لغز تعني؟»، ساءله سَرْعو المُفْتَتِن باقتناص النقائض، فرد الأعمى:

- الرقم.

«وما المُلْغِز في الرقم، يا غرابَ العَدِّ من واحد إلى اثنين»، ساءله سرعو، فرد الأعمى:

- هو هذا تحديداً: الإثنان.

«أين تعلَّمت العدَّ حتى الإثنين. يا فقيه اللون؟»، ساءله سرعو، فردَّ الأعمى: «على هاتين»، مشيراً إلى خصيتيه.

«لقد تأكدتُ، إذاً، أنك تعلَّمت العدَّ حتى الإثنين»، قال سرعو، فَهَأْهَأَ الأعمى ذو الخيال العابس:

- بل حتى آخر رقم في نهاية الأبد. خصيتاك ضعيفتا الذاكرة، يا بَظْرَ الضَّبِّ.

كادت النِّعال القاسية تتقاذف بين سرعو والأعمى لولا المقايضة النبيلة من زينو: «لا تتشاجرا، وأنا أغني لكما ثمانيةَ مثاقيل من طبقة الغَزَل والرِّضى».

كان قد استقرَّ الرأي بالغرباء الخمسة أن يغادروا سيدروك في الصباح، بعدما هدأت الحمَّى المسكونة بلقالق الهذيان على مخدة شريف رندو، المحتضن بقوة أربع لفائف جلدية سوداء: «جزَّارون مَهَرةٌ في تقطيع الضوء شرائحَ كطحال

اليربوع»، ذلك ما كرَّره، بوتيرةٍ مرتجفة، وهو يفتح، كل ليلة، لفافة من لفائف الجلد تلك، ويستخرج منها أوراقاً مستطيلة يعكف على قراءتها، في ضياء السراج المنخفض الفتيلة حتى الإعتام. لم يكن يرى الكلمات في الأرجح، بل يستظهرها من جنابِ الحبر الدفين في لغة المخاطبات المتمثِّلة بالحيوان. كل حيوان فكرة، أو تورية. كل حيوان جاذبٌ من جواذب المعنى الأكثر حَذَراً. هذا ما توخَّاه القاضي محمد، رئيس جمهورية مهاباد المنحورة، في رسائله إلى عشائر الكرد في أقاليم دَزَه، ورَنْدوز، وبرزان، وأرومية، وهكَّار، وحتى بتليس. استنسخها شريف رندو بخط يده، وأرسل الأصول الممهورة بختم الجمهورية الوليدة من رحم الغمامة، مع السعاة، إلى طيور الشعاب وكواسر الأحراش: «بسم الله. أخاطبكم بلسان الشقيق الآخر، الذي لا يظهر لكم معناه في طبعه الأول، بل في طبعه الثاني». هكذا كان يسوق إلى كل عشيرة طيراً، أو دابّة، جوهراً من شعاع الكائن الأعجم يصيب الخيالَ المتَّقدَ بأملِ اللغز في الموجودات الحيَّة: «انظروا النَّحام لا يتجلَّى إلاَّ رفوفاً؛ انظروا اللقلقَ لا يبني إلاَّ في الأعالي. ها مَدَدْنا إلى السماء منارةً من حجر الأسلاف وننتظر لقالِقكم». مصكوكاتُ التصوير الرقيقة تجمع العشائرَ، العصيَّةَ على الإنقياد، في مهبِّ الأمثال، التي أعاد شريف رندو، أميرُ البريد وأقاليمه، قراءتَها على خيال العماء المنبسط في الطبقة الثانية من أعماق الإنسان، فأغرقَ الفراغَ الهيولي بالخلائقِ العجماءِ – سليلةِ مهارات الحيلة. ولمَّا أقعدتْهُ الحمَّى في بيت كريم بيرخان محروراً، خرجت به الإشراقات الحيوانية إلى معارج الكلام الدفين يغرف منه

الفراغَ السائلَ ويسكبه في قوارير الشَّكل، حتى اكتملت له بستاتين من النقوش الأزلية على الرخام الأزلي، فانحدر إليها في بواطن الحروف وظواهرها يقوده كلُّ حيوان في الحرف المتَّصل به من جهة المعنى: «هذه يقظتي» كان يقول كلَّما حاول واحد من صحبه مواساته في مطاوي الليل، حين يشتدُّ به عِراكُ الحقائق متدحرجةً في سحابات دمه ذات الرنين النحاسيّ.

«لكل امرئ حُمَّى حيوانٍ» يردِّد هَوَارْ حاجي، ذو اللحية المُحَنَّاة، وارثُ التخاطر مع المياه. وهو ما يؤكِّده ناظرُ الأباريق حميد داهي. أحوال شريف رندو ألْهمتِ المناظراتِ بين جلساء كريم أن تنحو إلى مناجاة الأسرار بلسان العلوم المعقولة. «في كل حمَّى أحسُّ بي فيلاً فحلاً»، يتهكم جميل الأعمى، فيعترضه سرعو: «نعم. يتدلى من رأسك إحليلٌ هو خرطومك». لكن هوار حاجي، غير المعنِي بالمماحكاتِ الرخويَّة، المتكسِّرة القشور تحت أسنان الرجلين، يزعم أن شريف رندو محمولُ الجسد على حمَّى الوَشَق. ولِكلام هوار، عادةً، جلالٌ تعيره المهنةُ للسانه فيصغي الحاضرون. توارث أباً عن جدٍّ تخمين المقادير الخبيئة في الظلام بعينيِّ النور الماكرتين، فانتدبتْه علومُ المياه راصداً لا يخطىء في تحديد كنوزها. لم تبقَ قرية، أو دسكرة، أو كُورة، إلاّ استعانت به، من نواحي دهوك حتى سفوح سنجار، لتحديد مواقع حَفْرِ آبارها الثرَّة، الأكثر اختزاناً، والأطول إدراراً فما حصل قط أن جفَّت بئرٌ بعْدُ استولدتْها باصرةُ يديه إذ يمسُّ بهما الأرضَ، ويحفر قليلاً فيها بأصابعه من غير آلة، ثم يسكب في الحفرة ماءً من فمه

ويستحصل التقدير: «الماءُ يفتضح الماءَ»، يقول اجتناباً للتأويل النازع إلى مناسك الخوارق، والاستسرارات الطيفيَّة. لم يُسَفِّه مذاهبَ أدلاَّء الماء الآخرين، الذين يعينون خيالَهم المائيَّ بقضبانٍ نحاسٍ، في أطرافها أوعيةُ عُلَبٌ معدنٌ يجسُّون بها الهواءَ الأكثر ثقلاً في اتصاله بالأرض. يتركُ اقتدارَهُ حَكَماً، ويتعفَّف عن المُغالبات، وهو أمر يحفظ للسانه موقعَ المجاهرة بما لا ينفذ إليه تسخيفٌ، أو استخفافٌ: «غَلَبتْ حمَّى الوَشَق ميزانَ ضيفنا شريف. الجسد ميزانٌ يا أهلَ الوجود». الوشق قادر على التقاط الطيور قفزاً في الهواء. خيالُهُ أرضيٌّ وهواه مائيٌّ، لأن القفز في الهواء سباحةٌ في اللَّطائف، وفيه خاصيَّة الجواذب الأقرب إلى ماهية الجناحِ الموكول بتدبير المَكْر الهوائيِّ. لا يحتاج هَوَار حاجي إلى شرح ذلك، لكن شريف رندو، الذي يصغي من بلَّورة كيانه المتدحرجة على صُفَّاح النار الصلدة، يُلْزِمُ نَفْسَه المثولَ في زخرف الظلِّ الكثيف - غمامةِ الحيوان القَرين، متماوجاً، يتشكَّلُ حلقاتٍ وينحلُّ، ثم يصفو، ثم ينعقد ماساً تتضاعف في فلزِّه النشأةُ سُداسيَّاتٍ تُطَابِقُها سُداسيَّاتٌ أكوانٌ تحيط بالوجود الجوهر، حيث الحيوانيُّ - وحده - قياسُ البرهة الروحية في المخلوقات: «لا نجاةَ مِنِّي»، يقولها مشمولةً بعفو المُقْتَدِر: «لكنَّ كلَّ ما هو لي طليقٌ». فإذا احتبَسَتْ عليه مماثَلاتُ الخيال في بزوغ كيانه الطيفيِّ على كيانِ قرينه الوشَق عَمَد إلى بتر المساررات المُغْلَقة بخواتيم الأثقال ذات الحروف: «العَدَمُ ثِقَةٌ. العَدَمُ مَوْلِدُ المواثيق».

في الصباح الذي أعلن الغرباء الخمسة لكريم بعزمهم على مغادرة سيدروك في اليوم التالي، وهم يرونَ انحسار

جليد الحُمَّى عن بِرْكة جسد شريفٍ - دِهْقَانِ البريد المدحور، بدا الرجلُ كَمَن اقتِيْدَ إلى عزلة. همهم متأسِّفاً، ثم لزم صمتاً حملته أعمدةُ دخان لِفافات التبغ إلى الفَناء المُلْغِز. ولمَّا رضخ زينو ميڤان، ، قبل ظهيرة النهار الخريفي بقليل، لمناوشات الأعمى، وعقدَ الميثاقَ على حنجرته بغزوةٍ للصوت مساءً، فكَّ كريم عقدةَ النطق المُحْتبس: «في الفجر المعتم سمعت مغنِّي آل بابك. لم يعد يكفيه الليل فاستولى على فجر هذه الضفة أيضاً».

«غناءُ الفجر لوعةٌ، يا سيد كريم»، قال جَكَّر سَيْدا، الأكثر سمنة بين الغرباء الخمسة، فعارضه زينو ميڤان،: «هو نداءٌ في الأرجح. تبرُّؤٌ من جهالة الليل».

نكتَ الأعمى اللِّبودَ السميك بإصبعه: «إن كان الليلُ جهالةً فالأرجح أن الخُصى والفُرُوْجَ تدين لهذه الجهالة بعلومها في ارتكاب اللذائذ. النكاح ليلٌ».

دمدم سرعو: «ما لهذا الرَّجل..»، فقاطعه كريم براحة يده الآمرة المرفوعة، متوجهاً بعينيه إلى زينو: «ما هو صابلاغ؟».

«هو نهر في مهاباد، يا سيد كريم. ما معرفتك به؟»، قال زينو.

«مغنِّي آل بابك كرَّر اسم صابلاغ في غنائه»، ردَّ كريم.

سَرَت شرارةٌ من رماد في نِقْيِ عظام الغرباء. تبادلوا نظراتٍ مهشَّمةً وهم يمتصون لفافات التبغ في نَهَمٍ ارتجفت منه أصابعهم. أخبار مهاباد سبقت، في الأرجح، خطى بغالهم التترية. كاد زينو يعتذر عن تسرُّعه في التعهُّد بالغناء، لكنه آثر التسليم بالمقدور المختَمِر كإِنْفَحَة اللَّبَن، وعقد في

قرارته أن تكون أغنيته هيامَ كبدٍ بكبدٍ، وإسرافَ هوىً في تبجيل العاديِّ من مباذل المغرِّديْنَ المصعوقين - أهل الجوى. ولمَّا دخلت سِيْن، إبنة كريم ذات الثلاث عشرة دورة من دورات الفَلَك الأدنى، إلى المَضَافة، غلبَ قلبه الرَّعشُ المعذِّب: هو، كغيره من المُقَرَّبين إلى الرئيس، القاضي محمد، وجَّه عيالَه إلى أقرباء لهم في عشائر زَشْت، على ضفاف قزوين، يكونون في مأمن من انتقام آل بهلوي، منذ نضوج الأخبار بقسوةٍ عن حشود تتضاعف بعد ارتخاء عريكة الكرملين، وانحسار أسباب الحماية ببروز أسباب التقاسم المريح لهواء العالم بين الأحلاف الأعداء. سِيْن، إبنة كريم في عمر ابنة زينو الكبرى دِلْشَهْ. دخولُ ابنة كريم إلى المَضَافة عبورٌ من همس المياه بقزوين إلى أُذن حنينه. ابتسم للفتاة ردًّا على ابتسامتها الموزَّعة بلا انقطاع على وجوه الغرباء الخمسة. ضمَّها، على نحوٍ مَّا، بذراعين من غمام الصور، وهي تجلس قرب أبيها تُريه رسماً استنسخه حميد داهي، القائم بإدارة المتاهات في أبخرة الشاي، عن ختم البريد المحفوظ في علبةٍ باطنُها قطيفة زرقاء، بين متاع شريف رندو: طائر ذو أربعة أجنحة. إثنان طويلان طولاً مفرطاً يعلوان اثنين قصيرين، كأنما لكل جناحين، في جهة من جسد الطائر، منبتٌ واحد تشعَّبا منه كأجنحة السُّرمان. من أوحى إلى دِهْقان البريد الممسوس بهوى الرياح أن يجعل في خَتْمه صورةَ طائر على ذلك النحو؟. «لو اتَّسع الرَّسم لأربعين جناحاً كنتُ فعلت»، كان يقول شريف للمتأمِّلين - من الأيام الأولى لمولد الجمهورية التي لم يُكتب لها بلوغُ أربعمائة يوم في حلول نهايتها - خَتْمَهُ ذا

المقبض الحجري المنبثق من قرصٍ كهرمانٍ أحمر، نُحِتَ فيه رَسْمُ الطير بنصلٍ من الفولاذ المُحمَّى في بوتاس محترقٍ. «أربعون جناحاً» - رقمٌ عادلٌ. بريدٌ بأجنحة عادلةٍ عدالةَ اتِّصالِ المُنْقَطع بالمنقطع. رقَمُ حصولِ النبوَّةِ للآدميِ الفاني كي يبشِّر بالخلود لِما لا يُقيم برهاناً على خلوده إلا بلسانٍ من لحم. «أربعون» - خَفْقٌ دويٌّ يمزج الأمكنةَ في قَدَحٍ واحد كشراب التوت، ويستنهض الهواءَ الراكد بمراوح على قَدْر الكمالِ المنسوب إلى الرَّقم ناضجاً، في الوسط بين طيش الثلاثين، وكهولة الخمسين. لكن جسد الطائر، ذي المنقار الأبطح كما للبجعة، لم يتَّسع لأكثر من أربعة تحت نصل المصمِّم الحاذق بوغوصْ جانيكْ الأرمني، الملقَّب بـ«شاه بَلَكْ»، «أربعة تكفي يا سيد شريف. للصِّفْر شفاعةُ الإضافة من غير إضافة. أربعة أمامها صفرٌ لامرئيٌّ. أربعة أجنحة وسط ستة وثلاثين لامرئية. في الرسم أربعون جناحاً يا سيد شريف. إنها تخفق جميعاً. طيْرُكَ هذا سيبلغ برجَ أسد البحر، من قوس الفَلَك الثاني، في غمضة عين».

استنسخ حميد داهي صورةَ الختم على ورقة سميكة من نخالة الذُّرة، ووهبَها بنات كريم كي يجعلن لها إنشاءً في بساط صغير، رقيقِ النَّسْج. ناوي، ورراميسان، ذاتا الأقدام الموشومة ظاهرها بحروف من لغة أهل الصين، تولَّتا توزيع الخيوط بحسب التتالي اللونيِّ الذي ستولد فيه صورةُ الطائر. ألوانٌ مُتَهارجة مسَّت ذيلَه، وقوادمَ الجناحين الطويلين، وفق تدبيرٍ في الحَوْكِ من الأعلى إلى الأسفل. وحين بلغت الفتاتان عينَه الظاهرة في الرسم اختلفتا: حدقة حمراء أم زرقاء؟ حمَّلتا أختهما الصغرى الخلافَ إلى الأب

كي يتولى الحُكْمَ للونٍ على لونٍ. ولمَّا عرضت سِيْن على أبيها النظرَ في مجادلة أختيها تحيَّر قليلاً في انتقاء خياره. رفع عينيه إلى ضيوفه الخمسة: «أي لون يناسب عينَ الطير هذه؟»، وعرض الرَّسمَ منشوراً بيده على أبصارهم.

«السيد شريف أدرى»، قال هوار حاجي.

«لم أفكِّر في أمر ألوان هذا الطير من قبل»، ردَّ دِهقانْ البريد المدحور.

هَأْهَأَ الأعمى، ذو الخيال العابس تمهيداً لنقل الكلمات، بلسانه، إلى مصاف الحِيْلة: «أرني الرَّسمَ يا سيد كريم»، فأعطى كريم الورقة إلى ابنته، مومئاً برأسه أن تأخذها إلى جميل فاركو، على نَسْجٍ من الدعابة الصامتة. وضعت سِيْن الرسمَ في راحة الأعمى. «دلِّي إصبعي على عينه»، قال، فوضعت الفتاة رأسَ سبابته على عين الطائر.

«أهو يرى؟»، سأل الأعمى مجهولاً بلا تخصيص، فتطلَّع كريم إلى شريف، الذي دحرج الكلمات من وراء الشحوب الباقي من أثر الحمى: «ما الذي تظنُّه يا سيد جميل؟».

«اللونُ ضلالٌ. حرِّروا عينَ هذا الطير من اللون»، قال الأعمى.

«ما لونُ ظلامك الذي أنت فيه؟»، سأله حميد داهي، فردَّ الأعمى:

«أي ظلام؟ لم أرَ ظلاماً لأعرفه. عيناي حُرَّتان».

نهض سَرْعو، ذو الحاجبين الممحوَّين، بلا مبرر، ملسوعاً من أعماقه. خَطَا إلى الباب خارجاً: «هذا لا يُحْتَمَل. سأكون رسولَ الرحمة»، تمتم وهو يعض كُمَّ سترته

السميكة.

«ما به؟»، سأل الأعمى نَفْسَه مندهشاً. «لم أخاطب إبن اليُنْروع هذا».

«إبقَ مع الطير، يا جميل»، قال كريم، فعادت الهَأْهأةُ إلى الفم المفتوح: «لن أُفارقه بعد الآن. لربما نقلني في بريد السيد شريف إلى منابع أنهار الجنّة».

«عنيتُ أن تشاركنا شَرْعَ اللون، يا جميل. إقترحْ لوناً هو الأكثر إثارةً في خيالك حين تسمع به»، قال كريم.

«وما الخيال، يا سيد كريم؟»، ردَّ الأعمى.

«ما تؤلِّف به اتجاهاً لخطوات الموت إليك»، قال كريم بلسانِ التوريةِ المُمْتَحِنَة. هأهأَ الأعمى:

- أنت تضلِّلني يا سيد كريم. الأفضل أن أقترحَ لوناً. حسناً. أقترحُ الأبيض.

«ولماذا الأبيض؟»، سأله هوار حاجي، فردَّ الأعمى:

- لأنّه، كما أعرف منكم، لونُ المنيِّ.

سحبت سِيْن الورقةَ من يد الأعمى، وعادت إلى أبيها مُغضيةً حياءً. اشتعل في عيون الجالسين توبيخٌ صامت، مُحَمَّى، من جراءة الأعمى على ألفاظ لا تليق بحضور فتاةٍ طفلة. ولولا الذُهش الذي أبداه كريم، فجاءةً، من جملةٍ نطقت بها ابنته، لاستحال الهواءُ خشناً في رئتي جميل ممَّا أزمع البعضُ عليه من التعنيف. «أهُم يرحلون؟ ما الذي تقولينه؟»، نطقَ سيِّد المضافة، ونهض، في تلك الساعة العالية من الهزيع الثالث للصباح، الأقرب إلى مجاورة الظهيرة. لبس حذاءه وانحدر ماشياً في اتجاه ضفة النهر، فتبعه رهطٌ من الجلساء يقودهم الفضول.

كيف لم ينتبه كريم إلى ذلك الإعداد الصامت من آل بابك للرحيل عن ضفة النهر الغربية؟ هو لاحظ غيابَ الأطواف الخشبية، منذ أيام، عن مجرى الماء حيث يتصيَّدون، فما عنتِ الإشارةُ شيئاً. ولطالما لمح رستم بابِكْ يتأمله من الجهة الأخرى في وقفة موحشة قليلاً، فخال الأمرَ امتحاناً من منازَلات الصمت المُلْغِز. لكنْ ها هو يرى بعين البرهان الباردة نهايةَ قافلة العربات، التي غابت بدايتها في مُنْحَدر السهل جنوباً، تاركةً وراءها بيوتاً حملوا أبوابَها معهم، وخلت الساحات أمامها من أعمدة تُعَلَّق إليها قِرَبُ اللَّبن المَخِيْض.

تكسَّرت جرارٌ في أحشاء بيرخان. بدا الرحيلُ خدعةً سلَّمها إليه رستم بابك منقوشةً على درهمٍ ذهبيٍّ. «لِمَ لَمْ تنتظر هذه الليلة، فحسب، يا شريكنا في هواء الضفة؟»، كاد يصرخ. «زينو ميڤان، سيغنّي الليلة. زينو يعرف مُغَنِّيْكَ يا رستم»، قال قلبُه للظلال الخفية تحت درع السماءِ الرمادِ. أشعل لفافة تبغ التصق ورقُها بشفته السفلى فتحسس بلسانه موضعَ جِلْدتها الرقيقة المُنتزَعَة. لسعة خفيفة انتقلت من فمه إلى خياله المنهوب. «غَلَبْتني»، تمتم، فقرَّب عمُّه وَالْ رأسه من رأسه: «مَنْ غَلَبك؟».

كان سرعو جالساً على مُنْحَدر الضفة في اتجاه الماء، يبدو منه رأسه وكتفاه، حين وصل كريم. لم يلتفت إلى الرهط المستطلع عن مبعدة منه منازلَ آل رستم الخرساء. يده، التي كانت ترمي النهرَ ببعض الحصوات، كانت تستنهض من مغاليق المياه صورَ القتل: «سأكون رسولَ الرحمة». هكذا سيهيِّىء الحقائقَ في بلّورة من مُركَّبات الزرنيخ. لقد مخَّضَتِ المصادفةُ لَبَنها، وحملتِ القِشْدةَ إلى

لسانه كي ينطق بالدَّوْر الذي يناسب كيانَ الإنشاء المعلوم في كيد الكلماتِ - كلماتِهِ هو، الناهضة إلى فكرة القتل بآلات لوعته: لم يعد ممكناً أن يقيم سرعو في هواءٍ يقيم فيه جميل الأعمى. لكن، بأي كَيدٍ من مكائد المشيئة ينفِّذ القطيعةَ التي لا تقبل إلاّ رهانَ الموت؟. الزرنيخ. لم يسلك إلى خياله مقامٌ آخر من مقام السموم. عليه تدبير الأمر بلا إثبات الجرم على نفسه. لديه زرنيخ يخلطه مع الجِيْر لإزالة الشَّعْر من أي موضع يريد. في بيوت سيدروك كلِّها زرنيخ، ونوْرة، وزيت مخلوط بنسغ ورقة التين الأبيض، المرّ، وزُناباتُ عقارب في الخلّ بسُمِّها، وعصارة مرارة الضَّبُع والخفَّاش؛ - أخلاطٌ يستقيم بها علمُ الترياق في الدواهي.

عَصْراً حضَّر سرعو كمينَه الخفيَّ. ذوَّب نَثْرةً من دقيق الزرنيخ في ثُفْل الشاي المُحَلَّى قوياً، وغمس فيه مقدارَ أربع لفافات من التبغ. تركَ النقيعَ ساعة، ثم استخرجه فجفَّفه، ثم عقد من ذلك التبغ لِفافتين ثخينتين ثخْنَ سبَّابته، ووضعهما في جانب من علبة تبغه الصفيحية. تنفَّس قوياً من رئتيه الحالمتين، فرازتْهُ زوجته هَانُو بعينَيْ عمرها الذي منح الرجلَ العصبيَّ، الممحوَّ الحاجبين، سبعةَ أولاد نُحفاء يأكلون حقلاً من العدس كل فجر فلا يشبعون. ابتسم على غير عادته: «الهواء اليوم مغموس في سَمْن الغزلان».

جميل الأعمى، ذو الخيال العابس، ظلَّ يكرِّر على حديقة الظلام البلورية، في أعماقه، صوراً منطوقةً من أزاهير الريبة: «ما بِهِ ابن الصَّنَّةِ غادرَ المضافةَ هكذا؟ لَمْ أخاطبه». مُذ خرج سرعو المحمول على جناحين من البَرَم العاصف، قبل ظهيرة ذلك اليوم من مضافة كريم، لم يوقف الأعمى

تكرار سؤال مجبولٍ بالدم على نَفْسه: «لو أذبح هذا الجرو بسكّين صدئ، مثلوم. لا أنطق إلاّ ويكون جالساً على حافة كلماتي. سأُسَلّي عظامه. من أين أبدأ؟». عدَّد طرائقَ القتل تسعاً وتسعين مستعيناً بأسماء الله الحسنى في مُفتَتح كل مَقْتلة، على النحو الواجب في ذبح الأنعام. المصائد ذات الأسنان الحديد. الخنق. النِّصال. كسر الأعناق. الدَّفع إلى الهاوية. فصد الأوردة. طَحْن الحناجر أو تشريطها. السموم. النَّحر بالطلقات. لا يملك جميل تدبير مقتلة من هذه بلا عينين. يلزمُه استمالةُ الخفاءِ بآلةٍ لا تحوجها الحركةُ، أو تقديرُ مواضع الأجسادِ وبُعْدها عن المُطاولة. قَلَّبِ السموم ومراتبَها على صحن خياره الأنسب في حالٍ كحاله. سَلَك المتاهةَ الصغيرةَ في بستان علومه فخرج من الباب المفضي إلى شجرة الزرنيخ: تلك هي ثمرةُ التدبير.

في عصر اليوم ذاته، الذي زوَّد سرعو الكيدَ بِزِقٍّ من خمر الممكن، ذوَّب الأعمى نَثْرةً من الزرنيخ في ثُفْل الشاي، وغمس فيه مقداراً من التبغ يستحصل به لِفافتين في ثخن قضيب الظَّليم - ذَكَرِ النَّعام. ثم تنفَّس قوياً فاجتذب أرواحاً عابرةً في الهواء إلى كهف رئتيه: «سيكون للَّيلِ طعمُ سَمْن الغزلان».

كانت السماء، تلك الليلة، مرصوفةً بحجارة الغيم رَصْفاً لا رتوق فيه، والهواءُ راكداً، مشدودَ الوثاق إلى أوتاد من رصاص المَغَاور. لم تتمايل ألسنةُ النار في غصون الغَرْقد المركومة هَرَماً فوق نَهْدٍ من الضفة يشرف على نُعاس الماء، فبدت النقوشُ غير مختلطةِ التعاريقِ في إبريق الشاي الضخم على الأثافي. الوجوه الثلاثة والعشرون، المطوَّقةُ مساكبَ

ظلال اللهب، امتصَّت الإشراقَ الذهبيَّ لخيال الشجرة المتمردة، المُتَّخذة غصونُها وقوداً، فغدتْ ذهبيةً، حتى أن وَقْبَيْ عيني جميل الأعمى، الغائرتين غوراً بلا قرارة، أومض فيهما بَرْقانِ صغيران كأجساد الحُبَاحِب. ذلك ما لمحه سرعو من موضعه في نصف الحلقة الآدمية، المنتظرة بزوغَ أقمار المساررات التسعة من حنجرة زينو ميڤان، فنقرت الرعشةُ كبدَه بأناملها. تحسَّس علبةَ تبغه برهةً. مسَّدَ صفيحها النابضَ براحته يجدِّد لدمه قَسَمَ الكيد. نهض من موضعه والتفَّ من وراء ظهور الجالسين حتى بلغ مكانَ الأعمى. لمس كتف ابنه عليٍّ الجالس إلى جوار أبيه: «يا علي، لي كلمة صفوٍ ألقيها على أبيك. هلاً بادلتني مكاناً بمكان؟»، قال بصوت هامس، فجسَّ الأعمى فخذ ابنه: «هيا يا علي».

جلس سرعو لصق جميل. تماسَّت العباءتان الخشنتان فعبرت من لحم أحدهما إلى لحم الآخر تحيةٌ ذات مخالب. تنحنح الأعمى وقد غمرته المصادفةُ بامتنانٍ ملجوم، فاتحاً فمَه المنتظِر. «اسمعني يا جميل» تكلَّم سرعو، ومال عليه: «أنت لم تقتل أحداً من سلالة أبي. لم أقتل أحداً من سلالة أبيك. لم تسرقني. لم أسرقك، فلماذا هذه الخصومة بيننا؟. فكرتُ طويلاً اليوم: أيُّ وسواسٍ خنَّاس بلَّل قلبي وقلبك بلُعابه؟. لربما عَقَدَ لنا حاسدٌ حجاباً بحبر الشرِّ يا جميل. ذلك ما خطر ببالي. منذ عشر سنين لا أحتملك ولا تحتملني. لا إنصاف في هذا. لقد تمادينا في إنزال الشماتة بأنفسنا. أثلجْنا قلبَ الحاسد المجهول وشرحنا صدره ورئتيه، وعقله، وعظامه. الحاسد منشرح، نشوان، في هذا الركن أو ذاك. ينظر إلينا بعينين لا متَّسع فيهما لفرح أكثر.

أنحن أحمقان؟ هيا يا جميل، صحِّح لي استفاقة روحي المتأخرة قليلاً إذا كانت مائلة».

تبلْبَل جميل لبرهة. تلمَّس مواضعَ من خياله يأمل العثور فيها على لسانٍ رصينٍ، يبادل عرضَ لسان سرعو صُلحاً بالكلمات، فكاد لا يعثر على بقية. نبش الرمادَ الدفين فألفى في حجابه جمرةً على مقاس كلمتين: «أنت مصيب»، وحكَّ صدره حكًّا خشناً يستعين بصوته على الحَرَج المتغرغر في رئتيه. تلمَّس علبةَ تبغه. طوَّقها براحتيه نازلاً من ظلام حدائقه الخفية على سُلَّم الليل إلى ظلام أعماقها: لِفافتا التبغ تتجادلان. سمع ذلك بأذن الشَّرع الغامض في مذهب الإصغاء. نظر سرعو إلى يديه، اللَّتين بدا من فجوات أصابعهما المتجفِّفة في هواء السنين التماعُ العلبة، المحدِّقة بعين المعدن في لهب الفَرْقد. وضع راحته على يدي الأعمى: «أنا أعقدُ لك لِفافةً من تبغي يا جميل»، وأخرج علبة تبغه من كمين القماش في عمق سترته، لصق خاصرته اليسرى. تظاهر برهةً بصناعة اللفافة، ثم ناول الأعمى واحدةً ثخينة من الإثنتين المُحصَّنتين بآية الشرِّ وهداية الحِيْلة. تلمَّسها الأعمى. دَوَّنَ أبعادَها على لوح المستور بالقلم اللامرئي. هَأْهَأَ مستحسناً: «بهذه ينكح الدخانُ أُمَّ الهواءِ وأُختَه». وضعها في زاوية فمه، مسترسِلاً: «جَمرتُها كَمَرَةُ فَحْلٍ»، فَهَمَّ سرعو أن يشعلها له بقدَّاحه. سمع الأعمى نداءَ الشرارة في الفتيل، فنزع اللفافة من فمه: «لا»، قال. وضع راحته على فخذ الرجل الممحوِّ الحاجبين: «لن أشعل لفافة الصَّفو هذه الآن. أخشى أن يبلبل صوتُ زينو كرامةَ دخانها في رئتيّ. سأستبقيها لصباحي يا سرعو. الصباحُ فِطْنةُ

الجسد. سأنتشر صباحاً على دخانها بين كايي خودان وأرض سبأ. جنٌّ كثيرٌ يعبر هذه الأنحاء صباحاً. بِهِبةِ صحو عقلينا - لفافةِ تبغك سأقتفيهم، وأعود قبل أن يسقط منها رمادُ النَّفَس الأخير».

طغت جَلَبةٌ في الخلف على كلمات الأعمى. جمهرة من النساء اجتاحت المكان مُحْضِرةً زرابياتٍ جلسن عليها صَفًّا قوسياً من وراء الرجال، واستخرجن تبغهنَّ من المناديل يصنعنَ اللفافات الرقيقة. صِبْيَة وشبان صغار قدِموا بدورهم إلى بستان المساء المُعْشِب، مستندين - وقوفاً - إلى شجرة الأثيريِّ الأسود. هم أشعلوا لفافات تبغ أيضاً، واحدةً من جمرة الأخرى، وانتظروا صفيرَ بخار الإبريق الذي يغلي في رئتي زينو ليملأ أقداحَ فضولهم بشراب صوتِهِ - صوتِ المحترف المغسول بالوميض في مُجابَهات الأغاني. «هذه لفافة تبغ مني لك»، قال الأعمى ذو الخيال العابس، وقدَّم إلى سرعو واحدة من الإثنتين المعتَّقتين في عماءِ النزوع الذهبيِّ إلى المكيدة. تحسَّس بيده اليابسة أصابعَ الرجل الممحوِّ الحاجبين ووضعها بين سبابته والوسطى: «جعلتُها ثخينة - يا للمصادفة - كلفافتك حتى أطوِّق صوتَ زينو بدخانٍ مُضاعفِ الشهوة. هاكَ. هي لكَ»، ثم استخرج قدَّاحه على عجلٍ: «دعني أشعلها من الفتيل الذي مسَّدْتُه طويلاً بشحم القنفذ»، فردَّ سرعو يَد الأعمى في لطف: «سأُبقيها مثلك لصباحي، بعد إفطار من الجبنة الدَّسمة يا جميل. شأنٌ من شؤون الفردوس أن تُطْبِق شفتاك على لفافة التبغ وهما مبلَّلتان بالدَّسم. ينحدر من بللهما الدخانُ إلى رئتيك عَسَلاً لا كالعسل. ثم أنني أريد أن أنفثه فأراه؛ أرى أنفاسي وقد

غدتْ لوناً ؛ أراها مرئيةً أكثر جسارة من الهواء الذي يتستَّر على حقيقته. قل لي، بحقِّ أولادك وأحفادك، ما هو الهواء؟ أيُّ مَهْبل هو الهواء، ها؟».

أصغى الأعمى مفتوحَ الفم من غير هَأْهَأةٍ. تكلَّم سرعو بلسان المعنى القنَّاص فلم يتتبعه جميل. خشي أن ينطق فتنفر القنائصُ هاربةً من مرمى الحيلة. آثر الصمتَ. «ما هو الهواء؟». السؤال معلَّق إلى شجرة البلور الأسود. تحرَّك الهواء. غيبٌ من ريش حرَّك مراوحَه فتحرك الهواءُ مع إشراقة الحرف الأول، الممدود، من برزخ صوت زينو قبل أن يغدو اتجاهاً، وبُعْداً، وعُمْقاً، وكتلةً. غرغرةُ حرفٍ أطلقها اللسانُ في الأثير الصلصال فتنفَّس الهواءُ حيًّا ينشر الهدايةَ بسَنَدٍ من الحركةِ الجوهرِ:

«غمامٌ وراء غمام،

قُبَلٌ وراء قُبَل.

لا تُعينيني على الإهتداء من السَّهل ذي الغمام إلى شفتيكِ،

ولا من الجبل ذي الغمام إلى عنقكِ الذي ينتحر الريحانُ شغفاً بلمسه.

أنا آتٍ يا ماءَ الظمآن، وحجَر الحساب الرابح في المِنْقَلَة.

هيِّئي لي ثوبَ عُمري الذي سينبض بين راحتيك كقلب القطاة».

حملت أقدامُ المساء البلوريةُ صوتَ زينو عروقاً من فِلِزٍّ قِرْمِزٍ إلى الرسومِ الخمائرِ في أحجار هضبة كايي خُودانْ، فترقرقَ هسيسُ الحجارة المرحُ حتى مسَّ أسماعَ رهط زاده

بَزْربادي ، فتعرَّف ترجمانُهم زاهْدان نوري في الهسيس إلى صوت زينو ، ذلك المساء الذي سلَّموا الهضبةَ فيه مقاليدَ الحلول ضيوفاً على رغيف سَكِيْنتها .

لِقمَّة الهضبة سطحٌ منبسط ، مسوًّى بِيَدِ الأثر القديم لصعود محاربين إغريق مستطلعين أقدازهم ، التي استوفت لهم الجواهرَ من خزائن أمراء فارس المتناحرين ، يعينون ممالكَهم على المغالبة . فلما خسروا بعض الحروب التي لن تنتهي حتى تغيب الشمس في كهف المشرق ، انسحبوا بلا دليل إلى الثغور المائية التي حملتهم السفائن إلى بوّاباتها في البحر الأسود ، لكنهم تاهوا في مسالك الجنِّ المعصومة من دخول آلهتهم الإغريقية اللسان والعلوم . فاستقروا ردحاً من الدهر في فَلَك كايي خودان ، الذي تجري عليه خُنَّسٌ من الكواكب الزلالية هي مشيماتُ الغيب الحافظة للمواريث ؛ كواكبَ يقدرون على ملامستها برؤوس حرابهم من غير أن تنفتق ، ويدوِّنون عليها أسماءَ خمورهم المفقودة ، مستعينين بأكوام من غصون الغرقد يجعلون نيرانَها أقلاماً من حِبْر ناموس التيه . كانوا يصعدون إلى القمة ، كل يوم ، بجذوع من دغل السفح الغربي ، وبِقِرَبٍ كثيرة من ماء الفرع الرقيق المنفصل عن دجلة كي يستقرَّ بحيرة صغيرة أسفل ذيل الهضبة شمالاً ، بعدما حفروا مدرجاً من السهل إلى الأعالي ، في الأخدود المحفور طولاً بأسنان السيل . غير أن « الكُرْدوخُوي » اهتدوا إلى وجودهم هناك ففتقوا مشيماتِ الكواكب الخُنَّس بالسهام ، وخلطوا مواثيقَ الآلهة الكبرى للأولمب بكروش الأغنام يلقونها في موارد الماء ، التي يتزوَّد منها الإغريقيون ، فيُسمِّمونها . ولما يعطشون أكثر يجاهدون كي يخرقوا حصار

« الكردوخوي » إلى نهر دجلة فيتقلّب السهلُ كُلُّه ، حيث تنبسط رياحُ سيدروكَ الطينيةِ بين شجر التين ، على فراش من أنين الجرحى وذهول الموتى من خِفَّة الموت .

زينوفون الإغريقي سَطَّر كِناشَهُ المهيب « أنابازيس » عن وقائع التعب الإغريقي لعشرة آلاف محارب انسحبوا مُرْتَثِّين ، مثلومي اليقين ، من حصنهم الغامض إلى مسالك الغيوم شمالاً ، هاربين من انقلاب كايي خودان إلى قلعة للموت ، فاهتدوا ، في الهرب ، إلى ثغورِ المياه التي تاهوا عنها - ثغورِ البحر الأسود ، لِتُقيِّض لهم عنايةُ زيوس أن يسردوا الأهوالَ على مسامع رعاة التاريخ المسحور : لقد أصابهم من « الكردوخوي » ، أولئك الموعودين الكُردَ بحروب مُسَطَّرةٍ على دروع الظاهر والباطن ، ما لم يذوقوه من نواعير الدم التي أدارتها ثيرانِ أمراءِ فارس المستنجدين بالأقوياء لقاءَ الذَّهب .

منبسِطٌ سطح كايي خودان ، وعلى حوافه أثلامٌ هي بقايا كمائن رماة السهام ، التي عثر البعض على نصالها مدفونةً بعد قرون من نزوح المحاربين بأقدارهم إلى رحمة الأشرعة في البحر . خوذاتٌ جرفتها السيول من الأعالي فاستقرَّت في فتوق الأرض أسفلَ ، فانطمرت ، ثم كشفها تعاقبُ الإنجراف من سطوة آلات الماء وشهواته الرهيفة كشفرات النوارج . أشباح ترتدي خوذاتٍ ؛ أشباحُ الذين لم يقدر الهاربون على حملهم معهم فالتجأوا إلى صدوع الهضبة يغذّون النباتَ بعظامهم حتى تسلَّقهم النباتُ وعَلاَ وحشيًّا يستطلع لهم جمراتِ المغيب تحت أباريق حمَّامات الآلهة وراء بحر التَّيس ، الذي بلا مدٍّ أو جَزْرٍ . إوزٌّ سيدروكَ الغاضبُ اهتدى

إليهم منذ استقرَّ المقامُ بآل بيرخان على ضفة الحصى الغالب عليه طبعُ المعدن من نهر دجلة، جنوب الخط السماويِّ الذي يقسِّم الأفلاكَ ذكوراً وإناثاً في توريات مُهرِّبي التبغ والبنادق. كان يَهيج، ويَحتدم، ويُستثار، ويتميَّز غيظاً، ويُستشاط غضباً، ويُرعدُ، ويُرغي، في فجاءاتٍ من رعيْه القواقعَ، والأصدافَ، والطحالبَ، والأُشْنَةَ، ثم ينقضُّ مسعوراً على الهواء، ثم يُغالي في الركض بأجنحةٍ مرفوعةٍ وراءها هاربين لامرئيِّين حتى تخوم الهضبة، حيث يلحقها الصِّبْيةُ عائدين بها قطعاناً لاهثةً إلى معاقل أشجار التين وثغور الضفاف. نساءٌ أوْدَعْنَ رقابَ ذكور إوَزهنَّ رُقىً تُذْهِبُ عنها الخَبَل وفسادَ التقدير الذي هو من جوهره المائيّ، لكنَّ القطعان البيضاء، ذوات الأعناقِ المناجلِ، ظلَّت على المُشاحنةِ تردُّ عن حقول الفراغِ غزواتِ الأثيريِّيْنَ الإغريق، فتدخَّل الكبارُ، الأوصياء على علوم المكاشفات، لمَّا رأوا الأمرَ خللاً في التقاء المَوجودات بنظائرها: «ثمت أرواح هنا، تستوطن كايي خودان»، قال هوار حاجي، مستعيناً بابن أخته كَمُّوْ النعسان، مربِّي العَلَق الأسود الذي يقوم مقام آلة الفَصْد. «حيث تكون الأرواح يختبل العَلَقُ ويمتصُّ بعضُه بعضاً فيفْنِيْه». تلك كانت علاقةُ هَتْكِ السرِّ، وانظهار المستور في قيده القُزَحيِّ. ثم أنه جرى تدبيرُ الصُّلح - بين إوزٍّ هو موجوداتُ البرزخ بوجود خصائص الكمال المائي في خياله، وبين أورواح الإغريق التي هي موجوداتُ البرزخ بوجود خصائص الكمال المُشْكِل في خيالها - بِرَسْمِ ساعةٍ من الطين المشويِّ على السفح المواجه لسيدروك من كايي خودان، نافرةٍ، يتقاطع عقرباها في المنتصف كسَعْفَتَيْنِ فلا

يقوم بهما دليلٌ على وقتٍ.

قبل اكتشاف الإوز لأرواح الإغريق، قادماً مع آل بيرخان بالأنوال الخشبية المدرَّبة على مقايضةِ اللون خيالاً بخيال، تفصَّدت علومٌ شقراء عَرَقاً في حقائب الموسومين بخَتْم أشقر من آيات الآفاق، لمَّا انبسط المدُّ البريطاني على سُرادق المياه بين النهرين. رجال محترقو الخدود من لفح الشمس تتبعوا عربات الجيوش بحقائب يتأوَّل فيها الحجرُ منابَت رموزه، ويستقرئُ مجونَ المغاليق النَّهمة في الحروف. حقائب تروِّضُ الحجَر حتى الهذيان لتمتلئ بعقلِ المتاههِ، والحجرُ يورثُ التيهَ. مُبادَلاتٌ لا بدَّ منها. مساومات لا بدَّ منها. مشاحناتٌ لا بدَّ منها بين محترقي الخدود الحمراء ذوي القبعات العريضة، وبين الحجرِ مُتلبِّساً بأحافيرَ هي إشاراتُ المُلْغِز على استئناسه بالحماقات.

ثلاثة أبواب تفتَّحت في جنبات هضبة كايي خودان لأولئك القيَّافين مسالكَ الحبر في خرائطهم. قاسوا بشرائط عليها أرقامُ التوكيل القَدَريِّ أذرعاً من الأرض في كل جهة منها، وقسَّموا التحصيلاتِ الرَّقمية على سَنَنِ الفراغ المدوَّنة افتراضاً في أشكالٍ ثمانيةٍ هي أبعادُ الظلال وحدودُها، ثم أذِنوا لعقل الآلات الصغيرة في أيدي المُسخَّرين من صيادي الأنهار بالحَفْرِ، وأذِنوا للحمير - تلك الخلائق الغالبة فيها معادنُ الطبيعة الجسميَّة على معادن النطق الروحيِّ، فلا يطاولها التكليفُ الرباني إلاَّ بعد الحَشْر، حين ينقلب المعدن الطبيعي، بتِقادُمِ الجوهر المنضغط في مطاحن الظلمات، كالماس، إلى معدنِ عقلٍ - بنقل الخيالِ الترابِ من طبقات الجوف المتراكمة طوفاناً بعد طوفان، إلى

المناخِل المنصوبة على عجلاتٍ خشبٍ تُدار باليد فترقد الحجارةُ المستهدفة في شَبَك عُلويٍّ، ويسقط الرَّمْلُ والسُّخْفَةُ أسفلَ ناعماً.

السيد جوناثان هارولد، ذو الأذن اليمنى المصلومة من أعلى إذْ أصابها سهمٌ إفريقي هو الذي قاد ساحرات النجوم من الأرخبيل البريطاني، بقُلَلِهِنَّ الملآى حساءً من فطر الغابات السوداء، إلى مناجم الدفائن المفقودة، بعد نقل أخبار التاريخ عن الكنوز إلى مجسَّماتٍ من الشَّمع هي مُقاطعاتُ الأرض في رحاب النهرين المَلَكَيْن، اللذين انقلبا ماءً لمّا شغفا بمعادن الترابِ - أصلِ الوساطة في نقل المعرفة الكُلِّية إلى نُقصانها المُحصَّن بالحيلة. ساحرات مختبئات في صناديق من خشب الجوز، تحت أغطيتها القاسية بوصلاتٌ كبيرة، وأقراصٌ من النحاس مقسَّمة كميناء الساعة، وأوتاد مُعَلَّمة بالأرقام الغُبارية المقتبسة من علوم الإسطرلاب. تحت ذلك المتاع، الذي يلي أغطية الصناديق، ترقد الساحرات بأعين مفتوحة يحدِّقن إلى كرات الفَلَك الحجرية في أيديهن الممسوحة بدهن عصعص الغُراب، لا يتكلَّمن؛ لا يتحرَّكن؛ بل يرجع إليهن السيد جوناثان، كلَّ غَسَقٍ، مختلياً بهنَّ في خيمته، ثم يخرج إلى معاونيه، وعمَّاله من سكان الدَّساكر، فيشرب قدحاً من زجاجة زرقاء، مغلَّفة بسترة من خَيْشٍ سميك، ويتحدث بعد ذلك عن أقصر الطرق إلى حمل معبد آشور الأكبر على عجلات من الطين، كما هو، بلا تقطيعٍ، والعبور به مضيق البوسفور إلى العراء الأوروبي، ومنه إلى بحر المانش.

ثلاثة أبواب تفتَّحت في جنبات كايي خودان، على بُعْدٍ متساوٍ أحدُها من الآخر. أبواب من ألواح الصوَّان تدور دفّاتها

على مفاصل كُرَيَّةٍ كعظم الرَّضفة في ركبة الإنسان. وراء الأبواب معابر ضيقة تفضي إلى ساحة صغيرة يُرجَّح أن مقامها مركزُ الهضبة. هناك، على صَحْفَةٍ حديدٍ فوق مكعَّب من الآجر التقى السيد جوناثان بالخيال المنصوب كميناً من كنوز العالم: حذاء ذو عنق قصير، شديد العَقْف في مقدمتيه، من جلْدٍ متشقق، يابس، وقربه كتابٌ من رقائق الذهب العريضة، المخرومة من حوافها كي يسهلَ ضمُّ بعضها إلى بعض بخيطان من شَعر ذيل الجاموس. كتاب منتفخ، لا تنطبق الصفحةُ على أُختها، لأن الفواصل بين المقاطع حصىً أخضر، صغير مثقوب جرى لَصْقُه بمعدن ذائب إلى الرقائقِ الذهب. والحصى مرقوم بإشارات شديدة الضآلة جرَتْ بها الإبَرُ على الجسم الصلب، تروي تعاقبَ شموسٍ، وأنصاف شموس، وأهلَّة، وبقايا نجوم، حاصلُها الزمنُ منبسطاً، ذا أبعادٍ وحدودٍ تُقيِّدُها علاماتُ وقْفٍ من أعلى وأسفل على أشكال مقصَّات.

في الأيام التالية لعثوره على الدَّفائن، وضع السيد جوناثان كُرَّاسةً بخط يده في يد شريكته السيدة كيْتْ هارولد مرتعشاً: «أوصدوا الأبوابَ في هذه الهضبة». كانت حمَّى غامضةٌ أوكلَتهُ بالإصرار على معاونيه التوقف عن التنقيب أكثر، لأن عبورهم من الأبواب يثير فيه إحساساً كأنما يعبرون دماغه بمحاريثَ حديدٍ لها صريرٌ يختبل منه نخاعه وينكمش. عاملٌ من نواحي فيْشْ خابور أجهد نفسه مراراً أن يشرح للسيدة كيتْ العارضَ الفَلَكيَّ الذي ألهمَ النجومَ مثولَها الغامض في جسد زوجها: «إنها تدخل برجَ اليُسْرُوع».
أيةُ نجوم، وأيُّ يُسْروع؟ الشخص الوحيد الذي حاول

تدبير ترجمة حرفية خذله لسانه: ليس ثمت برجٌ منسوب إلى الحشرة الدودية الملوَّنة، ذات الوبر، والقوائم الكثيرة. لكن حركة السيد جوناثان بدت أقرب إلى حركة اليسروع في مشيه متلوياً، يتقدَّم باندفاعات فجائية. «الأرجح إنها حمَّى اليسروع». هكذا اهتدى ذلك الشخص إلى رابط، فوثَّقَهُ رَسْماً: «انظري يا سيدة كيتْ إلى هذه الحشرة. تعرفينها. لقد استوطنَتْ جسدَ زوجك». واكتملت البراهين، من ثم، حين عثر العامل القادم من مراعي فيشْ خابور على يُسْروع أصفر، مخطط بسواد، كثيف الوبر، يفرز حبراً أخضر في راحة اليد: «إنَّه سُمٌّ»، قال، ووضع الحشرة على طرف النقَّالة ذات القوائم، حيث يتمدد السيد جوناثان مذهولاً: «هذا مثل هذا».

اليُسروع الأصفر ذو جاذبٍ لا يُقاوَمُ إذا رآه طائر القُبَّرة، فيميل عليه. لا يأكله بل يرقد عليه رقوده على بيض. ناصبو الفخاخ في الحقول يزوِّدون فخاخهم بحشرات اليسروع يغرزون العقفات في جسومها فتثبتُ في المكان متلويةً حتى تحط عليها القُبَّرات فتُقْتَنَص. نازع الخيال المنسرح على بلورة الفَلَك التائه منذ نشأة الأبعاد الكونية، وتقييدها بالعِلْم المدوَّن على لوح الله، هو الذي يهيىء للقبرة خطأَ التقدير. كل شيء كان كُرَيًّا قبل تفصيل العلامات، والجسوم، والأجرام على مقاس صفاتٍ يستطيع العقل الإنسانيّ تدبير نجاته بها من براثن المتاهة الخالِقة. وحدة بلا حدود. امتزاج بلا حدود. خيال القبرة ظل أميناً لحنينه إلى الفتنة الدائرية. لكن لماذا يختار اليسروعَ لرقوده عليه بباعث القرابة الحاوية لوشائج المكنونات الحية؟ ربما

هو اجتهاد اليسروع نفسه كي ينقلب فراغاً كُرَيًّا في كرة شرنقته: اجتهادُ الفكرة الحيوانية القادرة على الإنتقال من سديمٍ إلى جسم. في كرة الشرنقة ينقلب اليسروعُ إلى فراشة. إنه العروجُ، في الظلام الدفين، إلى خاصيَّة الطير. القبَّرةُ تعرف ذلك، وتريد أن تشهد بدفء جسدها نقلةَ الحياة من الكيان الثقيل إلى الكيان الخفيف؛ من الكثيف المتصل بالتراب إلى اللطيف المتصل بالهواء. أن تشهد آيةَ الجناح خارجةً من كرة الشرنقة إلى كرة الكينونة الصغرى: الوجود المُقفَل ببهاءِ الدورة المتعاقبة للسِّرِّيِّ.

دُفِنَ السيد هارولد في وحشةٍ مَّا من جهات كايي خودان، كي تسترسل روحه، وسط استغراب أرواح الإغريق، في سَعْيها الجامح إلى استدراج حشرات اليسروع إلى الحديقة الصغيرة، التي سوَّرتها له زوجته بحدود من الحجارة لصق القبر، وزرعت فيها حزمة من الأقلام الرصاص، فلربما دوَّن الرجلُ، بما تبقى له من خيال الوحدة، نهايةً مَّا لكراسته التي بلغت آخر جملة فيها منعطَفها الغامضَ في اتجاه العِلْم المستور: «أبواب هذه الهضبة تفضي إلى...»، ورسم حروفاً كالسلالم نقلها عن الكتاب الذهبيِّ، الذي لم يفكَّ أبجديته أحد، وفْق تدوينات الخزانة الملكيَّة في الأرخبيل البعيد.

منذ السلام الذي بسط زرابياته من مداخل سيدروك إلى جنبات كايي خودان، بين الأرواح والأوزِّ، بقيام تلك الساعة الطينية مقامَ الميثاق الزمنيِّ، لم يجاوز الإوزُّ حدود شجرات التين المترامية إلى أربعمائة ذراع خلف بيت كريم بيرخان، إلاَّ في ذلك الصباح الباكر، الذي قاد فيه زاهدان نوري،

وشهبور نظيمي جواديهما في المسلك إلى الساحة. ليسا في حاجة إلى أن يعرفا موضع البئر، لكنها ستكون هناك، قطعاً، مفتوحة الثغرة لفادِن السماء الذي تقيس به الملائكُ استقامةَ الألواح اللامرئية، المتهيئةِ لأقلام الشُّفافات. هما جاءا مستطلعين، يتعلّلان بسقاية الجوادين كي يتلمَّسا خبراً عن المحلِّ الذي ينزله الغرباءُ الخمسة. شهبور لم يكن مرتاحاً إلى تكليفه باستطلاعٍ تتمُّ به الدورةُ من قيافة الأثر إلى تمهيد القتل. «إعْفِني» قال لزاده. «أخذتُك إليهم أثراً بعد أثر. تلك مثاقيلُ علومي. فلْيستطلِعْ أحدٌ غيريَ وجودَهم أجساداً حقائقَ يا زاده».

«وما الفرق الآن يا شهبور؟ صِلِ الأثرَ برحِمِه»، ردَّ زاده.

«ليس في مُكْنَة القيَّاف إرهاقُ الله»، قال شهبور.

«أيُّ رَهَقٍ يا شهبور؟ لو كنتَ ترهقُه لَمَا سوَّى لك هذا العِلْمَ. هيا. ما الوجه الذي يرهقُ به القيافُ اللهَ؟»، رد زاده.

«أن يقود الموتَ من يديه إلى غايته يا زاده»، قال شهبور.

ابتسم زاده فتلألأ على أسنانه لُعابُ الغضب المبتسم: «أنت لا تقود الموتَ، يا شهبور. هو هناك، فاستطْلِع لنا موقعه كي نعود به حافياً».

مسعوراً خرج قطيعُ الإوزِّ من الظلال، فانضمت إلى صياحه وفودٌ من أوز الضفاف أيضاً، راكضة تكاد تطير من نزوعها إلى فتنة الصياح. بوغت الجوادان فلُجِما، فتقدَّم بهما الراكبان وسط غمامة الريش البيضاء من حولهما، من المُنْعَرَج المتلفِّ وراء البيوت صوب الضفة، ثم سَلَكا منبتَ

العشب بمحاذاة الماء، حيث طقطقت قشورُ الأصداف والقواقع الصغرة تحت السنابك. لمحا فتياتٍ يحملن قدوراً فاسترشدا بانسيابهنَّ الذي فوَّض الصباحُ به الطبيعةَ كي تتلقَّفهنَّ بشِبَاكِ الغَمْرِ المكنون: «النساء فراشات الآبار». قال زاهدان، فهز شهبور رأسه موافقاً:

– الجفافُ، أبداً، هو أثرُ الماء. والقدور المعدن، أيضاً، أثر من آثاره.

دخلت الفتيات ظُلَّةَ العرائش العالية. اختفين وراءها، ثم عَلَت مشاجرات الأواني النحاس في مرحٍ، لمَّا أرْكَنَتْهُنَّ الأيدي الأنثويةُ حوافَ الطوق الحجري من حول البئر، وتزاحمن على الحبل المفتول. صَرَّتِ العَتَلةُ المتدلية من العارضة الخشبية، فأصغى إليها الراكبان. مرَّا من تحت العرائش فإذا هما أمام الرقعة المرصوفة حَجراً يقتفي البطُّ في فجواته وشقوقه طحالبَ النداءِ المائيِّ. نزلا عن جواديهما فنفر الإوزّ الذي صحبهما في نزقٍ. التفتت الفتيات إليهما. هدأت حركة أيديهن في رفعِ الدلو المطَّاطي الضخم. شقَّا الهواءَ إليهن بمدية الفراغ الذَّكر. سلَّم زهدان عليهن تسليم الشعاعات الأولى المُعْتَقلة في قوارير الغيم، فرددن التحية في خفر وهنَّ يجعلن لثاماً على أفواههن من أطراف أوشحة الرؤوس. صَبَبْنَ دلواً في الحوض الحجري قرب البئر عارفات أنهما يطلبان السقاية للجوادين، فأبديا امتناناً. ترك زاهدان عنان جواده في يد شهبور وانبرى يعينهنَّ على سحب الدَّلو ثانية: «أمرَّ من هنا، قبلنا، غرباء آخرون؟»، قال من غير أن يرفع عينيه إليهنَّ. تكلمت إحدى بنات مانو ساروخان: «لماذا تعتقد أن غرباء آخرين مروا من هنا؟».

نزل غبار من وبرٍ إلى حنجرة زاهدان. تدخلت راميْسانْ، ابنة الآغا كريم، المرتدية حذاءً ينكشف عن ظاهر قدميها الموشومتين بحروف من أسرار معارج الصين: «ألا تُحسنين رداً صريحاً يا فتاةُ؟ تردِّين الظمآن من البئر أكثر ظمأ»، قالت، والتفتت إلى زهدان: «في بيتنا ضيوف غرباء» وأشارت برأسها إلى لفيف من العرائش تجرَّدت للقاء رسول الدورة الأزلية. أومأ زاهدان لشهبور أن يتقدم للشرب من غير نطق. ترك القيَّاف الجوادين ينهلان الماءَ من الحوض، وتقدَّم. انحنى مكوِّراً راحتيه يتلقَّف الزلالَ المسكوب من الدلو. عَبَّه عبَّاً ثم أجفلَ. ارتَّد عائداً إلى الجوادين. لم يشأ زاهدان أن يستفسر أمام الفتيات بالفارسية، لأن القيَّاف لا يعرف الكردية. شكرهن متراجعاً إلى صاحبه. صعدا جواديهما وابتعدا: «ما بك؟»، سأل الترجمانُ القيَّاف.

«رأيت في الماء دماً»، قال القيَّاف.

«ألم تكن تتتبَّع الدمَ منذ البداية، يا شهبور؟»، ساءله الترجمان، فصمت القيَّاف برهةً. عبَّأ اللَّفظَ نَشْغاً من غذاءٍ آخر: «ما الذي تراه يا زاهدان؟»، قال بانسراحٍ يدلُّ العقلَ على أول المتاهة، فردَّ الترجمانُ: «أرى الماء»، ونظر إلى ظاهر يده التي أصابتها قطرةٌ من حبر الغيم.

الماء معقلُ الريح التي تتوالد في الحنجرة الآدمية فينطق الآدميُّ، ويُسمِّي نَفْسَه بأسماء لسانه، فيما يتعالى الحيوان عن النطق فلا يُسمَّى إلاَّ بصفات الآخر الناطق. الماء الذي رآه شهبور في الدلو لم يكن معقل الريح بل العبث، حين يكون العبثُ عِلْمَ استقصاءٍ. شرد قلب شهبور فأعانه زاهدان على استعادته: «سمعتُ الحجرَ يكلم البئرَ بلسانٍ

رطب. هذه ساحةٌ ناطقة»، قال.

«هي ناطقة بالقَدْر الذي تترجم عنها، يا زاهدان»، ردَ شهبور.

نظر زاهدان بطرف عينه إلى جَمْعٍ صغيرٍ من الرجال قرب لفيف العرائش، حيث الدارة التي أشارت الفتاة إلى نزول الغرباء ضيوفاً عليها، وعاد فحدَّق إلى القيَّاف جانبيا: «لماذا قبلتَ اقتفاء آثار هؤلاء، يا شهبور؟».

سربٌ من طيور القَبَج نقشَ آثارَهُ بالأجنحة على سور الغيم ذي البوَّابات والمراصد: «هو امتحانٌ أردتُ أن أستكمله بامتحانٍ»، قال القيَّاف.

«ومَنْ تمتحن أنتَ يا شهبور؟»، ساءله الترجمان.

«أمتحنُ اللهَ»، ردَّ القيَّاف.

إبنة مانو ساروخان، التي تتبعت الجوادين بعينيها من مشارف البئر حتى اختفائهما وراء جذوع شجر التين، ترقرق الفضولُ على لسانها المتدرب على مجابهات الألغاز: «غريبان لا يحملان متاعاً مَنْ يكونان إذاً؟»، ساءلت الفتياتِ، ولم تنتظر ردَّهنَّ: «هما من الجنِّ»، قالت ضاحكةً، في البرهة ذاتها التي أمسك فيها جميل الأعمى، ذو الخيال العابس، برُدْنِ ابنه عليٍّ، حين عبرهما الغريبان فسلَّم أحدهما بلسان كرديٍّ، والآخر بإيماءة من رأسه: «جوادان خفيفان»، قال الأعمى.

«نعم»، ردَّ ابنه.

«إنهما لا يحملان متاعاً»، قال الأعمى.

«كيف عرفت؟»، ساءله ابنه.

«ألم تؤكِّد لي أنهما خفيفان يا ابن الطنبور

المثقوب ؟ » ، قال الأعمى .

صمت عليٌّ . كان ذاهباً مع أبيه لوداع الغرباء الخمسة حين صادفهما الراكبان ، في مُنْفَرجٍ من أقواس غصون التين ، المحيطة نصفَ دائرة مديدةَ الإتساع بالصفِّ الثاني من بيوت سيدروك شمالَ شرقٍ . تمتم الأعمى :

- غريبان لا يحملان متاعاً مَنْ يكونان ؟

« يكونان غريبين » ، رد الشاب ذو العينين اللتين أسقطَ الوجودُ منهما حسابَ الألوان ، وأغلقَ زرقتهما على ختمٍ أسود ذي تعاريق بيضاء . دمدم الأب وهو ينقر خرزةَ المتاهات بالسنان الحديد في طرف عصاه :

« بل لا يكونان غريبين » .

« لم نرهما من قبل هنا ، يا أبي » ، قال علي ، فردَّ الأعمى :

« هما إمَّا يعرفان المكانَ ، أو تخيَّلاه » .

ضربت قطرتان من حبر الغيم مقبضَ العصا المعقوفَ في يد الأعمى . تشاجرت إوزَّتان عادتا أدراجهما من مطاردة الغريبين . مست أذيالُ الهواء ورقَ التين المستلقي غافياً فتشبث بها مهرولاً من فوره . دخل عليٌّ وابنه ساحة دارة كريم بيرخان ، حيث روكِمَ متاعٌ قليل على المسطبة الملاصقة لغرفة المؤنة ، تولَّى حَزْمَهُ حميد داهي ، والشقيقان جادو ، وأَسيف . باب المضافة كان مفتوحاً على مصراعه على حديقة اللون الرمادية في الداخل ، المثمرة لحظتئذٍ بأفانين من عناقيد الكلام وعثاكيله . اقتراب الساعة المنذورة العقاربِ التسعة لرحيل الغرباء شحذ همَّةَ الصوت ، المُقسَّم أعشاراً متساوية النَّبْر بين الجالسين القرفصاء ، في حالٍ

مشدودة إلى النهوض. أقداحُ الشاي الأخيرة عرقت قليلاً في راحات الغرباء الخمسة، التي جاهدت أن تطيل المبادلة الدافئة بامتنانٍ دافىء. «سنعود أدراجنا فرسخين إلى الشمال، إذاً، لنتوجه صوب أرض جزيرة الكُرد شرقاً»، قال شريف رندو بعد سماعه شرحاً عن مسالك السماء فوق الأنهار من فم هوار حاجي.

كان المزدحمون في الداخل يتبادلون العلومَ المُقْتَطَفة خُبزاً من تنُّور الأسفار وأهلها، ويستعرضون أمام الغرباء ضروباً من تدبير المساررات مع الطبائع المُلْغِزة في الفلوات والأودية، ويرسمون بحبر المُشافَهة خططاً ذات زوايا، ودوائر، وأقواس، لترويض الليل بالتمويه عليه في مُصَانعة الأشكال بالحركة، والتَّسامر بالقصص المُشْكِلة، المعدومة النهايات. وحده الأعمى، حين دلف داخلاً بعينيْ عصاه إلى مأدبة الخيالِ الناطق، نثر بذاراً حامضاً على الألسنة: «إنها تمطر». تبادل الغرباء الخمسة النظرَ، يقرأُ الواحدُ في بؤبؤيْ الآخر مجازفاتِ الحظوظ.

«ماذا ترى يا جميل؟»، قال كريم بيرخان كأنما يحثُّه على الطلب من الغرباء أن يتريَّثوا، فهأهأ الأعمى:

– آخر شيء رأيتُه كنتُ في الثانية من عمري. رأيتُ لوناً لا غير، أعطيتُه عينيَّ وأخذتُ عينيه.

«تعني لونَ منيِّ أبيك» قال الراكن بظهره إلى الزاوية، حيث اعتاد الأعمى مبادلةَ الأباريق جواذبَ صوته المهشَّم، فارتعد عِرْقٌ في طحاله. إنه سرعو الذي بدَّد الهدنةَ، وسدَّ على نجاة جميل من شراكته في البذاءة الطاهرة بابَ الإنشاء المعتدل للسخرية. كلاهما حيٌّ، بدمٍ لا عَكَرةَ للسمِّ فيه،

غير أنهما فوجئا بحضور أحدهما في مجلى إقامة الآخر تحت إبط الهواء. سرعو كان أسرع في العودة إلى التقاذف بأهوال اللفظ المُرِّ، مغتاظاً من إسراف الموت في خذلانه، فيما صمت الأعمى، يدير خيالَهُ العابسَ على قُرْص من طين العماء: لقد خَذَلتْه المكيدةُ أيضاً. لربما فعل سرعو بلفافة التبغ المسمومة ما فعله هو، إذ فتَّتها في عودته إلى البيت، بعد غناء زينو ميڤان، بين أنامله تفتيتاً بطيئاً، من ضفة النهر حتى بوَّابة السور، ذرَّةً ذرةً من التبغ قد تعود -، إذا نزل بها المطرُ في مسام التراب إلى المتاهة المطمئنة لصِوَر الأعماق، فانعقدتِ الذرَّةُ المسمومةُ خميرةً، - إلى المشمول بهداية الظاهر العتيق بُخاراً ذا ذاكرةٍ. وها هي القطرات الأولى لحبر السماء تدوِّن المسألةَ تدوينَ التركيب في خصائص الطِّباع كالصَّيدلانيِّ، فتدفعُ ذرةَ التبغ حثيثاً إلى الذَّوب في كمين العناصر.

تواجهت على رقعة السماء المشدودة بسيورٍ من الأقدار جيادُ الغيم ومَسَالحه، وعجلاته، وناقرو دفوفه، وبوّاقوه، ورماة صواعقه. نُصبتِ السلالمُ على الأسوار الرصاصية ذات الباطن الزئبق، وأُوْقدتْ نارُ الضروراتِ الزلالِ تحت قدور الغَمْر المرفوع سحاباً فوق أسنَّةِ سحابٍ. انعتقَ المُقيَّدُ من الفراغ بسلاسل المرئيِّ، وحُوِّكتِ الأخاديعُ بين الضياء والشُّبهة. لم يكن ثمَّ هَرْجٌ بَعْدُ يحيل الفضاءَ المصكوكَ حرائقَ باردةً، لكن ظهور الملائك الكروبيين في البرزخ الذي ليس لهم، وسطوعَ بروقٍ صغيرةٍ من عظام تُرمى من نهايات الفَلَك المكسور إلى المرآة، كانا نُذُراً بالمَزْجِ واختلاطِ الصِّفة بالكناية.

أولُ الهطول كان الصِّدام، في المرايا، بين قطعان الذئابِ البيضاءِ - ذئابِ المحظور المنقلب في إنبيق الشيطانيِّ إلى خير من ريش السنونو. البغال التترية الخمسة، المُقَادة من أعنتها إلى خارج الحظائر، هزَّت أعرافَها وهي تنتظر ظهور راكبيها من المضافة. تبادلت خواطرَ مُرْسَلةً من مستور المعنى الحيوانيِّ الذي يضلِّل الحروفَ، وتخاطبت بالكمال الأخرس العريق. طقطقتِ السلالم في الأعالي، وتقوَّضت بعض الأبراجِ من صِدَام المَقَارع الأكباش: غيمٌ يسحل غيماً؛ سواد يكسِّر السوادَ بهراوات من لبن الشعاع ذي الضروع الزُّرْقُم. الفراغ آيل للسقوط خفيفاً في رئة الماء المنهمر: هكذا صوَّرتِ الأرضُ بقلَمِها تُحْفَةَ النَّدمِ - السماءَ فوق سيدروك.

« فلننهضْ »، قال جكَرْ سَيْدا، الحليق اللحية، فوافقه ناهضاً واليْ جناب المبتسمُ ذو الغمَّازتين. تمتم كريم معترضاً: « هَلاَّ لبثتم قليلاً حتى تنفرج؟ »، فأجابه شريف رندو: « المطر عباءة من هبات الله، يا سيد كريم »، وتناول راحةَ مضيفهم. فتحها ووضع فيها منديلاً ملفوفاً على كتلة صغيرة صلبة: « ليس لدينا ألفاظ نكافىء بها كَرَمك. احفظْ هذا أثراً تتذكَّرنا به ونتذكَّرك به »، قال شريف. فتح الآغا المنديل فألفى ختمَ البريد الراقد في معدنه طائرُ الأربعةِ الأجنحة. « هذا كثير »، قال، فضغط شريف على يده يُطبقُ أناملَها على الختم بإلحاحٍ صامت.

« دورة أخرى من الأقداح »، قال ناظرُ الأباريق حميد داهي. « هذه دورةٌ من أجلي »، وقدَّم إلى الخمسة، فوق صَحْفَة واحدة من التوتياء الملتمع بعافية النشادر، أقداحاً

عليها رسومٌ كأجنحة الدعاسيق رفعتها الراحاتُ بإجلال إلى أفواه الشاربين الواقفين. تنفَّست الرئاتُ امتنانَها بغمغمةٍ هي اللذَّةُ مطحونةً في حروفٍ ملأى بشراب الذهول المُسْكِر. «ما هذا التَّرَف يا سيد حميد؟»، قال زينو. «ماذا في أباريق الملائكة هذه يا مروِّض الطُّعوم؟».

ابتسم حميد ابتسامةَ الحاكم مقادير النار: «ذلك من أسراري، لا يبوح بها وارثٌ مثلي إلاَّ لوريث».

كان ينبغي أن تُرتشف أقداحٌ كَتلك بأناة الخيال، كلُّ رشفة درجةٌ إلى معقل الحواسِ الأبعد، حافظةِ المزاليج التي لا تُرْفَعُ إلاَّ شوقاً. أمَّا تلك الثُّلة من الرجال، التي نزلت عن جيادها في سكونٍ أخرسَ خلف لفائف شجرات التين، فكانت ترتشف، بدورها، من أقداح الهواء خَلَّ الكيد. أشار زاهدان نوري بيده إلى بيت كريم: «الفتاة دلَّت عليه»، هَمَسَ بلسانٍ جاف.

لم تكن الشجرات لتحجب زاده بزربادي وصحبَه حقًّا، لكن المطر أخلى المسالك إلى البيوت، والإوزَّتان، اللتان اغتلم فيهما النفيرُ الشهواني إلى العراك، ضجَّتا ضجيجاً متقطعاً عن مبعدة ثلاثمائة ذراع من الثلَّة الوافدة، ثم انضمتا إلى السرب اللائذ بسقوف عرائش العنب المتكسة الأوراق الصفراء، متأمِّلة بلُّورات الأحكام الشفيفةَ بين أنامل الغيب. شهبور القيَّاف بقي إلى جوار العربتين عند أقدام الهضبة: «لن أشهد انتكاسةَ العِلْم الذي لي»، قال لزاده.

«عدتَ إلى تشريد اللِّسان. لا أفهمك»، ردَّ زاده.

«كل نهاية، يا زاده، هي انتكاسة لعِلْم القيَّاف. القِيَافة أثرٌ زمنيٌّ. فَقْدٌ في الملاقاة؛ ملاقاةٌ في الفقد. ينبغي العثور

على لانهاية الأثر، وليس نهايته. النهاية انتكاسة، وها أنت تريدني أن أشهد نهايةً ستتدبَّرها أنت»، قال لزاده.

«لن أفهمك. سأتمِّم العِلْمَ الذي جئتُ من أجله بعد قليل. ليكُنْ. إبقَ مع العربتين»، قال زاده، وألْزَم شخصين آخريْنِ أيضاً أن يبقيا. ثم انحدر بثُلَّتِهِ إلى أخدود المقدور على غمامٍ له أرْجُل الزَّراف.

لم يجاوز المطرُ أدبَهُ في حالٍ كتلك من أحوال الخريف. تمادى ساعةً وعاد فالتزم الحدَّ المنصوص عليه بأرقام العدل الكتيمة. رقَّق القَطْرَ وأنْقَصَ من مقاديره على المغْزَل الدائر خفيفاً في ملتقى القباب الكبرى. مسح شريف رندو على لحيته المُحنَّاة، خارجاً في هدوء إلى الساحة. تبعه الأربعة الآخرون، فالآغا كريم بيرخان، فالجمعُ الجُلَساءُ المعلومون. صعد زينو إلى ظهر بغله أوَّلاً. ربتَ على رقبته فنفر من راحته الدمُ. أُثْقِبتِ الرقبةُ بطلقةٍ خرقَتْها وخَرَقتْ يدَ زينو. تهاوى البغل أخرسَ كأنما أقعدتْهُ أثقالٌ، فتدحرج المغنِّي. ذُهلت العقولُ، واختبلتِ الأقدامُ. نهض زينو مصعوقاً فخرَّ فوقه والي جنابْ مهتوكاً بالطلقة الثانية. استدار الرجال معجِّلين من الهول أويتَهم إلى المضافة قَفْزاً فانحشروا، وتصادموا. خرَّ بغلٌ ثانٍ أُجفل فاختلط بالمذعورين. اندفعت بنات كريم من ستور الأبواب الأخرى متنحبات يستطلعن إنْ مسَّتِ الداهيةُ أباهنَّ أو شقيقاً من الإثنين. سقطت راميسانْ على وجهها وانزلقت أشباراً، ثم انقلبت على جنبها وخمدت. تعرَّتْ قدماها فبدت الوشومُ الحروفُ على ظاهريهما زرقاء كأشباح الأباطرة الجالسين تحت عرائش النَّمنمات، خلف سور يأجوج وماجوج. ناحت

البنتان الأخريان نَوْحاً مكسوراً ذا ذُعر ، فاستدار كريم عائداً إليهما مُمَزَّق الخيال فانهار . شقت الصرخةُ حنجرتي إبنيه . تقدما إليه مخذولَيْ أعصابِ السيقان التي مَرَجتْ عكرةُ الهول خَدَرها بأوتارها ، فلمَّا مالاَ عليه سقطا على ظهريهما مقتولين . هوار حاجي الذي لم يستطع مزاحمةَ الهاربين إلى المضافة ، التصق بالجدار متقوِّساً ، وعيناه على كريم وإبنيه الممدَّديْنَ ، وابنتيه الزاحفتين ناوي ، وسِيْن ، ملجومتي العضل لا تعرفان أتتجهان إلى أختهما الخامدة ، أم أهلهما الآخريْن . كانتا شاحبتين . مذهولتي الأعين ، مفتوحتي الفمين بلا صوت . حشرجاتٌ تنازعتهما كأنها تلحقان بالموت كي يوقظهما من ثقل جسديهما الكابوسَيْنِ . استقام هوار . بضع طلقات خرمت الحائط . فتح صدر جبَّته وتقدَّم في عراء الساحة صوب شجرات التين : «أنتم تهينون الله» ، قال بلسان شقَّهُ نبرُ النوح . كرَّر كلماته وقد توقفت البنادق الثماني عشرةَ عن ترديد جهالة البارود المُحْتَقِن . دامت السكينة الممدَّدة كالشفرة برهةً تولى بهاهواز ، وحده ، سَلْخَ كبده على وقْع كلماته المخذولة ، قبل أن يعلو الدويُّ الممَجَّد بالدخانِ - مبذِّرِ التصاوير . ثلاث طلقات شقت صدر الرجل الضخم ، نديمِ الآبار المعصومة ، وتسع طلقات ردت باب المضافة على مصراعه مفتوحاً على ثغرة الداخل العمياء .

حار زينو المستلقي تحت جثة والي جنابْ أينهض هارباً أم يتماوت فينجو . خلت الساحة من أحياء سوى بغلين احتمى أحدها بالآخر ، وفتاتين متقوِّستين يعضُّ على لسانهما الزَّمعُ بأسنانه . نساء ، وشبان ، وشيوخ ، وصِبْيَة أطلوا برؤوسهم من وراء الجدران البعيدة قليلاً لا يبارحونها .

خرجت ثُلّة القتل من وراء أشجار التين على ظهور الجياد تركض ضَبْحاً، كأنما ستصدم المضافة حتى تنهار. نزل أربع عن مطاياهم حين بلغوا الباب، وأطلقوا، بلا تعيين، على الداخل أربع طلقات، ثم نزل غيرهم ففعلوا ريثما يحشو الآخرون بنادقهم بالطلقات من جديد. حوَّم الأنينُ بيعاسيبه على الجلّنار الذي سالَ دافئًا. صرخ زاده بالفارسية: «اخرج يا شريف رندو»، وأومأ إلى الرَّاجلَيْنَ من صَحْبه أن يبتعدوا عن الباب، الذي اندفع منه سرعو مولولاً: «لستُ شريف رندو».

«أتعرف الفارسية؟»، خاطبه زاده، فردَّ النحيلُ الممتقع: «نعم».

«اجلب شريفاً وصَحْبَه الأربعة»، قال زاده.

ذهل سرعو أكثر. انعقد لسانه وخطوه معاً. لم يعرف ما الذي ينبغي عليه، في برهة الفجاءة الفظة، أن يفعل. أرسل بصره حائراً إلى الساحة فاختبلت أحشاؤه وهو يرى ابنتي نديم فوق جثة أبيهما. جمد. «هيا» صرخ زاده، ونقر خاصرةَ الرجل بقدمه من علياء حصانه. تقدم أخوه رامي من سرعو. وضع فوهة البندقية على قَذاله وضغط الزناد: «هُم محشورون موتى في الداخل، وأنت تسأل حماراً أن يأتيك بهم؟»، دمدم الشاب، فيما نزل سرعو من ثغرة الضياء الأرضيِّ إلى مجرَّة النُّخالة عند قوس الأبد.

«أين أنت يا زاهدان؟»، قال زاده وهو يشد لجام جواده المُحَمْحِم.

«هنا»، ردَّ الترجمان.

«هيا خاطبهم ليخرجوا. ينبغي أن نسرع»، قال زاده.

« فلندخل عليهم » ردَّ الترجمان.

نقر الأعمى، ذو الخيال العابس، عارضةَ الباب بسنان عصاه يتلمَّس طريقَه خارجاً، وقد التصق بظهره ابنه علي. اقتربا من الجياد ووقفا باستسلام. ظهر من العتمة الرمادية شريف رندو أيضاً، يتبعه جكر سيدا، والملا نجدت. كان أمير البريد المدحور، المحنَّى اللحية، يحمل لفائفه الأربع السوداء حزمةً مضمومة إلى خاصرته. نقَّل عينيه في الوجوه حتى استقرتا على زاده. تأمله بانكسار. وضع زاده فوهة البندقية في نحر الرجل الكهل، وأطلق النار. تراجعت الجياد قليلاً كي تستحكم البنادق الأخرى في تثبيت عُلومِها شَرْعاً. تهاوى الغريبان جكرو ونجدت، ثم استدارت المواسير الحديد إلى الأعمى وابنه فانتُزِعا من خوفهما بعدما خلع الجسدان عنهما أَلَمَهما الزمنيَّ. نزل أربعة من الثُّلة عن جيادهم واقتحموا الثغرة الرمادية إلى مساكب الأنين. عوى الموت في المضافة إحدى عشرة مرة. عاد المقتحمون إلى جيادهم. استداروا جميعاً وانسحبوا خبباً وهم يستطلعون الجهات متوترين. « لم أرَ زينو »، قال زاهدان نوري وقد جاور زاده. لجم زاده جواده: « لن ينجو مدبِّر الهيام »، تمتم، وأومأ للترجمان أن يعودا إلى الساحة فعادا. مرَّا بالفتاتين المذهولتين، الجاثيتين كأنما سالت عظامهما. مرّا بالبغال الثلاثة المنطرحة: إثنان سلَّما المقاديرَ آلةَ الحيلة، وواحد يحتضر. جاورا جناب والي المنطرح فوق زينو. انحنى الترجمان: « هذا هو ». سدَّد زاده طلقةً إلى رأس المغني المتماوت: « خُذْ معك حنجرة بندقيتي »، فانفرجت أسارير المغني المنقبضة من هلعها. تراخت جوارحُه وطفتْ في غمامٍ كالصوت.

جاوزت الثلةُ شجراتِ التين وانعطفت شمالاً إلى أرض كايي خودان ركْضاً. انضمت إليهم العربتان هناك، والرجال الثلاثة، خائضيْن، جميعاً، في السَّهل الذائب تحت قدور الغيم. وفي الفلاة الثالثة بعد دَغْلَيْ شجيرات العَلْد والقِرْصَعْنَة، التقت الثلَّةُ جامعَ الأغاني مانو ساروخان، ودليله جكرو عمشة العائديْنِ بحفنة من بذور الصوت إلى حقل سيدروك، الذي سيُنْبِتُ شهواتٍ كزهر البابونَّج بالهواء المندفع عليه من رئتي ابن الأعمى، ذي العينين الزرقاوين اللتين موَّه اللونُ عليهما خيالَهُ في قناع الرماد. جاورت الثلّةُ الرجلين فحيَّاهما زاهدان نوري بلفظٍ كرديٍّ، وأومأ بعضُ الآخرين برؤوسهم مُلْقِيْنَ همهماتٍ بلا حروف، فردَّ الرجلان التحيةَ مضاعَفةً. ولمَّا جاوزوهما التفت جكرو إليهم يخاطب صاحبه: «ألا تظن أنهم يحملون بنادقَ في تلك اللفائف؟».

لم يردَّ مانو. كانت عيناه على الهضبة البعيدة، التي بدت صفراء قليلاً في معارج لون الزئبق، الذي طُليتْ به سياجاتُ اللامرئيِّ.

في ساحة دارة الآغا المقتول نهضت الأرواحُ تباعاً من انْفِلاق بذور الأجساد، التي أنْضَجها الموتُ، كنَشْرِ النَّبات: راميسان الفتاة، وأبوها، وأخواها، والغرباء الخمسة، والأعمى وابنه، وهوار حاجي، وسرعو، وحميد داهي، وأربعة عشر جليساً، إضافة إلى البغال الثلاثة، التي هزَّت أعرافَها مُمْتَنَّة للخيال الجديد الذي تقدر أن تتوسَّط به بين الغيب والمنظور، وأن بَسطَه على غَمْر الله حَكَماً يَزِنُ الضروراتِ بمثاقيله. أرواحُ الآدمين أخرجت ساعاتِها المعدنيةَ المتشابهة من جيوب سُتراتها الرقيقة المتشابهة. نظرت إلى

عقاربها المتشعبة، المضيئة كبروق فوق الأرقام الزاحفة من موضع إلى آخر، تتبادل الخصائص والكمَّ. أعادت الساعاتِ إلى جيوبها. تلفَّتتْ في هدوء رخيٍّ من حولها تستعرضُ جسارات الظاهر، ثم تقدَّمت على مهل صوب الدرب الملتفِّ من وراء دارة كريم في اتجاه الهضبة.

زلزل العويلُ ضفة دجلة الشرقية حين تجرأت النساء، أخيراً، على تفقُّد أعشاش الهَوْل الملآى بفراخه العارية. سربُ الإوزِّ الملتمُّ من الأنحاء كلها بحيرةً من بياضٍ لم يشارك النساءَ صياحَ النَّدب، بل مشى مَهَلاً من منابت العرائش العريقة جنوباً إلى ضفة النهر غرباً. صعد الحَدَبةَ الطويلة، المُعْشبة، في محاذاة الماء السارح في شؤونه الصلبة كالأقفال، وتقدَّم شمالاً، سطوراً تَفَكَّرَها اللونُ وأنشأها خيالاً من ريش. ولمَّا جاوز السربُ آخر مسكن من مساكن الحرَّاثين الموسميين الفارغة، عرَّج شرقاً ليلاقي جَمْعَ الأرواح فاختلط به متفرِّقاً، كلُّ قطيعٍ صغير منها يواكب روحاً واحدة كأنما هو في المسالك إلى مرعى، رَضِيًّا، هادئاً، تُعيد الإوزَّةُ على نفسِها ما حفظته من امتداح العماءِ للهيولى الناطقةِ بلسان الشُّكْر.

تلاقت، في مقام الهضبة الرحبِ، أرواحُ أهل سيدروك بأرواح الإغريق المعتمرين خوذاتهم. تجادلوا قليلاً، متواجهين، يُرِي الواحدُ راحةَ يده للآخر كأنما يُقْرِئُهُ المواثيقَ الأكثر بياناً في صوغها، سرعو والأعمى انْتبذا جانباً من الجمعَيْن يتبادلان تهديداً بإشارات من الأيدي، فيما توجَّه شريف رندو إلى روحٍ لم تبارح موقعها المسيَّج بحجارة صغيرة، نظيفة، ممسوحة بأناة. قارَبَه وأوما مسلِّماً، فنهض

جوناثان هارولد ممسكاً حزمةً من أقلامه الرصاص، دوَّن بواحد منها على تَرْقوة حيوان كانت تحت إبطه رسوماً مُخْتَزَلةً هي أبوابُ الهضبة، ومقاسات محيطها. ألقى الرعدُ شِباكَهُ على كَمآت العوالم الدفينة، وتلمَّس العدمُ كتفَ شقيقاته الخمس. أتَّكأ عليهن كي ينقلْنَه من ضفة الممكن الكبير إلى ضفة الممكن الصغير، حيث تتولَّى النشأةُ إحصاء الخسارات التي تسمِّيهنَّ بأسماء بطٍّ، ودجاج، وبنات عُرْس، ونمور، وعناكب، وذرَّاعاتٍ زرقاء، وهِررة: منذ اكتملَ للمكان، بخصائص الشوق، أن يتَّهم المكانَ بالعثور على زمنٍ لقيطٍ، ومنذ اكتمل للزمن، بخصائص المُحاكاة المُتْقَنة، أن يتَّهم الزمنَ بالعثور على مكانٍ لقيطٍ، انقلب الوجودُ على اليقظة الدهرية، وأظْهَرَ باطنَ الأزل مُتقلِّباً من حالٍ إلى حال. أمَّا الرقعةُ الخلاء، المدحوَّةُ رقائقَ أخلاطِ طينٍ، ورملٍ، وبذورِ نبات، فقد انتهى إليها سربُ الإوزّ، بالتفافٍ من وراء الأرواح، يلتقط أفواجاً من حشرات السُّرْفةِ - اليُسْروع لا تظهر، عادةً، في خدوش الخريف، هناك، في الأرض المنبسطة تحت إشراف الساعةِ الطينِ الكبيرة ذات الأرقام الحجر، التي احتفرها أهل سيدروك بارزةً في السَّفح؛ نافرةً كعقلٍ عُنْصُرٍ يتدبَّر الصُّلح بين الكينونات، ريثما يتحرَّك عقرباها حين يُغمى على الأكيد المُشْرِف على نَهْبِ العدم.

نيقوسيا
من ٢٣/١٠/١٩٩٧
إلى ١٤/٩/١٩٩٨

صدر للمؤلف

- كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً (شعر) .
- هكذا أبعثر موسيسانا (شعر) .
- للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر) .
- الجمرات (شعر) .
- الكراكي (شعر) .
- الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) .
- هاتِهِ عالياً ؛ هاتِ النَّفر على آخره . (سيرة الصِّبا) .
- فقهاء الظلام (رواية) .
- بالشُّباك ذاتها ؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر) .
- أرواح هندسية (رواية) .
- الريش (رواية) .
- الديوان (الأعمال الشعرية في مجلد واحد) .
- البازيار (شعر)
- معسكرات الأبد (رواية)
- طيش الياقوت (شعر)
- الفلكيون في ثلثاء الموت : عبور البشروش (رواية) .
- الفلكيون في ثلثاء الموت : الكون (رواية) .
- الفلكيون في ثلثاء الموت : كبد ميلاؤس (رواية)
- المجابهات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريف وغيرها (شعر) .

أنجزت المطبعة العربية
بيروت - لبنان
طباعة هذا الكتاب
في شهر شباط ١٩٩٩

المسكونون في عبورهم فراسخ الغيم من حقول أورفة، وبوطان، ونهاوند، ونيس، ورانية، مرورا بكايي خودان إلى:

أنقاض
الأزل الثاني



هذه الرواية استدراجٌ إلى تخطيط المخرج بعد فوات الأوان، وهي الدليل المتأخر في تدبير النجاة إذا لم تزل، أيها القارئ، عاكفاً على تبويب المطاردات من الشرق إلى الغرب.

المؤلف: شاعر وروائي من مواليد ١٩٥١ القامشلي – سورية. من مؤلفاته: «**طيش الياقوت**» ١٩٩٦، «**الفلكيون في ثلاثاء الموت – الكون**» ١٩٩٦، «**الفلكيون في ثلاثاء الموت – كبد ميلاؤس**» ١٩٩٧، «**المجابهات، المواثيق الأجران، التصاريف، وغيرها**» ١٩٩٧، وجميعها صدرت عن «دار النهار».

ISBN 2-84289-118-x